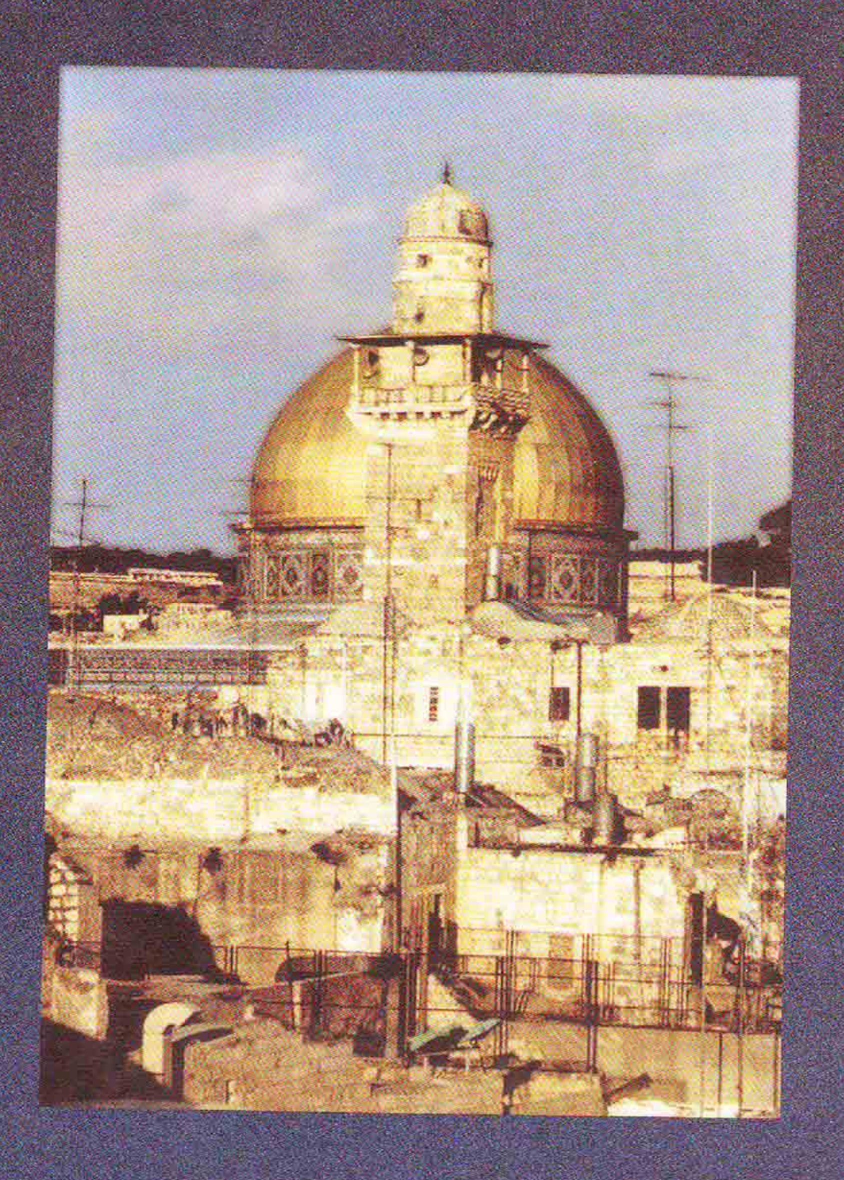
د. عصام موسى قنيبي

المدينة المسحورة

دراسة موجزة

في تاريخ مدينة القدس خلال خمسة آلاف عام





اسم الكتاب : المدينة المسحورة
دراسة موجزة في تاريخ مدينة القُدس
الكاتب: عصام موسى قنيبي

الطبعة الأولى: 2004

دار الطليعة الجديدة

سوريا – دمشق – ص.ب 34494
تلفاكس: 2311378
E-mail-sakkalfa@scs-net.org

الموافقة على الطباعة رقم / 76451 / تاريخ 29/ 1/ 2004

إخراج : عقبة زيدان

تصميم الغلاف: جمال سعيد

المدينةُ المسحُورةُ

دراسة موجزة في تاريخ مدينة القُدس

الدكتور عصام موسى قنيبي

مُقَدِّمة

مدينـة القُـدس، أو بيـت المَقْـدِس، مدينـةٌ عربيَّـةٌ قديمـةٌ، أسَّسـها العـرب الكنعانيُّون، قبل حوالـي خمسة آلاف سنة. ولمدينـة القُدس العديد من الأسماء، التي عُرفت بها. يرجع بعضها إلـى الأُصول العربيَّـة للمدينـة، ومن أشهرها اسم "أوروسالم"، ويعني في اللُّغة الكنعانيَّة القديمة "أسَّسها أو أنشأها سالم"، وأيضاً اسم "يبوس" نسبة إلـى الزَّعيم العربـيّ يبوس بن كنعان شيخ القبيلة اليبوسيَّة، التي كانت أوَّل من استوطن المكان الذي عُرِف، فيما بعد، باسم مدينة القُدس، إضافة إلى اسم "القُدس" الذي عُرفت به المدينة منذ فجر تاريخها، ويعني البَرَكة والطَّهارة. وللقُدس أيضاً أسماء أُخـرى، تتعلَّـق بـالاحتلال الأجنبـيِّ، مثل اسم "مدينة داود"، الذي عُرِفت به المدينة لفترة قصيرة جداً من عمرها الطَّويل، بعد دخول نبيِّ الله داود عليه السَّلام إليها، مطلع الألفيَّة الأولى قبل الميلاد. وأيضاً اسـم "إيليـا كابيتولينـا"، الـذي أطلقـه عليـها الإمـبراطور الرُّومـانيّ إيليـوس هاردينـاوس، بعـد احتلالـه للمدينـة عـام 135، لإخمـاد ثـورة اليـهوديّ "سـيمون باركوخبا". وقد دمَّر الإمبراطور هاردينـاوس مدينة القُدس تدميراً شاملاً، ثُمَّ قام ببنـاء مدينـة جديـدة فـي مكانها، خالية تماماً من اليهود. وظلَّتْ مدينـة القُـدس تُعرف باسم "إيليا كابيتولينا" لحوالي خمسة قرون.

ومدينـة القُدس، مدينـة مُقدَّسـة، منذ أقدم عصورهـا، فقـد أقـام سُـكَّانها العديد من أماكن الصَّلاة والعبادة بها. وكان سُكَّان مدينـة القُدس، بقيادة الملك العربـيِّ الكنعانـيِّ "ملكـي صـادق"، يؤمنـون بعقيـدة التَّوحيـد وعبـادة اللـه الواحـد الأحد، التي جاء بها جميع الرُّسُل والأنبياء عليهم السَّلام. ويبدو أن ملكي صادق لم يكُن مجرد ملـك، وإنَّمـا أحـد الأنبيـاء العـرب، إذ تعـترف المصـادر اليهوديَّـة والمسيحيَّة بوجود نبيٍّ عربيٍّ مُعاصر لإبراهيم عليـه السَّلام اسمه ملكي صادق. والقُدس هـي المدينـة الوحيـدة فـي العـالم التـي تحظـى بالقداسـة، لـدى جميـع

الديانات السَّماويَّة الثَّلاث. فاليهود يقدسونها، لأنها، حسب زعمهم، مقرٌّ إقامة ربِّهم الخاصِّ بهم "يهوه"، ومنها يُبعَث مسيحهم الذي طال انتظاره، ويزعمون أيضاً أن سُليمان عليه السَّلام أقام هيكله المزعوم فيها. ولهيكل سُليمان وكما هو معروف قداسة بالغة في العقائد اليهوديَّة. والمسيحيُّون أيضاً يقدِّسون مدينة القُدس، لأنها هي مهد رسالة نبيِّ الله عيسى بن مريم عليه السَّلام، وفيها تآمر اليهود مع السُّلطات الرُّومانيّة ضده، وجرت الأحداث المأساويَّة، التي انتهت بالقبض على السَّيِّد المسيح عليه السَّلام والزجِّ به في السِّجن، ثمَّ محاكمته محاكمة صوريَّة، والحُكْم عليه بالموت صلباً كما في المفهوم اللاهوتيِّ. وتوجد في القُدس كنيسة القيامة التي أُقيمتْ في القرن الميلاديِّ الرَّابع. ويعتقد المسيحيُّون أنها تضمُّ قبر السَّيِّد المسيح عليه السَّلام. هذا، ويؤمن العرب والمسلمون، إيماناً مُطلقاً، بأن القُدس وفلسطين بأسرها، هي أرض عربيَّة صميمة، سكنتها القبائل العربيَّة في فترة ما قبل التَّاريخ. وبانبثاق فجر الحضارة، عرف العرب الكنعانيُّون، كأوَّل سكان عرفهم التَّاريخ لفلسطين، ودامتْ لهم الغلبة والسِّيادة عليها لأكثر من ألفي سنة مُتواصلة. وفي الفكر الإسلاميّ، فإن مدينة القُدس هي أُولى القبلتين، وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشَّريفين، ومنها عرج رسول الله مُحمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى السَّموات العُلى ليلة الإسراء والمعراج. وهي أيضاً الأرض المُقدَّسة المباركة، التي بارك الله فيها للعالمين، إضافة إلى أنها أرض المحشر والمنشر.

ونظراً للمكانة الدِّينيَّة الهامَّة والمُميَّزة لمدينة القُدس، ولوقوعها في قلب العالم تقريباً، عند مداخل قارات العالم القديم الثَّلاث، بالإضافة إلى إشرافها على الطُّرق التِّجاريَّة والعسكريّة الرئيسيَّة، التي تربط بلاد الشَّام ووادي الرَّافدين بالأراضي المصريَّة، تعرَّضتْ مدينة القُدس، منذ مطلع الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد، للاحتلال الأجنبيِّ عشرات المرات. فقد احتلَّها، على التَّوالي، كل من الهكسوس والفراعنة والحوريُّون واليهود، ثم الفراعنة مرَّة أُخرى والآراميُّون والآشوريُّون والبابليُّون، ثم الفرس واليونانيّون والرُّومان. وفي القرن الميلادي السَّابع، استطاع الفاتحون العرب المسلمون تحرير مدينة القُدس وفلسطين بأسرها، بعد قرون طويلة من الاحتلال الغاصب. وفي أواخر سنوات القرن

الميلادي الحادي عشر، وقعت مدينة القُدس أسيرة في قبضة الاحتلال الصَّليبيّ، نتيجة لحالة الضُّعف والتفكك والفوضى، التي سادت العالم الإسلاميّ. في تلك الفترة. وقد استمر الاستعمار الإحلاليُّ الاستيطانيّ الصَّليبيّ لمدينة القُدس إلى أن تمكَّن القائد المظفَّر صلاح الدين الأيوبي، رضي الله عنه، من تحريرها بعد 88 عاماً من الاحتلال. وفي العصر الإسلاميّ تعرَّضتْ مدينة القُدس للاحتلال العسكريّ، من قبل جيوش الدُّول الإسلاميَّة المُختلفة، فقد احتلَّها الطُّولونيُّون والإخشيديُّون والفاطميُّون والسَّلاجقة الأتراك والأيوبيُّون والمماليك، ثم الأتراك العثمانيُّون الذين سيطروا على فلسطين ومدينة القُدس لمدة أربعة قرون كاملة. وأثناء الحرب العالميَّة الأولى (1914 - 1918) تمكَّن الجيش البريطانيُّ عام 1917 من انتزاع مدينة القُدس من أيدي الأتراك العثمانيِّين، وبعد سيطرة الجيش البريطانيِّ على كامل التُّراب الفلسطينيّ عام 1918، وُضعت فلسطين خلال 30 عاماً من الاستعمار البريطانيِّ في ظروف سياسيَّة وإداريَّة واقتصاديَّة، أدتْ، في النِّهاية، إلى إقامة دولة العصابات الصُّهيونيّة في فلسطين عام 1948، تنفيذاً لوعد بلفور الصَّادر عن الحكومة البريطانيَّة، في الثَّاني من تشرين الثَّاني عام 1917. وفور الإعلان عن قيام الدَّولة الصُّهيونيّة في فلسطين، اندلعت الحرب العربيَّة - الإسرائيليَّة الأولى، في الخامس عشر من أيار/ مايو عام 1948، والتي انتهتْ باحتلال الصَّهاينة لحوالي 77،4٪ من الأراضي الفلسطينيّة، وسيطرتهم على مدينة القُدس الغربية. ونتيجةً للحرب العربيَّة - الإسرائيليَّة الثَّالثة، في الخامس من حزيران/ يونيو عام 1967، استولى الصَّهاينة على ما تبقى من الأرض الفلسطينيّة، بما فيها مدينة القُدس الشَّرقية، التي تضمُّ المُقدَّسات الإسلاميَّة والمسيحيَّة، وأعلنوا أن مدينة القُدس هي عاصمتهم الموحَّدة والأبديَّة. ولا تزال المدينة المُقدَّسة ترزح تحت نير الاستعمار الصُّهيونيّ البغيض، وتنتظر بفارغ الصَّبر ظهور قائد من طراز صلاح الدين الأيوبي، يغيِّر من واقعها الحالي، ويعيدها لأصحابها العرب، من جديد، إنشاء الله.

دكتور عصام موسى قنيبي

الفصل الأول

فلسطين .. تاريخ وحضارة

1-1: الفلسطينيّون الأوائل

استدلَّ عُلماء الآثار، من الأحافير الأثريَّة في فلسطين، أن الإنسان قد استوطنها منذ أقدم عصور ما قبل التَّاريخ، وأنه عاصر أقدم النَّماذج البشريَّة في العالم أثناء العصر الجليديِّ والحجريِّ والمعدنيِّ. وعلاقة الشَّعب الفلسطينيّ بأرضه علاقة مُمَيَّزة وفريدة، إذ لم يحدث قطُّ أن غادر الشَّعب الفلسطينيّ أرضه، ورحل عنها نهائياً، ولو للحظة واحدة، منذ تلك الأزمنة السَّحيقة، وحتى يومنا هذا. وهي في الواقع علاقة مُترابطة ومُتواصلة منذ أقدم الحقب الزمنيَّة، ولم تتأثَّر، إطلاقاً، بظروف الغزو والاحتلال المتكرر لفلسطين، على مدى تاريخها الطَّويل. ففي العصر الجليديِّ، عاش العِرق الأحمر في فلسطين، قبل حوالي مليون سنة، كما أشارت إليه، كاحتمال مقبول، الحفريات الأثريَّة في غور الأردن جنوب غربي مصبِّ نهر اليرموك في نهر الأردن، وكذلك في منطقة الغاب والرستن، بين مدينتي حمص وحماه في سورية. هذا، وقد دلَّت الدِّراسات، التي أُجريتْ على أربع عشرة وحدة صخريَّة، يعود تاريخها إلى عصر مندل الجليدي، على وجود الإنسان في فلسطين قبل 600 ألف سنة، وكان يعيش على ضفاف بحيرة طبرية وفي المناطق الواقعة إلى الجنوب منها، وقد أطلق العلماء على هذا الإنسان اسم "إنسان العبيدية". وقبل حوالي 70 ألف سنة - أي في عصر الفورم - عاش في فلسطين إنسان وادي قطفة بالقرب من مدينة القُدس، وإنسان جسر بنات يعقوب جنوبي بحيرة الحولة، وكذلك إنسان كهف طابون في الجليل. وقد أثبتت الدِّراسات الأثريَّة الحديثة أن الإنسان الفلسطينيّ الأول اكتشف النار واستخدمها لأوَّل مرَّة، في التَّاريخ الإنساني كلِّه، لأغراض التدفئة وإعداد الطعام وإخافة الحيوانات المفترسة وإبعادها عن أماكن تواجده. وقبل 40 ألف إلى 70

ألف سنة عاش الإنسان الموسيتيري في فلسطين، كما تدلُّ آثار كهفي أم السخول وطابون في الجليل وكهف كيبارا في الكرمل وحفريات موقع أم عبدو الأثري بصحراء النَّقب. وقد سُميت هذه المرحلة الحضاريّة، من التَّاريخ الفلسطينيّ القديم، باسم مرحلة الحضارة "ألكيبارية"، نسبة إلى كهف كيبارا في الكرمل، وتمتدُّ هذه المرحلة منذ أقدم عصور ما قبل التَّاريخ وحتى مرحلة إنتاج الغذاء في العصر الحجريِّ القديم.

وفي العصر الحجري القديم كان الإنسان الفلسطينيّ يعيش هائماً على وجهه في العراء، ويتنقل من مكان لآخر بحثاً عن قوت يومه. وفي مواجهة الخطر الداهم الذي يحيق به من جراء هجمات الحيوانات المفترسة، واتقاءً للبرد والأمطار شتاءً وحرارة الجو صيفاً لجأ الإنسان الفلسطينيّ الأول إلى المغاور والكهوف واتخذ منها مسكناً ومأوى. وقد أجبرته ظروف الحياة المتغيرة باستمرار من حوله على اختراع أدوات تساعده على مشاق الحياة وتمكنه من الدفاع عن نفسه ضد الأخطار المختلفة، وقد عثر المنقبون في الكهوف الأثريَّة الفلسطينيّة على أدوات وأسلحة تعود بتاريخها إلى تلك الأزمنة مثل النصلات الصوانية المختلفة والفؤوس والمكاشط والمثاقب وأدوات جرش وطحن الحبوب. وقد أثبتت الدراسات أن صناعة هذه الأدوات والأسلحة الحجرية انتقلت من فلسطين إلى سورية ولبنان شمالاً وإلى مصر حتى حلوان جنوباً[1].

وبانتهاء عصر الحضارة الكيبارية بدأت في فلسطين مرحلة جديدة رائدة وزاهرة من عمر الحضارة الإنسانية، أطلقت عليها الآنسة دورثي جارود اسم الحضارة "النطوفية" نسبة إلى مكتشفات وادي النطوف القريب من مدينة بيت لحم. وفي هذه المرحلة ترك الفلسطينيّون حياة المغاور والكهوف وشرعوا في بناء المنازل البدائية من الطين والأحجار وأغصان الشجر. وقد شهدت مرحلة الحضارة النطوفية في فلسطين أعظم إنجازين حضاريين عرفهما التَّاريخ البشري:

---

[1] د. معاوية إبراهيم: فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرَّابع قبل الميلاد. الموسوعة الفلسطينيّة: القسم الثَّاني، المجلد الثَّاني.

الأول: كان مزاولة حرفة الزراعة، فالفلسطينيّون هم أول من مارس الزراعة في التَّاريخ، فبعد نجاح التجارب الأولى لزراعة حبوب القمح والشعير في أريحا وتل المريبط شمالاً، انتشرت على نطاق واسع زراعة هذه الحبوب في فلسطين، ثم زرع الفلسطينيّون حبوب الذرة واتجهوا إلى تشجير بلادهم بزراعة أشجار التين والزيتون والعنب والرمان. وبهذا الإنجاز الحضاري الرائع انتقل الإنسان من مرحلة البحث عن الغذاء وجمعه إلى مرحلة إنتاجه بكميات وافرة.

أما الثَّاني: فكان إنشاء المدن والقرى لأول مرة في التَّاريخ، فمنذ مطلع الألفيَّة التَّاسعة قبل الميلاد بدأت تنتشر في فلسطين القرى الزِّراعية النطوفية على ضفاف نهر الأردن وفي المواقع النطوفية في الكرمل ووادي النطوف ووادي الفلاح وفي الملاحة والخيام. وفي حوالي عام 8350 قبل الميلاد ظهرت مدينة يريحو (أريحا) - أي مدينة القمر - كأول مدينة في التَّاريخ، وقد أحيطت المدينة بالأسوار الحجرية وبأبراج وخنادق وتحصينات دفاعية منيعة. وتمتاز مدينة أريحا، بالإضافة إلى أنها أقدم مدينة عرفها التَّاريخ، فهي أيضاً أول مدينة مسورة.

وفي العصر الحجري المُتوسِّط: طور الفلسطينيّون أدواتهم الحجرية وجعلوها أصغر حجماً وأخف وزناً وأكثر جمالاً وفعالية، ودجنوا الحيوانات اللبونة كالأبقار والماعز والأغنام، وتعلموا صيد الأسماك في البحر الأبيض المُتوسِّط وخليج العقبة وفي البحيرات والأنهار والوديان المختلفة في فلسطين. وفي العصر الحجري المُتوسِّط أيضاً ظهر الفن الفلسطينيّ لأول مرة، وقد كان قاصراً على الرسم والنحت فقط، إذ عثر المنقبون في معبد أريحا على تماثيل لحيوانات داجنة مثل البقر والماعز تعود بتاريخها إلى الألفيَّة السَّادسة قبل الميلاد. وعثروا أيضاً في كهوف الكرمل على لوحة من العظم محفور عليها صورة لرأس ثور، وعلى لوحة من الحجر الكلسي منقوش عليها صورة لرأس إنسان. أما في مغارة "أم زويتينة" جنوبي مدينة الخليل فقد عثر على تمثال لغزال منحوت على قطعة من الصخر الكلسي.

وبسبب التغيرات في الأحوال الجوية التي أدت إلى تصحر جنوب فلسطين (النقب)، اقتصرت إقامة الفلسطينيّين في الأراضي الصَّالحة للزراعة وفي

السهول والوديان وعلى ضفاف البحيرات والأنهار وحول عيون وينابيع الماء، وكذلك على سواحل البحر الأبيض المُتوسِّط وخليج العقبة حيث كان صيد الأسماك يصادف رواجاً كبيراً. وابتداءً من الألفيَّة السَّابعة قبل الميلاد هاجر الفلسطينيّون من غزة وبئر السبع ومناطق النقب المختلفة إلى السواحل الشَّامية الشمالية ومنها إلى الشمال الأفريقي وجزر البحر الأبيض المُتوسِّط الكبرى مثل قبرص وكريت ومالطة وصقلية وسردينيا.

وفي الألف الخامسة قبل الميلاد - أي في العصر الحجري الحديث الفخاري - تقدم الفلسطينيّون جداً في أساليب الزراعة والري، وطوروا أدواتهم الزِّراعية والمعيشية ومن أسلحتهم أيضاً. واستمروا في بناء المدن والقرى. وظهرت في فلسطين صناعة الفخار كالصحون والأكواب والجرار البيضاوية عديمة العنق، وقد كان الفخار يصنع من عجينة طينية مخلوطة بالقش ويدهن بعد جفافه باللون الأحمر ويزخرف بخطوط مستقيمة أو متعرجة وبأشكال المثلثات المختلفة[2]. وفي العصر الحجري الحديث المتأخر تطورت صناعة الفخار الفلسطينيّ، فاستغنى عن القش في عجينة الفخار الذي أصبح يشوى في الأفران لكي يزداد تماسكاً وقُوَّة، وأضيفت الأعناق لجرار الماء والعسل والزيت الفخارية، وظهرت صناعة الخزف والتماثيل النسائية الخزفية التي وصفها العالم "جاك كوفمان" بأنها كانت على درجة عالية من الفن[3].

وفي العصر المعدني اكتشف النحاس جنوبي فلسطين "صحراء النقب" في مواقع بئر الصفدي وخربة البيطار وتل أبو مطر، وفي تل الغسول الواقع إلى الشمال الشَّرقي للبحر الميت، وأيضاً في تل الفارعة بمنطقة نابلس. وقد استخدم النحاس في صناعة الأدوات المعيشية وأنواع الأسلحة المختلفة جنباً إلى جنب مع الأدوات والأسلحة الحجرية، ثم استغنى تدريجياً عن الأدوات الحجرية. وقد انتشرت في هذا العصر القرى الزِّراعية المحاطة بالأسوار، وكذلك صناعات الغزل والنسيج والأدوات البازلتية لجرش وطحن الحبوب. وقد عثر في موقع تل

---

[2] د. معاوية إبراهيم: المرجع السابق.

[3] الأب انطون نمنم: المواقع الأثريَّة في فلسطين في فترة ما قبل التَّاريخ، دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، المجلد الثَّاني.

الصفدي الأثري في بئر السبع على مجموعة من التماثيل العاجية لرجال ونساء يعتبرها العلماء أقدم مجموعة عاجية في الشّرق، واكتشف المنقبون أيضاً في هذا الموقع مصنعاً لصناعة المجوهرات والتماثيل العاجية والعظمية مما يدل على أن هذه المكتشفات الأثريَّة العاجية قد صنعت في فلسطين وبشكل مستقل عن الحضارات الشَّرقية القديمة المجاورة[4]. وفي عصور لاحقة استخدم القصدير والبرونز والحديد أيضاً في فلسطين.

---

[4] د. معاوية إبراهيم: مرجع سابق.

1-2: الكنعانيُّون العرب

الكنعانيون العرب هم أول سكان عرفهم التَّاريخ المكتوب لفلسطين، وقد تغلب الكنعانيون عرقياً ولغوياً واجتماعياً دينياً على سكان فلسطين الأوائل من سلالة البحر الأبيض المُتوسِّط المتفرعة من السلالة القوقازية الكبرى "السلالة البيضاء الكبرى"، ودامت السِّيادة المطلقة للكنعانيين في فلسطين لأكثر من ألفي سنة متواصلة حتى عرفت فلسطين وأجزاء كبيرة من سورية باسم "أرض كنعان" نسبة إليهم. وجاء اسم أرض كنعان في المصادر الآشورية والبابلية باسم كيناني وكيناخوى، وفي المصادر الفرعونية باسم كنعانو واسم باكنعن، ووردت في التَّوراة باسم "كنعن". كان اسم أرض كنعان مثل عبارة بلاد الشَّام يطلق على معظم الأراضي الشَّامية، ولكنه يستخدم الآن على أرض فلسطين التي تحدها من الشَّرق الأردن وسورية، ومن الغرب البحر الأبيض المُتوسِّط، ومن الشمال لبنان وسورية ومن الجنوب مصر. ومن الجدير بالذكر أن اسم فلسطين كان يطلق على جميع أرض كنعان التَّاريخية أو فلسطين الكبرى من قبيل إطلاق اسم الجزء على الكل. والكنعانيون هم عرب أصلاء من شبه الجزيرة العربيَّة، وقد هاجروا إلى فلسطين منطلقين من موطنهم الأصلي الواقع على السواحل الغربية للخليج العربيّ هم وأبناء عمومتهم العموريون منذ الألفيَّة الرَّابعة قبل الميلاد، ولكن تشير الدراسات التَّاريخية على وجود أقلية كنعانية في فلسطين منذ الألفيَّة السَّادسة قبل الميلاد. والكنعانيون والعموريون هم في الواقع فرعان لقبيلة كبيرة واحدة، ذات أصل عربي واحد، وديانة وثنية واحدة ويتكلمون لغة عربيَّة قديمة واحدة بلهجات مختلفة، ولكنها لا تختلف في لهجاتها إلا بالقدر الذي تختلف فيه اللُّغة العربيَّة الآن تبعاً للأقاليم المختلفة. سكن العموريون المناطق الدَّاخليَّة من بلاد الشَّام، واستقر الكنعانيون في السواحل الشَّرقية للبحر الأبيض المُتوسِّط وفي السهول والوديان والجبال أيضاً. وقد احتفظ الكنعانيون سكان الجبال والسهول والأراضي المنخفضة من بلاد الشَّام باسمهم (الكنعانيون)، بينما عرف قسمهم السَّاحلي فيما بعد باسم الفينيقيين من قبل اللاتينيين.

ومن الأرجح أن اسم الكنعانيين يعود لاسم أحد أجدادهم الأوائل "كنعان" كما هي عادة العرب دائماً في تسمية قبائلهم. ولكن يعتقد البعض أن الكنعانيين

قد عرفوا بهذا الاسم نظراً لأنهم سكنوا في المناطق الكانعة، أي المنخفضة من بلاد الشَّام. فكلمة كنعان على وزن فعلان مشتقة أ صلاً من كلمة كنع العربيَّة "كنع - كانع - كنعان" التي تعني الغور والانخفاض. ولا تزال هذه الكلمة تستخدم في اللُّغة العربيَّة حتى الآن. ومن الواضح أن الكنعانيين قد سكنوا في المناطق الجبلية والتلال والسواحل من بلاد الشَّام إضافة إلى المناطق الكانعة "المنخفضة" منها. ويعتقد آخرون أن اسم الكنعانيين مأخوذ من الكلمة الحورية كناغي "Kanaggi" التي تعني صبغ الأرجوان أو تاجر صبغ الأرجوان. والأ رجوان صبغ اشتهر به الكنعانيون وكانوا يستخرجونه من أصداف "الموركس" التي تحتوي بداخلها على حيوان صغير يوجد الأرجوان في كيس يقع على قسمه العلوي. ومن الجدير بالذكر أن اسم الفينيقيين اللاتيني يعني أيضاً تاجر صبغ الأرجوان، لم يصادف هذا الاعتقاد القبول من معظم المؤرخين والباحثين، فالكنعانيون عرفوا بهذا الاسم قبل آلاف السنين من وجود أي أثر للحوريين في فلسطين وبلاد الشَّام.

يستدل من رسائل تل العمارنة التي يرجع تاريخها للقرن الرَّابع عشر قبل الميلاد، أن قدماء المصريين كانوا يطلقون اسم أرض كنعان على السواحل الشَّرقية للبحر الأبيض المُتوسِّط، وجاء في قاموس الكتاب المقدس أن حدود أرض كنعان كانت بادية العرب والشَّام شرقاً، والبحر الأبيض المُتوسِّط غرباً، ومدخل مدينة حماه شمالاً، وبادية العرب من الجنوب[5]. والكنعانيون قبل هجرتهم إلى فلسطين كانوا يحترفون التجارة وصيد الأسماك وركوب البحر، وقد جابت سفنهم موانئ الجزيرة العربيَّة وفارس والبحر الأحمر، وموا نئ شرق أفريقية والهند. وبعد استقرارهم في أرض كنعان مارسوا مهنة الزراعة وكان عصرهم عصر رخاء وازدهار، وقد عرفت أرض كنعان باسم البلاد التي تفيض لبناً وعسلاً. وبالإضافة إلى الزراعة كان الكنعانيون بحارة لا يشق لهم غبار ومخرت أساطيلهم عباب البحر حاملة بضائع أرض كنعان إلى جميع موانئ البحر الأبيض المُتوسِّط وموانئ شرقي الأطلسي. وقد غدت جزر البحر الأبيض

---

[5] جورج بوست: قاموس الكتاب المقدس.

المُتوسِّط مثل قبرص وكريت ومالطة وصقلية وسردينيا في عصور لاحقة عبارة عن مستعمرات كنعانية وفينيقية، وامتد أثرهم السُّكَّاني والحضاري واللغوي ليشمل الشمال الأفريقي.

اشتهرت أرض كنعان بدويلات المدن، حيث كانت كل مدينة تشكل دولة مستقلة لها نظامها السياسي الخاص بها، ومحاطة بالأسوار والتحصينات الدفاعية المنيعة ولها جيوشها القوية، ويجلس على عرشها ملك أو أمير، ولم توحد الممالك والإمارات الكنعانيَّة في حكومة مركزية واحدة إلا في عهد الهكسوس. وللكنعانيين حضارة مميزة ورائدة، وفكر ديني وفلسفي وحضاري واجتماعي راقٍ جداً، ولعل أبرز إنجاز حضاري للكنعانيين هو ابتكارهم لحروف الأبجدية الاثنين والعشرين. فقد عثر المنقبون في جازر وتل الدوير وتل بالاطة وتل العجول وكذلك في تل أبو شوشة وغيرها من المواقع الأثريَّة الفلسطينيّة على كتابات يعود تاريخها للقرنين الثَّامن عشر والخامس عشر قبل الميلاد. وقد أطلق العلماء على هذه الكتابات اسم "بدايات الكنعانيَّة".

يقول موسكاتي - أستاذ اللغات السامية بجامعة روما - إن الأبجدية ظهرت لأول مرة في المصادر الكنعانيَّة[6]، ويقول دايرنجر: «إن مصدر الأبجدية يعود إلى فلسطين وسورية». ولكن الأبجدية الكنعانيَّة اشتهرت وانتشرت عالمياً على أيدي علماء صور وصيدا في لبنان وعرفت باسم الأبجدية "الفينيقية"، وعلى يد علماء مملكة أوغاريت الكنعانيَّة أيضاً، وهي التي عرفت باسم الأبجدية "الأوغاريتية". وقد رتب علماء أوغاريت حروف الأبجدية حسب النِّظام التالي: (أبجد - هوز - حطي - كلمن - سعفص - قرشت)[7]، وتعتبر الأبجدية الكنعانيَّة أصل الكتابة في جميع لغات العالم، ما عدا الكتابة بالصينية واليابانية.

كان للكنعانيين كغيرهم من الشُّعوب السامية الأُخرى ديانة وثنية تجسيدية، وكانوا يشيدون معابدهم فوق قمم الجبال وعلى رؤوس التلال اعتقاداً منهم أنها تكون في هذه الحالة أكثر قرباً من السماء، وقد اكتشف في فلسطين معبد تل الناشة الكنعاني الذي يرجع تاريخ إقامته للعصر البرونزي الوسيط (2100 -

---

[6] ساباتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة.

[7] روجيه غارودي: فلسطين أرض الرسالات الإلهية.

1900 قبل الميلاد)، ومعبد بيت شان "بيسان"، ومعبد أوغاريت "رأس شمرا على السَّاحل السوري" ويرجع تاريخ إقامتهما إلى منتصف الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد. ومن الجدير بالذكر أن الوصف التوراتي لهيكل سليمان المزعوم في القُدس هو صورة طبق الأصل من هذه المعابد الكنعانيَّة التي أقيمت بالطبع قبل مئات السنين من الوجود اليهودي في فلسطين. والمعابد الكنعانيَّة لا تختلف كثيراً عن المعابد الفرعونية والآشورية والبابلية وتشترك جميعها في السمات المعمارية التالية:

1-الاتجاه شرقاً نحو مشرق الشمس.

2-وجود قدس الأقداس أو المحراب في نهاية المعبد.

3-وجود غرف عديدة تحت أرضية المعبد.

4-النصب المقدس والأعمدة المُقدَّسة.

وأشهر معبود للكنعانيين هو الإله "إيل"، وهو باعتقادهم: رب الأرباب وكبير الآلهة ورب السموات السبع، وقد هبط الإله إيل من السموات العلى واتخذ من بلدة بيت إيل شمالي مدينة رام الله "رام إيل" مقراً لإقامته. ولشدة تقديس الكنعانيين للإله إيل حرموا تحريماً مطلقاً تجسيده بأي شكل من الأشكال: في تمثال أو صورة أو أيقونة على سبيل المثال. وللإله إيل زوجة هي الإلهة "عشتار" إلهة القمر والبحر. ولهما ابنة واحدة هي الإلهة "عنات" إلهة الخصب الكنعانيَّة وهي أيضاً إلهة الحرب. ولهما ابن واحد هو الإله "بعل" إله البرق والرعد والرياح والأمطار والخصب الكنعاني. ولبعل ثلاثة أبناء، هم: موت "إله الموت"، ويم "إله البحر"، و يهوه "إله الحرب". وللكنعانيين آلهة أُخرى من أشهرها: داجون "إله الحبوب والحصاد"، وملقارت "إله الأرجوان"، ولخمو أو لحام "إله الخبز"، وسارى "إله الحرب"، وسالم "إله النور والشفاء - وهو أيضاً إله السَّلام الكنعاني". إضافة إلى الإله رشف الذي نسبت إليه بلدة أرسوف، والإله شان الذي نسبت إليه مدينة بيت شان "بيسان". ولكن، بعد وصول إبراهيم عليه السَّلام إلى فلسطين في العصر البرونزي الوسيط (2100 - 1900 قبل الميلاد)*، آمنت

* حسب تقدير عالم الآثار الأمريكي المعروف ويليام فوكسويل أولبرايت، استاذ اللغات السامية بجامعة جون هوبكينز الأمريكيَّة.

برسالة إبراهيم التوحيدية مجموعات كبيرة من الشّعب العربيّ الكنعاني ونبذوا عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد الأحد، وفي مقدمة هؤلاء ملكي صادق ملك القُدس الكنعاني الذي يعتبره المفكر العربيّ الكبير عباس محمود العقاد من الأنبياء العرب إلى جانب شعيب وأيوب وبلعام[8]. وتعترف المصادر اليهوديَّة والمسيحيَّة بوجود نبي عربي معاصر لإبراهيم عليه السَّلام اسمه ملكي صادق. وملكي صادق هو عميد السلالة الملكية التي حكمت مدينة القُدس حتى عهد الملك العربيّ أدوني صادق اليبوسي. وبذلك تكون فلسطين أول بقعة في العالم تؤمن بالتوحيد وتحتضنه وتحميه وتدافع عنه. ومن الجدير بالذكر أن ملكي صادق أقام هيكله في المكان الذي يقع عليه المسجد الأقصى الآن، وبالرغم من دعوة التَّوراة الصريحة لليهود بإقامة معبدهم فوق قمة جبل جرزيم في مدينة شكيم "نابلس"، إلا أنهم اتخذوا من هيكل ملكي صادق بالقُدس مكاناً لإقامة شعائرهم الدِّينيَّة بعد دخولهم لمدينة القُدس في عهد داود عليه السَّلام.

اللُّغة الكنعانيَّة

اللُّغة الكنعانيَّة هي لغة عربيَّة قديمة كان يتحدث بها الكنعانيون في فلسطين وبلاد الشَّام، وكذلك القبائل العربيَّة في صحراء سيناء وشرقي الأردن، وكانت مستخدمة أيضاً لعدة قرون في الشمال الأفريقي. واللُّغة الكنعانيَّة تختلف عن اللُّغة العربيَّة الحديثة بطبيعة الحال، ولكنها تتشابه معها تشابهاً جوهرياً كبقية اللغات السامية الأُخرى. ويبين جدول رقم (1) بعض الكلمات المتشابهة في اللغتين الكنعانيَّة والعربيَّة الحديثة على سبيل المثال فقط لا الحصر:

	اللُّغة الكنعانيَّة	العربيَّة الحديثة
1	صيدون	صيد
2	جشور	جسر
3	دقق	دقيق
4	قرت	قرية- مدينة

[8] عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء.

5	قدموس	قديم - قدماء
6	طيابا	طيب - طيبة
7	داب	دابة
8	كتن	كتان
9	يشمع إيل	إسماعيل
10	لاهام	لحم
11	أوتيك	عتيق
12	دامور	تمور
13	بصة	بصة - مستنقع
14	باراق	برق
15	حمور	حمار
16	شمش	شمس
17	لسن	لسان
18	نحس	نحاس

جدول رقم (1)

الكلمات المتشابهة في الكنعانيَّة والعربيَّة الحديثة[9]

ومن الكلمات الكنعانيَّة التي وصلت إلينا كما هي ما يلي:

جبل، لون، أم، أب، أخ، ثاني، ثالث، أربع، سبع، ثمان، تسع، رأس، يد، بيت، أرض، تين، تحت، كلب، قبر[10].

---

[9] نقلاً عن: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين.

[10] نفس المصدر السابق.

1-3: الفلسطينيّون

في أكبر عملية تزوير للتاريخ الفلسطينيّ ترديد الزعم القائل بأن الفلسطينيّين الذين تسميهم المصادر الفرعونية باسم "بليستيا أو فليستيا"، وتسميهم المصادر الآشورية باسم "بليستي"، وعرفوا في التَّوراة باسم "الفلسطينيّين" هم من القبائل الأوروبيَّة القادمة من جزيرة كريت والتي قامت بغزو السواحل الشَّامية والمصريَّة في القرن الثَّاني عشر قبل الميلاد، أي أن الفلسطينيّين كانوا أغراباً عن أرض كنعان، وبذلك يتساوون في وجودهم على أرض فلسطين مع غيرهم من الغزاة الأجانب الذين احتلوا فلسطين ردحاً من الزمن كالفرس والإغريق والرومان والصَّليبيّين والأتراك والإنجليز، والأخطر من ذلك أنهم يتساوون مع اليهود الخزر الذين تدفقوا إلى فلسطين من كل حدب وصوب خلال القرنين التَّاسع عشر والعشرين للميلاد. أليست هذه أكذوبة تاريخية كبرى؟ ومن الغريب أنه قد انخدع بهذه الكذبة المكشوفة كثير من الكتاب العرب والمسلمين غافلين أنها تهدف إلى نسف التَّاريخ الفلسطينيّ العربيّ برمته وتقويض دعائمه من أساساتها. فاسم فلسطين وبالتالي الفلسطينيّين مشتق أصلاً من اسم قبيلتين عربيتين كانتا تقطنان جنوبي فلسطين، كانت الأولى قبيلة "فلست" العربيَّة، أما الثَّانية فهي قبيلة "طيء" العربيَّة. وخلال الألفيَّة السَّابعة قبل الميلاد اضطر الفلسطينيّون للهجرة عن موطنهم الأصلي في غزة وبئر السبع ومناطق النقب المختلفة بسبب تصحر الجنوب الفلسطينيّ ورحلوا إلى الشواطئ الشَّامية الشمالية ومنها إلى الشمال الأفريقي وجزر البحر الأبيض المُتوسِّط الكبرى مثل قبرص وكريت ومالطة وصقلية وسردينيا. وقد استمرت الهجرات الفلسطينيّة إلى تلك الجزر طيلة العصر الفخاري والنحاسي والبرونزي والحديدي حتى غدت تلك الجزر وبخاصَّة جزيرة كريت مستعمرات كنعانية وفينيقية في عصور لاحقة. وفي جزيرة كريت احتك الفلسطينيّون بعناصر سُكَّانيَّة حثية وتركية ويونانية وأوروبيَّة مختلفة، ولكنهم احتفظوا باستقلاليتهم العرقية واللُّغوية. عرفت هذه العناصر السُّكَّانية متباينة الأصول اللُّغوية والعرقية تاريخياً باسم أقوام البحر، كانت أقوام البحر مكونة من خليط من القبائل من أهمها قبائل فليستيا العربيَّة، وقبائل الوش وش ودانو وثكر وشكاليش. وجزيرة

كريت كبرى جزر بحر إيجه الواقع بين تركيا واليونان كانت معقلاً لحضارة رائدة عرفت باسم الحضارة الإيجية، التي ازدهرت بين الأعوام 3000 و1400 قبل الميلاد، وهي في الواقع أصل الحضارة اليونانيّة القديمة المعروفة في التَّاريخ. وقد اضطرت أقوام البحر للرحيل عن جزرها في بحر إيجه بعد الاجتياح اليونانيّ المسلح لتلك الجزر. غادر الإيجيون "أقوام البحر" جزرهم بأعداد كبيرة وقاموا بغزو السواحل الشَّرقية والجنوبية للبحر الأبيض المُتوسِّط. ولكنهم فشلوا في احتلال هانوشا عاصمة المملكة الحثية، واندحروا على أعقابهم أمام أبواب مملكة أوغاريت الكنعانيَّة، ثم حاولوا احتلال مصر ووصلوا فعلاً إلى شرق الدلتا بعد أن عبرت سفنهم من خلال الفرع البالوظي لنهر النيل، وهناك تصدى لهم الجيش المصري بقيادة الفرعون رمسيس الثَّالث وألحق بهم الهزيمة بعد معارك طاحنة. وقد خلد رمسيس الثَّالث هذه المعارك على جدران معبده الجنائزي المقام في بلده "هابو" غربي مدينة الأقصر بصعيد مصر، فعلى جدران المعبد نقشت رسومات لسفن أقوام البحر ومقاتليهم الذين كانوا يضعون قبعات مزينة بالريش على رؤوسهم، ويحملون دروعاً مستديرة الشكل. وبعد الهزائم المتتالية التي لحقت بأقوام البحر، تقطعت بهم السبل وهامت سفنهم على غير هدى فوق مياه البحر الأبيض المُتوسِّط. وفي نهاية المطاف قرر كل قوم من أقوام البحر العودة إلى موطنه الأصلي، فعاد الحثيون إلى بلادهم، والأتراك إلى تركيا، واليونانيّون إلى اليونان، والأوروبيون إلى بلادهم، وعاد الفلسطينيّون إلى موطنهم الأصلي جنوبي أرض كنعان "فلسطين". ويعتقد العلماء أن الفلسطينيّين عادوا إلى ديارهم حوالي عام 1184 قبل الميلاد[11].

تمكن الفلسطينيّون من إنشاء مملكة صغيرة وقوية في الجنوب الكنعاني تمتد من يافا شمالاً وحتى مدينة رفح عند الحدود المصريَّة جنوباً، بطول حوالي 50 ميلاً وعرض يبلغ في المُتوسِّط حوالي 15 ميلاً. أعاد الفلسطينيّون إعمار مدنهم القديمة جنوبي فلسطين، وأحاطوها بالأسوار والتحصينات الدفاعية. وكان لهم الفضل الأول في إدخال الصناعات الحديدية إلى فلسطين. وقد برع الفلسطينيّون في فن العمارة وعلوم البحار، وساهموا إلى حد كبير في تطوير

---

[11] جون إلدر: أحجار تتكلم.

صناعة السفن الكنعانيَّة والفينيقية. ولقد سيطرت صناعة الخزف الفلسطينيّة عل الصناعات الفخارية والخزفية الكنعانيَّة نظراً لجمالها ودقة صناعتها. وقد كان الفلسطينيّون محاربين أشداء لهم جيوشهم القوية المجهزة بأسلحة حديدية فتاكة، وتحالفوا فور وصولهم لموطنهم الأصلي جنوبي أرض كنعان مع أبناء عمومتهم الكنعانيين، وكان لهذا التَّحالف أثر كبير في إنهاء الوجود المصري بفلسطين زمن رمسيس الثَّالث، وكانوا من ألد أعداء اليهود الذين تسللوا إلى أرض كنعان من شرق الأردن، وأصبحوا شركاء في جميع الحروب التي خاضتها القبائل الكنعانيَّة مع الجماعات اليهوديَّة، وكبدوا خسائر قادحة، ولولا وجود نبي الله داود عليه السَّلام بين اليهود لكانوا أبيدوا عن بكرة أبيهم. ففي معركة أفيق "رأس العين" على سبيل المثال، هزم الفلسطينيّون اليهود هزيمة قاسية وقتلوا منهم ثلاثون ألف رجل حسب ما جاء في العهد القديم[12]، وقاموا بالاستيلاء على تابوت العهد ونقلوه من بلده مجدل يابا إلى مدينة أسدود[13]. وفي معركة جبل جلبوع "جبل فقوعة" التي يقدر العهد القديم قُوَّة الفلسطينيّين فيها بحوالي ثلاثين ألف مركبة حربية وستة آلاف فارس[14]، مني اليهود بهزيمة ساحقة وتكبدوا خسائر فادحة في الأرواح، ومات ملكهم شاؤول منتحراً في هذه المعركة وقتل ثلاثة من أبنائه وكان من بينهم ولي العهد "يوناثان". جاء في الإصحاح الأول من سفر الملوك الأول ما يلي:

«وحارب الفلسطينيّون بني إسرائيل، فهرب رجال إسرائيل من أمام الفلسطينيّين وسقطوا قتلى في جبل جلبوع، فشد الفلسطينيّون وراء شاؤول وبنيه وضرب الفلسطينيّون يوناثان وأبيناداب وملكيشوع أبناء شاؤول، واشتدت الحرب على شاؤول، فأصابه الرماة رجال القسى فانجرح جداً من الرماة. فقال شاؤول لحامل سيفه: استل سيفك واطعن به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبحوني. فلم يشأ حامل سلاحه أن يطعنه لأنه خاف جداً، فأخذ شاؤول السيف وسقط عليه. ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاؤول سقط هو أيضاً

---

[12] سفر صموئيل الأول الإصحاح الرَّابع (15).

[13] سفر صموئيل الأول: الإصحاح الخامس (1).

[14] سفر صموئيل الأول: الإصحاح الثَّالث (5).

على سيفه ومات معه. فمات شاؤول وبنوه الثلاثة وحامل سيفه وجميع رجاله في ذلك اليوم معاً. ولما رأى رجال إسرائيل الذين في عبر الوادي والذين في عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شاؤول وبنيه قد ماتوا، تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيّون وسكنوا بها».

عرف من القادة الفلسطينيّين الملك "أخيش" ملك جت أو عراق المنشية، الذي فر داود عليه السَّلام أكثر من مرة إلى أراضي مملكته هرباً من بطش شاؤول، والقائد الفلسطينيّ البارز جالوت "جليات" الذي قتله داود عليه السَّلام، وكذلك القائد الفلسطينيّ "إيتاني غات" الذي كان بإمرته ثلث جيش داود. عمرت المملكة الفلسطينيّة لحوالي خمسة قرون، ولكنها زالت في النهاية بسبب اندماج الفلسطينيّين بأبناء عمومتهم الكنعانيين، ولكثرة الحروب التي خاضوها، ولوقوع مملكتهم في طريق الجيوش الغازية من الشَّرق والجنوب وبخاصَّة الجيش الآشوري. وفي النهاية تمكن القائد الآشوري "ترتان" قائد جيوش سرجون الثَّاني من توجيه ضربة قاضية لتلك المملكة لم تقم لها بعدها قائمة.

1-4: القُدس .. المدينة المسحورة

مدينة القُدس هي حاضرة الشَّعب العربيّ الكنعاني، وعاصمة دولة فلسطين. وتقع مدينة القُدس في قلب فلسطين على خط عرض 52" 31 شمالاً وخط طول 13" 35 شرقي غرينتش، وهي ترتفع حوالي 2598 قدماً فوق مستوى سطح البحر. ومدينة القُدس مدينة قديمة جداً شيدها العرب الكنعانيون قبل خمسة آلاف سنة؛ حيث استقرت في المكان الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم مدينة القُدس إحدى القبائل الكنعانيَّة هي قبيلة "يبوس" نسبة إلى الزعيم العربيّ الكنعاني يبوس بن كنعان[15]. وقد راعى اليبوسيون عند اختيارهم لموقع مدينة القُدس أن تتوفر فيه المزايا التالية:

أولاً: الوسطية:

تحتل مدينة القُدس موقعاً ممتازاً في وسط فلسطين تقريباً، ضمن سلسلة الجبال الوسطى لفلسطين.

ثانياً: العلو:

أقيمت مدينة القُدس فوق مكان مرتفع، فالنشأة الأولى للمدينة كانت على مرتفعات الضهور "تل أوفل"، ثم امتدت وتوسعت لتشمل جبل الموريا من ناحيتها الشَّرقية، وجبل الزيتون من الناحية الشمالية الشَّرقية، وجبل صهيون في الجنوب الغربي. وقد أعطى هذا الموقع المرتفع أهميَّة استراتيجية بالغة لمدينة القُدس، إذ إنها كانت تشرف على الطرق التجارية والعسكريّة الرئيسية التي تربط بلاد الشَّام ووادي الرافدين بالأراضي المصريَّة.

ثالثاً: القرب من مصادر المياه النقية:

أنشأت مدينة القُدس بالقرب من نبع جيحون "أم الدرج"، الواقع في الجانب الشَّرقي لمرتفعات الضهور. كان هذا النبع يمدُّ مدينة القُدس بمياه الشرب النقية، ولكن بعد إحاطة المدينة بالأسوار الهائلة من جميع جهاتها، أصبح نبع جيحون يقع خارج أسوار المدينة، ولهذا حفر اليبوسيون نفقاً يصل نبع جيحون بالمدينة، وداخل الأسوار كانت المياه النقية تتجمع في بحيرة صغيرة أو بركة عرفت فيما بعد باسم بركة سلوان.

---

[15] سفر التكوين: الإصحاح العاشر (15).

رابعاً: التحصينات الطبيعية:

كانت مدينة القُدس محصنة تحصيناً طبيعياً بالطَّريقة التي تسهل حمايتها والدفاع عنها ضد أي غزو خارجي، فالمدينة كانت محاطة بأودية سحيقة من ثلاث جهات:

1-وادي جهنم "قدرون" من الشَّرق.

2-وادي الزبل من الغرب.

3-وادي الرتابة "هنوم" من الجنوب.

وقد لاحظ معظم المؤرخين أن جميع الغزاة الأجانب كانوا يهاجمون مدينة القُدس من جهتها الشمالية الخالية من الوديان.

أسماء مدينة القُدس

لمدينة القُدس العديد من الأسماء، بعضها يتعلق بالأصول العربيَّة للمدينة، بينما يتعلق البعض الآخر بالاحتلال الأجنبي. وفيما يلي أهم أسماء المدينة:

1-أوروسالم:

أوروسالم أو أوروشالم، هو أول اسم ثابت لمدينة القُدس، وأحدث ما توصَّل إليه البحثُ التَّاريخيُّ في تحليل معنى اسم أوروسالم، هو أنه اسم عربيٌّ كنعاني مكوَّن من مقطعين:

المقطع الأول: كلمة "أورو" وتعني بالكنعانيَّة أسس أو أنشأ.

المقطع الثَّاني: كلمة "سالم" وهي اسم الزعيم العربيّ الكنعاني الذي أمر ببناء مدينة القُدس، وهو أيضاً اسم إله النور والشِّفاء والسَّلام الكنعاني. وبذلك فإن معنى أوروسالم هو "أنشأها أو أسسها سالم". ومن الجدير بالذكر أن كلمة أورو الكنعانيَّة بمعنى أسس تختلف عن كلمة "أور" السُّومريَّة التي تعني مدينة.

نطقت الشُّعوب القديمة اسم أوروسالم بطرق مختلفة. فوردت في المصادر الآشورية باسم "أورساليمو" وأيضاً باسم "يوري ساليمو" كما جاء اسم المدينة في سجلات الملك الآشوري سنحاريب بن سرجون الثَّاني في القرن السَّابع قبل الميلاد، ونطقها المصريون القدماء "أوشاميم" كما ورد اسم المدينة على نقش حجري يعود تاريخه إلى القرن التَّاسع عشر قبل الميلاد ويحتوي على نصوص

الطَّهارة الفرعونيَّة في عهد الأسرة الثَّانية عشرة، وفي رسائل تل العمارنة التي يعود تاريخها إلى القرن الرَّابع عشر قبل الميلاد*، وردت مدينة القُدس باسم "أوروسالم". وفي المصادر الإغريقيَّة والرُّومانيّة جاء اسم المدينة باسم "هيروساليما - وساليما من باب الاختصار"، وفي اللُّغات الأجنبيَّة الحديثة تنطق جورزاليم "Jerusalam". أما اليهود فقد وجدوا صعوبة في نطقها وكتابتها فوردت في أسفارهم باسم "أورشليم ويروشليم". ومن الجدير بالذكر أن يروشليم هو الاسم الذي عرفت به مدينة القُدس، من قبل الآراميين العرب، قبل ظهور اليهود في المدينة بوقت طويل.

2-يبوس:

يبوس هو ثاني اسم، عُرِفَتْ به مدينة القُدس، نسبةً إلى اليبوسيين أنفسهم، بُناة مدينة القُدس قبل حوالي خمسة آلاف سنة. وقد ورد اسم يبوس في المصادر الفرعونيَّة باسم "يابتي ويابيتي". ويبوس هو اسم الزعيم العربيّ الكنعاني "يبوس بن كنعان" الذي تنسب إليه قبيلة يبوس العربيَّة. ويعتقد أن اسم يبوس مشتق من كلمة يابيش بمعنى يابس أي صلب وجاف. فعندما جاء العرب إلى بلاد الشَّام في عصور ما قبل التَّاريخ، أنشأوا مدينة في أراضي شرق الأردن، أطلقوا عليها اسم "يابيش جلعاد"، واسم هذه المدينة مكوَّن من ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: يابيش وتعني يابس.

المقطع الثَّاني: جل وتعني مدينة.

المقطع الثَّالث: عاد، وهم قوم عاد المعروفون في القرآن الكريم. وبذلك يكون معنى يابيش جلعاد هو: مدينة قوم عاد القاحلة أو الجرداء.

3-القُدس:

عرفت مدينة القُدس بهذا الاسم منذ أقدم عصورها نظراً لأن سكانها أقاموا فيها أماكن كثيرة للعبادة والصَّلاة. والقُدس في اللُّغة تعني البركة

---

* رسائل تل العمارنة: عبارة عن مجموعة من الرَّسائل المتبادلة بين الفرعون أمنحوتب الثَّالث وابنه الفرعون أمنحوتب الرَّابع (أخناتون)، وأمراء وملوك بلاد الشَّام. والرَّسائل مكتوبة باللُّغة الآكاديَّة التي كانت لغة دبلوماسيَّة عالميَّة في ذلك الوقت ما عدا ثلاث رسائل كتبت باللُّغة الحوريَّة. والرَّسائل تحتوي على معلومات هامَّة عن بلاد الشَّام، وقد نُقشت الرَّسائل بالخطِّ المسماريِّ (الإسفينيِّ أو الوتديِّ) على ألواح من الطِّين يبلغ عددها 400 لوحة.

والطهارة. وقد جاء اسم القُدس في كتابات المؤرخ اليونانيّ هيرودوتس باسم "قديتس"، ولم يذكرها باسم هيروسالميا. وقديتس هو التحريف اليونانيّ لكلمة "قديشتا" الآرامية العربيَّة التي تعني القُدس. وقد ورد اسم القُدس أكثر من مرة في العهد القديم بدلاً من أورشليم[16].

4-دار السَّلام - قرية السَّلام - مدينة السَّلام:

جميع هذه الأسماء هي ترجمات لكلمة أوروسالم؛ حيثُ كان لا يفرق بين كلمة أورو الكنعانيَّة، التي تعني أسس أو أنشأ، وبين كلمة أور السومرية، التي تعني مدينة.

5-بازق:

ورد هذا الاسم في مطلع سفر القضاة للدلالة على مدينة القُدس، ويرجع هذا الاسم إلى اسم الملك العربيّ الكنعاني أدوني بازق اليبوسي، الذي حكم مدينة القُدس بعد الملك أدوني صادق.

6-بيت المقدس:

بيت المقدس أو البيت المطهر هو الاسم الذي اشتهرت به مدينة القُدس جنباً إلى جنب مع اسم القُدس بعد التحرير العربيّ الإسلاميّ للمدينة في القرن الميلادي السَّابع.

7- الزيتون:

أطلق هذا الاسم على مدينة القُدس لكثرة ما بها من أشجار الزيتون دائمة الخضرة.

8- أسماء أُخرى:

بسبب ظروف الغزو والاحتلال، عرفت مدينة القُدس بأسماء أُخرى كما يلي:

أ-مدينة داود:

بعد دخول اليهود لمدينة القُدس في عهد داود عليه السَّلام، عرفت المدينة باسم مدينة داود لفترة قصيرة جداً من عمرها الطويل. وقد اعترفت دائرة الآثار

---

[16] سفر نحميا: الإصحاح الحادي عشر (1).

الإسرائيليَّة في شهر تموز/ يوليو عام 1998 أن العرب الكنعانيين هم بناة مدينة القُدس، أما تسميتها باسم مدينة داود فهو أمر يتعلق بالاحتلال وليس بالأصول.

ب-صهيون:

استخدم اليهود هذا الاسم مراراً في التَّوراة للدلالة على مدينة القُدس وما حولها من أرض كنعان. واسم صهيون الذي اشتقت منه كلمة الصُّهيونيّة نسبة إلى جبل صهيون الواقع في الناحية الجنوبيَّة الغربيَّة لمدينة القُدس، ليس اسماً يهودياً كما قد يبدو، إذ لا يوجد له أصل في اللُّغة العبريَّة ولا الحبشيَّة، وإنما صهيون كلمة عربيَّة كنعانيَّة قديمة مُشتقة من كلمة "صيه" الكنعانيَّة وتعني "قمة". وقد بقي منها في اللُّغة العربيَّة الحديثة عبارة صياصي الجبال أي قممها[17]. يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

{وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرُّعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً}[18].

ج-مدينة الله[19]، مدينة الحق[20]، جبل القُدس[21]:

جميع هذه الأسماء هي أسماء توراتية لمدينة القُدس.

د-إيليا كابيتولينا:

أطلق هذا الاسم على مدينة القُدس الإمبراطور الرُّوماني إيليوس هادريناوس، بعد أن قام بمهاجمة المدينة واقتحامها عام 135 للقضاء على التمرد الذي تزعمه اليهودي "باركوخبا"، ثم دمَّر هادريناوس مدينة القُدس تدميراً كاملاً، وأنشأ في مكانها مدينة جديدة، خالية من اليهود، أطلق عليها اسم "إيليا كابيتولينا". وهذا الاسم مكوَّن من مقطعين: الأول هو "إيليا" نسبة إلى الاسم الأول من اسم الإمبراطور الرُّوماني إيليوس هادريانوس، أما المقطع الثَّاني "كابيتولينا" فهو مشتق من اسم معبد جوبيتر الكبير بمدينة روما، والمعروف باسم

---

[17] اليهود في العالم القديم: د. مصطفى كمال عبد المنعم، د. سيد فرج راشد.

[18] قرآن كريم: سورة الأحزاب، الآية 26.

[19] سفر المزامير: المزمور الثَّامن والأربعون (1).

[20] سفر زكريا: الإصحاح الثَّامن (3).

[21] سفر أشعيا: الإصحاح السَّابع والعشرون (13).

معبد الكابيتول. وقد ظلَّت مدينة القُدس تعرف باسم "إيلياء" حتى التَّحرير العربيّ الإسلاميّ لها في القرن الميلادي السَّابع.

بقيت مدينة القُدس في قبضة أصحابها العرب الكنعانيين لأكثر من ألفي سنة مُتواصلة من التَّاريخ، وهي مدينة هادئة ووديعة وساحرة، فلا غرو أن توصف بزهرة المدائن، وعلى مدى تاريخها الطويل تعرضت مدينة القُدس إلى أربعة وعشرين احتلالاً عسكرياً نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام في قلب العالم، ولأهميتها الدِّينيَّة البالغة، كما أنها تعرضت للتدمير الشَّامل عدة مرات من قبل الغزاة الأجانب من الشَّرق والغرب. ولكن القُدس بالإضافة إلى سحرها وجاذبيتها التي تجذب إليها الغزاة من كل مكان، فهي مدينة مسحورة أيضاً، إذ إنها سرعان ما تلفظ المحتل الغاصب فيخرج منها ذليلاً مدحوراً يجر وراءه أذيال الخيبة ويتجرع كؤوس الهزيمة المُرَّة. ومدينة القُدس كانت دائماً مفتاح أرض فلسطين، والاستيلاء عليها عسكرياً يعني الاستيلاء على فلسطين كلها، فلا عجب أن يكون تاريخ مدينة القُدس هو ذاته التَّاريخ الفلسطينيّ برمته. وفي الفصول الأربعة القادمة عرض موجز لأهم أحداث مدينة القُدس من زاوية الغزو والاحتلال الأجنبي، منذ مطلع الألفيَّة الثَّانية قبل ميلاد السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام، وحتى يومنا هذا، متسلسل حسب الأحداث التَّاريخية، التي توالت على المدينة خلال الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد، ثم الألفيَّة الأولى قبل الميلاد، ثم الألفيَّة الأولى للميلاد، وأخيراً الألفيَّة الثَّانية للميلاد، مع قليل من التفصيل لبعض جوانب هذا التَّاريخ في بعض المواضع عندما تستدعي الضرورة ذلك.

الفصل الثَّاني

القُدس خلال الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد

خلال الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد، ابتُليت فلسطين بالعديد من الغُزاة الأجانب، الذين قاموا باحتلالها وتدمير مدنها وقراها، وإتلاف مزارعها وبساتينها، وقهر شعبها وإذلاله. كان الهكسوس أول هؤلاء الغُزاة، تلاهم المصريُّون القدماء، ثم الحوريُّون الذين تمكنوا، في مُنتصف الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد من تأسيس مملكة ميتاني الحوريَّة في الشَّرق القديم. وقد شهدت أواخر الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد بداية تسلل الجماعات اليهوديَّة الهمجيَّة إلى فلسطين وإقامتهم في المناطق المهجورة غربي نهر الأردن، ثم تمكنهم من إنشاء مملكة صغيرة في فلسطين، وفي نفس الوقت تقريباً شهدت أرض كنعان عودة الفلسطينيّين إلى موطنهم الأصلي جنوبي فلسطين، قادمين من جزيرة كريت كبرى جزر بحر إيجه.

2-1: القُدس تحت حكم الهكسوس

منذ مطلع الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد، شهدت منطقة الشَّرق القديم تحركات واسعة النطاق لموجات متتالية من قبائل بدويَّة جبليَّة غازية، رحلت عن موطنها الأصلي ثم تفرقت في عدة اتجاهات؛ فتوجه قسم منهم شرقاً واجتاز ممر خيبر الاستراتيجي إلى أفغانستان، واتجه قسم منهم إلى الغرب وقام باكتساح بابل بعد وفاة القائد البابلي العظيم "حمورابي". وفي موجة جديدة اجتاح هؤلاء الغزاة فلسطين وبلاد الشَّام، ثم اتجهوا جنوباً وتمكنوا من احتلال مصر حيث عرفوا هناك باسم "الهكسوس". وقد اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في تفسير المعنى الحقيقي لكلمة الهكسوس. وزاد الأمور غموضاً وتعقيداً خلو المصادر اللُّغويَّة المصريَّة القديمة من ذكر لهذه الكلمة، وإنما وجد فقط أوصاف لهؤلاء الغزاة مثل وصفهم بالطاعون، أو إطلاق اسم عامٍ عليهم ككلمة "عامو" التي تعني الآسيويون. وقد وردت كلمة "هكسوس" لأول مرة في كتابات الكاهن والمؤرخ المصري القديم "مانيثو" الذي عاش ببلده سمنود المصريَّة في القرن الثَّالث قبل الميلاد. وكان يكتب مؤلفاته باللُّغة اليونانيّة. والكلمة التي استخدمها مانيثو للدلالة على هؤلاء الغزاة هي "حقاوشاسو" وتعني حكام البدو أو الرُّعاة. ولكن يرجح معظم المؤرخين وعلماء اللُّغة المصريَّة القديمة أن كلمة هكسوس مشتقة من العبارة المصريَّة القديمة "حقاوخاسوت" وتعني حكام الأقاليم الأجنبيَّة.

وكما اختلف في معنى كلمة الهكسوس، اختلف أيضاً في أصلهم وموطنهم الأصلي، فرأي يقول بأنهم كانوا خليطاً من سلالات عرقية وطوائف لُغويَّة مُتباينة، فمنهم الحثيُّون الذين ينتمون للجنس الآري وكانوا يقطنون في سهول وجبال آسية الصُّغرى وفي مناطقها الشَّرقية، ومنهم الحوريُّون مجهولو الأصل، الذين كانوا يستوطنون شمال وادي الرافدين، بالإضافة إلى قبائل غير سامية أُخرى. ورأي آخر يقول إنهم كانوا خليطاً من الحوريين والسَّاميين مع غلبة العنصر السَّامي في هذا الخليط. ويبقى أصل الهكسوس غامضاً ومجهولاً، ومن الأفضل تفسيره في إطار الوضع العرقي والسِّياسيّ والعسكريّ الذي كان سائداً في الشَّرق القديم خلال الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد. و في محاولة صبيانية للرد

على كتابات المؤرخين الإغريق التي تهاجم اليهود وتحقرهم وتحط من شأنهم، حاول المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس، إيجاد علاقة بين اليهود والهكسوس عن طريق ربط الهكسوس بالعبرانيين الأوائل وزعمه أن الهكسوس هم العبرانيون، واعتقد يوسيفوس أنه قادر، بهذا الزعم الكاذب، على خلق دور تاريخي وحضاري لليهود، لم يشاركوا فيه من بعيد أو قريب. لم ينل هذا الرأي رضا وقبول جميع المؤرخين وعلماء الآثار الذين اعتبروه رأياً مغرضاً يفتقد إلى النزاهة والمصداقية. والسؤال الذي يطرح نفسه بقُوَّة هنا: إذا كان العبرانيون الأوائل هم الهكسوس، فلماذا لم يطردهم المصريون القدماء أيضاً عندما طردوا الهكسوس من بلادهم؟

والهكسوس، على ما يبدو، كانوا متقدِّمين جداً في المجال العسكريّ، ولهم جيوشهم القويَّة المجهزة بأسلحة استراتيجيَّة خطيرة، لا تعرفها معظم جيوش الشَّرق القديم، وقد كانت قواتهم تتحرك في المعارك بسرعة فائقة، محمولة على عشرات الآلاف من المركبات الحربية، التي تجرها الخيول، وتحمل مئات الآلاف من محاربيهم، الذين كانوا يلبسون دروعاً معدنية على أجسامهم، ويقاتلون بسيوف حديدية مقوسة. أما رماتهم فكانوا يرمون بالأقواس المركبة، التي أخذوا فكرتها من وادي الرافدين بعد احتلاله. والقوس المركب كان سلاحاً فتاكاً في ذلك الوقت، يرمي لمسافات أطول بكثير من القوس العادي. وقد برع الهكسوس في الصناعات البرونزية والحديدية، وفي الصناعات الفخارية والخزفية وفي الحفر والنقش على العاج.

كان استعمار الهكسوس لفلسطين من النوع الاستيطانيّ الإحلاليّ الذي يشكل خطورة بالغة على مصير الشُّعوب ووجودها، ويشبه إلى حد كبير الاستعمار الاستيطانيّ الصُّهيونيّ الحالي في فلسطين المحتلة، والاستعمار الأوروبيّ لجنوب أفريقية وغيرها من دول القارَّة الأفريقية فيما مضى. ولأول مرة في تاريخها توحدت الإمارات والممالك الكنعانيَّة تحت حكم الهكسوس في حكومة مركزية واحدة، اتخذت من مدينة أريحا وليس القُدس مقراً لها، كانت مدينة أريحا هي العاصمة السياسيَّة للهكسوس في فلسطين، وقد أحاطوها بالأسوار والحواجز والخنادق، لتُسهل أمامهم مهمة الدفاع عنها. وقد وقعت مدينة القُدس

في قبضة الهكسوس أيضاً، وقاموا بإنشاء العديد من المدن المسورة حولها، وبلغت مدينة تل العجول شأناً عظيماً في عهدهم نظراً لقربها من الحدود المصريَّة. تميزت فترة حكم الهكسوس في فلسطين بنظام الإقطاعيات العسكريّة التي يملكها الصفوة من محاربي المركبات الحربية الهكسوسية.

عثر المنقبون على آثار هكسوسية في فلسطين وبلاد الشَّام متمثلة في الحصون والقلاع التي ترجع إلى زمن الهكسوس في مدن أريحا ونابلس وتل العجول وتل كيسان وحاصور، و في مدينة "قطنا" عاصمة الهكسوس في سورية. وقد عثر المنقبون أيضاً على العديد من المقابر الهكسوسية التي تحمل أسماء ملوكهم، وعلى فخار ملون من زمن الهكسوس في محيط مدن عكا وتل كيسان وبيت مرسم. استمر حكم الهكسوس لفلسطين إلى أن تمكن الجيش المصري من طردهم من مصر ومطاردة فلولهم في فلسطين وبلاد الشَّام، منهياً بذلك وجودهم فيهما.

2-2: القُدس تحت حكم الفراعنة

استولى الهكسوس على مصر بعد انهيار الدَّولة المصريَّة الوسطى التي امتدت من الأسرة السَّادسة وحتى الأسرة الحادية عشرة*. ويصف المؤرخ المصري القديم "مانيثو" احتلال الهكسوس لمصر بقوله:

«في عهد تيماوس، أصابتنا، ولست أدري لماذا، نقمة من الآلهة. فاندفع نحونا أقوام مجهولو الأصل جاؤوا من المناطق الشَّرقية، وكانوا من الجسارة إلى الحد الذي جعلهم يقومون بغزونا. وقد أخضعوا البلاد بسهولة ودون أن نخوض معركة معهم، وعندما تمكنوا من هزيمة حكامنا أقدموا بعد ذلك على إحراق مدننا وإتلاف معابد الآلهة وعاملوا السُّكان بوحشيَّة بالغة، فذبحوا البعض واسترقوا أبناءهم وزوجاتهم. ثم جعلوا واحداً منهم ملكاً على البلاد كان يدعى سالانس، وأقام سالانس في ممفيس وأرغم الوجهين القبلي والبحري على دفع الجزية إليه».

اختلف المؤرِّخون في تحديد الفترة الزمنيَّة لاحتلال الهكسوس لمصر، ويبدو أن عام 1730 قبل الميلاد كزمن لهذا الاحتلال قد لاقى قبولهم، ويشير معظم المؤرخين إلى أن الهكسوس قد تدفقوا تدفقاً تدريجياً إلى مصر قبل هذا التَّاريخ

---

* يقسم المؤرخون الدَّولة المصريَّة القديمة إلى أربع مراحل تفصل بينها ثلاث فترات من الانحطاط:

1-الدَّولة المصريَّة القديمة (2686 - 2181 قبل الميلاد): وتشمل الأسر الفرعونية من الثَّالثة إلى السَّادسة. وتلي هذه المرحلة فترة من الانحطاط تعرف باسم الحقبة الوسطى الأولى (2181 - 2040 قبل الميلاد) وتشمل الأسر الفرعونية من السَّابعة إلى الحادية عشرة.

2-الدَّولة المصريَّة الوسطى (2040 - 1782 قبل الميلاد) وتشمل الأسرتين الحادية عشرة والثَّانية عشرة. تليها الحقبة الوسطى الثَّانية من الانحطاط (1782 - 1570 قبل الميلاد) وتضم الأسر من الثَّالثة عشرة وحتى السَّابعة عشرة.

3-الدَّولة المصريَّة الجديدة (1570 - 1070 قبل الميلاد) وتشمل الأسر الفرعونية من الثَّامنة عشرة إلى العشرين. أعقبت هذه المرحلة الحقبة الوسطى الثَّالثة من الانحطاط (1070 - 525 قبل الميلاد) وتشمل الأسر الفرعونية من الحادية والعشرين إلى السَّادسة والعشرين.

4-الدَّولة المصريَّة المتأخرة (525 - 332 قبل الميلاد) وتشمل الأسر من السَّابعة والعشرين إلى الحادية والثلاثين. وبعد عام 525 قبل الميلاد - أي بعد الاحتلال الفارسي لمصر - أصبح فراعنة مصر من الفرس.

بوقت طويل. واختلف أيضاً في مدة إقامة الهكسوس في مصر، ومن الأرجح أنها كانت تتراوح بين قرن ونصف القرن إلى قرنين من الزمن. حكم الهكسوس مصر خلال الحقبة الوسطى من الانحطاط (1782 - 1570 قبل الميلاد)، والتي تشمل الأسر الفرعونيَّة من الثَّالثة عشرة إلى السَّابعة عشرة. كان احتلال الهكسوس لمصر نوعاً من الاستعمار الاستيطانيّ الخطير أيضاً. وقد حكموا الشَّعب المصري بالحديد والنار، وقتلوا جميع قواه الوطنيَّة، وقد طبق الهكسوس نموذجهم الكنعانيّ في مصر فوحدوا جميع الممالك المصريَّة القديمة في حكومة مركزية واحدة جعلوا عاصمتها مدينة "أفاديس" التي بنوها شمالي شرقي البلاد، وتُعرف الآن باسم "تل الضبعة" بالقرب من مدينة القنطرة شرق. كانت مدينة أفاريس مدينة عسكريَّة جيدة التحصين، وقد وضع فيها الهكسوس حامية عسكريَّة ضخمة مكونة من حوالي 240 ألف مقاتل كانوا يقفون على أهبة الاستعداد للتصدي لأي هجوم آشوري محتمل من الشَّرق طمعاً في مملكة الهكسوس في مصر. وقد عين الهكسوس حكاماً للأقاليم منهم ومن المصريين الذين قبلوا بالتعاون معهم. ومن الجدير بالذكر أن العبرانيين تعاونوا تعاوناً وثيقاً مع الهكسوس في مصر، وعملوا كجواسيس ووشاة لهم في محاولاتهم لقمع الشَّعب المصري. ويعتقد معظم المؤرخين أن سيطرة الهكسوس على مصر اقتصرت على دلتا نهر النيل وعلى أقاليم مصر الوسطى، أما مصر العليا فقد ظلت تحت سيطرة أبناء البلاد. ويحسب الهكسوس أنهم أدخلوا الخيول إلى مصر ، وأدخلوا العربات الحربيَّة التي تجرها الخيول، وكذلك الدروع المعدنية والسيوف المقوسة والأقواس المركبة، ويقال إنهم أدخلوا زراعة بعض أنواع الأشجار كالرمان مثلاً، كما وأن قسماً مهماً من علوم الرياضيات المصريَّة القديمة وصلت إلينا من خلال نصوص تعود لزمن الهكسوس.

نصوص اللَّعنة

لم يكن بمقدور المصريين مقاومة جيوش الهكسوس الجرارة في بادئ الأمر، فقد كانت تنقصهم القيادات الجريئة والأسلحة اللازمة لمواجهة الهكسوس عسكرياً، فاكتفوا بنشر العداء والكراهية لهم بين صفوف الشَّعب، وإزكاء الرُّوح

الوطنيَّة في صدور الشَّباب. وقد لجأ المصريُّون في بادئ الأمر إلى مُحاربة الهكسوس بالسِّحر والدُّعاء وإنزال اللَّعنات عليهم وعلى عملائهم - أي ما عرف بنصوص اللَّعنة الفرعونيَّة - وقد صنعوا لهذا الغرض دمى وأواني فخارية خاصَّة كانوا يكتبون عليها أسماء الهكسوس المراد إنزال اللَّعنة بهم، ثم يدمِّرون هذه الدُّمى والأواني الفخارية وسط مظاهر وطقوس دينية وسحُرِّيَّة معينة. وقد عثر علماء الآثار على دمى وأواني فخارية محطمة عليها بعض الأسماء الهكسوسيَّة.
ولكن المقاومة الحقيقيَّة للهكسوس كانت على يد الفرعون سقنن رع تاو الثَّاني من أواخر فراعنة الأسرة السَّابعة عشرة، كان هذا الفرعون أول من قاد معارك التحرير ضد الهكسوس في مصر، ولكنه قتل في إحدى هذه المعارك حوالي 1573 قبل الميلاد، بعد أن أصيب بإصابات قاتلة في وجهه ورأسه، كما يستدل من الكسور الغائرة في عظام وجهه وجمجمته، التي تظهر في رأس جثته المحنطة. وبعد مقتل الفرعون سقنن رع تاو الثَّاني تولى حكم مصر ابنه الأكبر كاموس (1573 - 1570 قبل الميلاد)، استمر كاموس في مقاومة الهكسوس ولكنه توفي بعد ثلاث سنوات من توليه الحُكْم، فخلفه شقيقه الأصغر أحموس الأول (1570 - 1546 قبل الميلاد). أسس أحموس الأول الأسرة الفرعونية الثَّامنة عشرة في بلده طيبة بمصر العليا، بعيداً عن مناطق نفوذ الهكسوس. أعد أحموس الأول جيشاً قوياً، مجهزاً بنفس أسلحة الهكسوس، مثل العربات الحربية التي تجرها الخيول والأقواس المركبة والدروع المعدنية. وبالرغم من صغر عمره، فقد قاد أحموس الأول معارك التحرير ضد الهكسوس ببطولة وحنكة، وحقق لبلاده النصر تلو النصر، إلى أن تمكن في النِّهاية من هزيمة الهكسوس هزيمة ساحقة وقاضية ودمر عاصمتهم المحصنة "أفاريس" وطردهم نهائياً من مصر. لم يكتفِ أحموس الأول بطرد الهكسوس من بلاده، وإنما طارد فلولهم في فلسطين، وحاصر قواتهم لسنوات طويلة في بلدة شاروحين الفلسطينيّة المحصنة، وتمكن من إلحاق الهزيمة بهم. ويبدو أن مطاردة أحموس الأول للهكسوس في فلسطين كانت خطة استراتيجيَّة قصد منها منع الهكسوس من معاودة الكرَّة وغزو مصر من جديد، وأثناء مطاردة أحموس الأول للهكسوس في فلسطين قام بتدمير العديد من المدن الفلسطينيّة في النقب ومناطق بئر السبع وغزة مثل مدن

شاروحين وتل العجول وبيت الزور وشيلوة وبيت شمش. وبعد وفاة أحموس الأول، خلفه على عرش مصر ابنه أمنحوتب الأول، ثم تحتموس الأول، اللَّذان واصلا مُطاردة الهكسوس في فلسطين، واستولوا على مدينة القُدس، ودمروا مدينة أريحا عاصمة الهكسوس في فلسطين. وعندما جاء تحتموس الثَّالث (1490 - 1436 قبل الميلاد) قام بشنِّ ست عشرة حملة عسكريَّة على فلسطين واحتل تحتموس الثَّالث في أولى هذه الحملات مدينة مجدو الفلسطينيّة. وبذلك فتح الطَّريق إلى مرج بن عامر أمام القوات المصريَّة. ولكن لم تخضع فلسطين وبلاد الشَّام للحكم المصري إلا بعد القضاء على آخر معاقل الهكسوس في قادش، ثم واصل تحتموس الثَّالث الزحف بجيشه شمالاً، حتى وصل إلى قرقميش على نهر الفرات الأعلى، وبذلك أسس تحتموس الثَّالث إمبراطوريَّة عملاقة تمتد بين النيل والفرات.

حكم الفراعنة فلسطين وبلاد الشَّام حوالي أربعة قرون، بطريقة غير مباشرة، عن طريق ملوك المدن الشَّامية، كانت مهمة ملوك المدن تتلخص في التالي:

1-ضمان استمرار تبعية بلاد الشَّام لمصر.
2-قمع الانتفاضات والثورات المناوئة للحكم المصري في بلاد الشَّام.
3-صد أي هجوم خارجي ومشاركة الجيش المصري في غزواته وحروبه.
4-تأمين الاحتياجات الضَّرورية لمواطنيهم.

وفي العهد الفرعوني أصبحت مدينة القُدس مركزاً مصرياً متقدماً، ووضعوا فيها حامية عسكريَّة ضخمة لحماية الطرق التجاريَّة الرئيسيَّة القريبة من المدينة، وكانت القُدس شأنها شأن الممالك الكنعانيَّة الأُخرى تدفع الجزية لمصر. ويُستخلص من مراسلات تل العمارنة، التي يعود تاريخها للقرن الرَّابع عشر قبل الميلاد، وبخاصَّة الرسائل المتبادلة بين عبد - خيبا ملك القُدس الكنعاني والفرعون أمنحوتيب الرَّابع "أخناتون"، أن الحركات الثَّوريَّة المناوئة للحُكم المصري في فلسطين، قد ازدادت بشكل خطير، يهدد نفوذ الفرعون في بلاد الشَّام، وأن ملوك وأمراء المدن الكنعانيَّة فشلوا فشلاً ذريعاً في قمعها والقضاء عليها. فأرسل أمنحوتيب الرَّابع "أخناتون" حملة عسكريَّة ضخمة إلى

فلسطين بقيادة القائد الفرعوني "بيخورو" لتأديب الثَّائرين، ولكنه فشل في مهمته، وبقيت فلسطين خارج النُّفوذ المصري حتى السَّنة الأولى من حكم الفرعون سيتي الأول (1293 - 1279 قبل الميلاد). ومن الجدير بالذكر أن ملوك المدن الكنعانيَّة كانوا يطلقون اسم الخابيرو أو العابيرو على الثوار الخارجين على سلطة الفرعون في بلادهم. والعابيرو والخابيرو والعبري والهبري والإبري، كلها كلمات بمعنى واحد تعني في اللُّغات القديمة: الثُّوَّار الخارجون على نظام الحُكْم، ولا يطيعون أوامر الملك، وكانت تُطلق أيضاً على اللُّصوص وقُطاع الطُّرق، ولكنها لا تعني إطلاقاً الجماعات العبريَّة التي اعتاد الناس منذ أمد بعيد على فهم أنَّهم اليهود. أرسل الفرعون سيتي الأول عدة حملات عسكريَّة إلى فلسطين لإخضاعها لحكمه. وفي عهد ابنه رمسيس الثَّاني (1279 -1212 قبل الميلاد) كانت فلسطين تابعة لمصر. وقد ثار الشَّعب الفلسطينيّ ثانية على الحُكْم المصري في عهد مرنبتاح بن رمسيس الثَّاني (1212 - 1202 قبل الميلاد) مما دفعه للتوجه بنفسه على رأس جيشه إلى فلسطين من أجل إخضاع الثَّائرين. وقد ظلت فلسطين تحت الحُكْم المصري حتى عهد رمسيس الثَّالث عندما تمكن تحالف من الكنعانيين والفلسطينيّين من إنهاء الوجود المصري في فلسطين.

2-3: القُدس تحت حُكْم الحوريِّين

الحوريُّون شعب مجهول الأصل، يعتقد أنهم من الجنس الآري "الهندو - أوروبي". وعاشوا شمالي وادي الرافدين، في المنطقة الواقعة بين شمالي مدينة الموصل العراقية وجبال زاغروس شرقاً. تمكَّن الحوريُّون من الاستيلاء على آشور وبلاد الشَّام وفلسطين، وأسَّسوا في مُنتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد مملكة ميتاني الحوريَّة، التي كانت أراضيها تمتدُّ من شمال إيران شرقاً إلى السَّواحل الشَّرقية للبحر الأبيض المُتوسِّط. وقد أطلق المصريُّون القدماء لبعض الوقت اسم حارو أو حورو على فلسطين وبلاد الشَّام نسبة للحوريين. اعتمد الحوريُّون في حكمهم لفلسطين وبلاد الشَّام على طبقة أرستقراطيَّة تعيش داخل مدن محصنة تُسمى "ماريانو" ويحكمها أمير أو ملك صغير.

وفي عام 1365 قبل الميلاد تمكن الحثِّيون من القضاء على مملكة ميتاني الحوريَّة، واحتلوا جميع بلاد الشَّام عدا فلسطين، التي لم تكن يوماً تابعة للإمبراطوريَّة الحثيَّة. لم يتمكَّن الحوريُّون في الحقيقة من فرض لغتهم ودينهم وعاداتهم وتقاليدهم على الشَّعب الفلسطينيّ، ولم يزد استعمارهم لفلسطين عن كونه مجموعة مُتناثرة من المستعمرات أو الجزر السُّكانيَّة الأجنبيَّة وسط محيط من السُّكان الأصليِّين، وبقيت فلسطين عربيَّة كنعانيَّة الطَّابع كما كانت دائماً.

2-4: القُدس تحت حُكْم اليهود

أولاً: مقدمة:

خرج بني إسرائيل من مصر إلى صحراء سيناء، بقيادة موسى عليه السَّلام، في أواخر سنوات القرن الثَّالث عشر قبل الميلاد، كما يعتقد العلماء استناداً إلى بعض إشارات العهد القديم. فقد جاء في الإصحاح الأول من سفر الخروج فقرات تنصُّ على أن الفراعنة قد استعبدوا بني إسرائيل وسخروهم في بناء مدينتي فيثوم ورمسيس. جاء في هذا الإصحاح ما يلي:

«ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم، لئلا ينمو فيكون إذا حدثت حربهم أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتي فيثوم ورعمسيس. ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا. فاختشوا من بني إسرائيل، فاستعبد المصريُّون بني إسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بعبوديَّة قاسية في الطِّين واللِّبن وفي كل عمل في الحقل، كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفاً».

أثبتتْ الاكتشافات الأثريَّة في مصر، وجود مدينة قديمة باسم فيثوم أو بر-توم أي بيت الإله اكتشفها عالم الآثار الفرنسي "نافيل" عام 1883. وهي الآن بلدة تل المسخوطة، أما مدينة رعمسيس فقد اكتشفها عالم الآثار المصري محمود حمزة عام 1928، وهي ذاتها مدينة بررمسيس أو خنت نغر المعروفة الآن باسم تل الضبعة، وعندما تولى حكم مصر الفرعون حور محيب آخر فراعنة الأسرة الثَّامنة عشرة (1321 - 1293 قبل الميلاد) وكان يقيم في ممفيس، بنى حور محيب في مكان عاصمة الهكسوس المدمرة "أفاريس" مدينة عسكريَّة جديدة مُحصنَّة بطريقة جيدة، أطلق عليها اسم مدينة زارو. وضع حور محيب في مدينة زارو حامية عسكريَّة ضخمة، لحماية البوابة الشَّرقية لمصر. كان يقيم في مدينة زارو القائد بارمسيس قائد جيوش حور محيب، وعندما أصبح بارمسيس أول فراعنة الأسرة التَّاسعة عشرة، أطلق على مدينة زارو اسم بررمسيس - أي قصر رمسيس -. وفي عهد الفرعون سيتي الأول (1293 -

1279 قبل الميلاد) ثاني فراعنة الأسرة التَّاسعة عشرة، أقام في مدينة بررمسيس قصراً ملكياً صيفياً ليقيم فيه خلال أشهر الصيف، وعندما تولى الحُكْم ابنه رمسيس الثَّاني (1279 - 1212 قبل الميلاد) أراد أن يجعل من مدينة بررمسيس "زارو" عاصمة له، ولكي تضاهي مدينتي ممفيس وطيبة اتساعاً ورونقاً وجمالاً أقام رمسيس الثَّاني العديد من المشاريع العمرانيَّة الضَّخمة في مدينة بررمسيس، وسخر اليهود كعبيد في تلك المشاريع. وتطلق التَّوراة اسم رعمسيس على مدينة بررمسيس التي هي زارو. وتذكر التَّوراة أيضاً أن الفرعون الذي اضطهد بني إسرائيل قد مات قبل عودة موسى عليه السَّلام إلى مصر من أرض مدين، وخلفه ابنه مرنبتاح (1212 - 1202 قبل الميلاد). وبذلك يكون فرعون الاضطهاد هو رمسيس الثَّاني، وأما فرعون الخُروج، فهو مرنبتاح بن رمسيس الثَّاني. وحيث أن الفرعون أمنيميسيس (1202 - 1199 قبل الميلاد) هو خليفة مرنبتاح بن رمسيس الثَّاني، وقد تولى حكم مصر في نفس العام الذي هلك فيه مرنبتاح وجيشه، فيكون تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر هو العام 1202 قبل الميلاد. ولكن آيات القرآن الكريم تقرر بطريقة مباشرة ووضوح تام أن فرعون الاضطهاد وفرعون الخروج هما شخص واحد وليس اثنان، وتفند الفصل بينهما كما ذهب إليه موريس بوكاي[1] وآخرون.

فعندما عاد موسى عليه السَّلام إلى مصر من أرض مدين، فإن فرعونها الذي تربَّى موسى في قصره وهو طفل صغير، وفرَّ منه إلى أرض مدين بعد قتله المصري الذي كان لا يزال حياً ولم يمت كما جاء في الإصحاح الأول من سفر الخروج، بل وذكر موسى بأيام إقامته الأولى في مصر. يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

{قال ألم نُرَبكَ فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين❖ وفعلت فعلتك وأنت مِن الكافرين❖ قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين❖ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين❖ وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل}[2].

---

[1] موريس بوكاي: التَّوراة والإنجيل والقرآن والعلوم.

[2] قرآن كريم: سورة الشعراء، الآيات 18- 22.

والفرعون الذي ينطبق عليه القول هو رمسيس الثَّاني (1279- 1212 قبل الميلاد)، إذ إنه حكم مصر فترة طويلة جداً تبلغ 67 عاماً. ولا يعرف التَّاريخ فرعوناً آخر حكم مصر هذه المدة الطَّويلة في زمن موسى سوى رمسيس الثَّاني، وبالتالي فإنه هو ذاته فرعون الاضطهاد والخروج معاً.

الخروج الإسرائيلي من مصر

قبل أن يرحل بنو إسرائيل عن مصر، لم ينسوا طبعاً أن يحتالوا على المصريِّين ويسلبوهم ذهبهم وفضتهم وحتى ثيابهم حسب قول موسى كما تزعم التَّوراة:

1-«وأعطى نعمة لهذا الشَّعب في عيون المصريين، فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتك، فتسلبون المصريين»[3].

2-«تكلم على مسامع الشَّعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب، وأعطى الرَّب نعمة للشَّعب في عيون المصريين، وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر، في عيون فرعون وعيون الشَّعب»[4].

3-«وعمل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً، وأعطى الرب نعمة في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين»[5].

أين كان يقيم بنو إسرائيل في مصر؟
ومن أين خرجوا؟

عندما جاء بنو إسرائيل الأوائل إلى مصر، كان عددهم سبعين شخصاً فقط بين رجل وامرأة وطفل وشيخ، فآوى يوسف عليه السَّلام إليه أبويه وأخاه

---

[3] سفر الخروج: الإصحاح الثَّالث (21- 22).

[4] سفر الخروج: الإصحاح الحادي عشر (2- 3).

[5] سفر الخروج: الإصحاح الثَّاني عشر (35).

بنيامين فقط. أما البقية فقد أسكنهم في المناطق المهجورة من الأرض التي تسميها التَّوراة أرض جاسان، وأرض جاسان واقعة شرقي دلتا نهر النيل، وعند الأطراف الغربية لصحراء سيناء التي تشغلها الآن قناة السويس. وجغرافيَّة هذا المكان كانت تختلف اختلافاً واسعاً عما هي عليه الآن، ولكنها مشابهة لها من حيث أنها كانت تفصل صحراء سيناء عن وادي النيل بمجموعة مُتصلة من العوائق المائيَّة. فمن الشَّمال كانت مياه بحيرة المنزلة، تمتد جنوباً حتى الأطراف الشَّمالية لأرض جاسان، ومن الجنوب كانت مياه خليج القلدس (السويس) تمتد شمالاً لتتصل مباشرة بمياه البحيرات المُرَّة، وكانت البحيرات المُرَّة مفصولة عن بحيرة التِّمساح شمالاً بمنطقة واسعة من المستنقعات العميقة، المغطاة بكثافة بأشجار البوص. وكانت مياه بحيرة التِّمساح نفسها تمتدُّ شمالاً حتى الأطراف الجنوبيَّة لأرض جاسان. أما نهر النيل فكان يصب في البحر الأبيض المُتوسِّط عن طريق ثلاثة فروع وليس فرعان كما هو الحال الآن، فإلى جانب فرعي رشيد ودمياط المعروفين كان هناك فرع ثالث يُعرف بالفرع البالوظي لنهر النيل، يمرُّ بين بحيرة المنزلة شمالي أرض جاسان، ويصبُّ في البحر الأبيض المُتوسِّط عند بلدة بالوظة الواقعة شمالي سيناء. وقد قام المصريُّون القُدماء بحفر قناة صناعية، تربط بحيرة التمساح بالفرع البالوظي لنهر النيل. وبذلك تكون أرض جاسان مُحاطة بعوائق وقنوات مائية، ونقطة الاتصال الوحيدة بين سيناء ووادي النيل كانت قنطرة أو كوبري فوق القناة الصِّناعيَّة، التي تصل بحيرة التمساح بالفرع البالوظي لنهر النيل؛ ولذلك سميت أرض جاسان باسم أرض القنطرة، ومنها اتخذت مدينة القنطرة المصريَّة اسمها (الخارطة الأولى).

والحقيقة أن أرض جاسان "القنطرة" هي البوابة الشَّرقيَّة البريَّة الوحيدة لمصر، واجتياحها عسكرياً كان يُشكل خطراً بالغاً على مصر، إذ إن جميع الغزاة الأجانب احتلوا مصر عن طريق أرض جاسان، كما أن الجيوش المصريَّة الغازية لبلاد الشَّام كانت تمرُّ إليها عبر أرض جاسان. كانت مصر تتصل بأرض كنعان بواسطة طريق "حورس" الحربي الذي يبدأ عند مدينة زارو "بررمسيس" ثم يتجه شمالاً نحو البحر الأبيض المُتوسِّط ويسير بمحاذاة ساحله إلى أن يصل إلى

مدينة غزة الكنعانيَّة. وبالإضافة إلى طريق حورس الحربي، كان هنالك طريقان آخران في صحراء سيناء، الأول يبدأ عند مدينة زارو، ثم يتجه جنوباً، ويسير بمحاذاة السَّاحل الشَّرقي للبحيرات المُرَّة، وعند نهايتها يرتدُّ شمالاً باتجاه البحر الأبيض المُتوسِّط ويتقاطع مع طريق حورس الحربي. أما الطَّريق الثَّاني فقد كان يبدأ عند جبل الطُّور جنوبي سيناء، ويسير بمحاذاة السَّاحل الغربي لخليج العقبة ويتجه شمالاً نحو جنوب النقب بفلسطين، ثم يتفرع ليصل مصر بأرض مدين شرقاً.

عاش بنو إسرائيل خارج أسوار مدن أرض جاسان "القنطرة"، وفيها ولد نبي الله موسى عليه السَّلام، وتربى في قصر مدينة زارو الملكي، ومنها فرَّ إلى أرض مدين، بعد قتله للمصري، وإليها عاد لكي يُخرج بني إسرائيل من مصر. والخروج الإسرائيلي من مصر، لم يتم مباشرة بعد عودة موسى عليه السَّلام من أرض مدين، وإنما استغرق سنين طويلة قضاها موسى في مفاوضة فرعون مصر، وفي تجميع بني إسرائيل من أماكن استعبادهم وتسخيرهم الأُخرى. ومن البديهي أن موسى وقومه، لم يسلكوا طريق حورس الحربي ولا الطَّريق المؤدية للبحيرات المُرَّة أثناء خروجهم من مصر، وذلك بسبب الحراسة المشدَّدة على طرق سيناء من قبل جنود فرعون، ومن الأرجح أنهم ساروا بمحاذاة السَّاحل الغربي لبحيرة التمساح ثم منطقة المستنقعات، فالبحيرات المُرَّة ثم خليج القلدس (السويس) وربما أيضاً بحر القلدس "البحر الأحمر". وعندما لحق فرعون وجنوده ببني إسرائيل، وأصبحوا على مرمى أبصارهم بعد حوالي أسبوعين من خروجهم، أوحى الله تعالى لموسى عليه السَّلام أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق البحر في معجزة إلهية مذهلة فاتحاً ممراً لعبور بني إسرائيل بسلام للضِّفة الأُخرى، بينما انطبق البحر على فرعون وجنوده فهلكوا جميعهم ولو ينجو منهم فرد واحد.

كم كان عدد بني إسرائيل؟

تزعم التَّوراة أن عدد بني إسرائيل الخارجين من مصر بقيادة موسى عليه السَّلام كان 600000 ماشٍ ومعهم أعداد كبيرة من الأطفال والنِّساء إضافة إلى مئات الآلاف من الحيوانات:

1-«فقال موسى: ست مئة ألف ماشٍ هو الشَّعب الذي أنا في وسطه، وأنت قلت أعطيهم لحماً ليأكلوا شهراً من الزمان. أيذبح لهم غنم وبقر ليكفيهم أم يجمع لهم كل سمك البحر ليكفيهم؟»[6].

2-«فارتحل من رعمسيس نحو سكوت❖ نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأطفال ومعهم لفيف كثير أيضاً من غنم وأبقار ومواشٍ وافرة جداً»[7].

والرقم 600 ألف رجل رقم مبالغ فيه جداً في الواقع، بل هو رقم خيالي، وقد تعرضت التَّوراة لنقد شديد ولكثير من السُّخرية من معظم الباحثين القدامى والمحدثين بسبب هذا الرقم. ففي القرن الثَّامن عشر نشر الباحث الألماني "رايماروس" مقالاً أكد فيه استحالة الرقم 600 ألف كعدد لبني إسرائيل. وقد وضع تصوراً تقديرياً لعدد الرجال والنِّساء والأطفال والشُّيوخ والفتيان والحيوانات في طابور بني إسرائيل المغادر لمصر مبنياً على الرؤية التَّوراتيَّة، واستنتج أنه لا بد وأنه كان يتكون مما يلي:

1-ثلاثة ملايين من البشر.

2-300 ألف من الثيران والأبقار.

3-600 ألف من الماعز والأغنام.

4-أربعة آلاف عربة لنقل العتاد والمؤن.

5-300 ألف خيمة للسكن، إذا وضع كل عشرة أشخاص في خيمة واحدة.

---

(6) سفر الخروج: الإصحاح الحادي عشر (21 - 22).

❖ مدينة سكوت: هي مدينة "تكو" الموجودة في القدم.

(7) سفر الخروج: الإصحاح الثَّامن عشر (35- 38).

6-سيكون طول طابور بني إسرائيل حوالي 300 كيلومتر، إذا اصطف كل عشرة أشخاص منهم وراء بعضهم البعض.

7-يحتاج بني إسرائيل إلى تسعة أيام لعبور البحر الأحمر إلى الضِّفة الأُخرى.

واستنكر الباحث "رايماروس" العدد التوراتي لبني إسرائيل وأكد عدم مصداقيته واستحالته. أما الباحث باروخ هاليبرن - أستاذ التَّاريخ القديم والدراسات اليهوديَّة بجامعة بنسلفانيا الأمريكيَّة - فلم يرفض فقط رقم 600 ألف، إنما رفض أيضاً رقم 80 ألف الذي اقترحه الكاهن والمؤرخ المصري القديم "مانيثو" الذي عاش في القرن الثَّالث قبل الميلاد. ويقول فرانك بوركو: «إذا كان عدد بني إسرائيل يشمل سلالة يعقوب فقط، فإن رقم 6000 أو حتى 600 سيكون رقماً معقولاً ومقبولاً». ويتفق معظم المؤرخين والباحثين على أن عددهم كان يتراوح بين ثلاثة آلاف وستة آلاف شخص. وهدف اليهود من المبالغة في أعدادهم هو الظهور أمام العالم بمظهر الأمة الكبيرة وسط الشُّعوب القديمة كالفراعنة والآشوريين والبابليين والكنعانيين وغيرهم. ولا يمكن أخذ الرقم التوراتي بعين الاعتبار للأسباب التالية:

1-لا يمكن التوفيق بين رقم 600 ألف وبين السبعين شخصاً الذي قدموا إلى مصر مع يعقوب زمن يوسف عليهما السَّلام، فمن المستحيل علمياً أن يتناسل بنو إسرائيل بهذه السرعة المذهلة ليصلوا إلى هذا الرقم الفلكي خلال 215 عاماً أقامها بنو إسرائيل في مصر بحساب المفكر رحمه الله الهندي، أو حتى 430 عاماً كما تزعم التَّوراة.

2-كان لبني إسرائيل زمن موسى عليه السَّلام قابلتين فقط تقومان بتوليد النِّساء والعناية بالأطفال والأمهات، واحدة اسمها شفرة والأُخرى اسمها فوعة. وهذا العدد من القابلات يكفي للعناية بحوامل قرية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها بضع مئات، وبصعوبة بالغة بضعة آلاف. هذا مع العلم أن الفرعون قد أمر بقتل جميع مواليد بني إسرائيل من الذكور في ذلك الوقت.

3-كان عدد سكان مصر كلها، في ذلك الوقت، يتراوح بين ثلاثة ملايين وأربعة ملايين ونصف المليون نسمة، بما فيهم بني إسرائيل والأقليات الأُخرى.

وخروج ثلاثة مليون إسرائيلي دفعة واحدة من مصر، كان سيؤدي حتماً إلى خلل سكاني خطير يصيب الحياة الزِّراعية والصِّناعيَّة بالشلل التام، ويؤدي إلى توقف المشاريع العمرانيَّة لفترة طويلة من الزمن، ويجعل مصر فريسة سهلة للغزاة الأجانب، وهذا ما لم يحدث على الإطلاق.

4-إن وجود ثلاثة ملايين من بني إسرائيل في مصر كان من الممكن أن يشكلوا منهم جيشاً كبيراً وقوياً يرغم الفرعون على الكف عن اضطهادهم وملاحقتهم، ويجعله يحسب ألف حساب قبل القيام بأي عمل عسكري ضدهم.

5-من غير الممكن أن يستطيع موسى عليه السَّلام أن يسيطر على ثلاثة ملايين من البشر وسط جو من الرعب والخوف المسيطر عليهم أثناء الخروج، وفي ظروف الصحراء القاسية جداً. كما وأنه لا يستطيع تبليغ هذا العدد الضخم تعاليم السماء، بالإضافة إلى صعوبة توفير الطعام وماء الشرب لهم.

6-تعترف التَّوراة، في أكثر من موضع، أنَّ عدد بني إسرائيل كان أقل بكثير من تعداد الشُّعوب المجاورة لمصر وبخاصَّة العرب الكنعانيون سكان فلسطين الأصليين:

أ-«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك: الحثيِّين والجرجاشيِّين والأموريِّين والكنعانيِّين والفرزيِّين والحوريِّين واليبوسيِّين، سبع شعوب أكثر وأعظم منك. ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم، لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم»[8].

ب-«ليس من كونكم أكثر من سائر الشُّعوب التصق بكم الرَّب واختاركم لأنكم أقل من سائر الشُّعوب»[9].

ج-«إن قلت في قلبك هؤلاء الشُّعوب أكثر مني كيف أقدر أن أطردهم»[10].

د-«اسمع يا إسرائيل: أنت اليوم عابر الأردن لكي تدخل وتمتلك شعوباً أكبر وأعظم منك ومدناً عظيمة ومحصنة إلى السماء»[11].

---

[8] سفر التثنية: الإصحاح السَّابع (1- 2).

[9] سفر التثنية: الإصحاح السَّابع (7).

[10] سفر التثنية: الإصحاح السَّابع (17).

[11] سفر التثنية: الإصحاح التَّاسع (1).

هــ-«يطرد الرب جميع هؤلاء الشُّعوب من أمامكم فترثون شعوباً أكبر وأعظم منكم»[12].

7-إن أدقَّ وصف لتعداد بني إسرائيل هو ما جاء في القرآن الكريم على لسان فرعون بوصفه إياهم بأنهم طائفة قليلة (شرذمة)، وكلمة شرذمة لا تُستخدم لوصف عشرات أو مئات الآلاف من البشر، وإنما تستخدم للدلالة على مجموعات صغيرة من الناس. يقول عز من قائل:

{وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون❖ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين❖ إن هؤلاء لشرذمة قليلون❖ وإنهم لنا لغائظون❖ وإنا لجميع حاذرون}[13].

التِّيه الإسرائيليّ والخُروج منه

بعث الله تعالى نبيه موسى عليه السَّلام برسالة من شقين إلى فرعن مصر، الأول: أن يؤمن بالله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، والثَّاني: أن يكفَّ عن إيذاء بني إسرائيل وتعذيبهم ويسمح لهم بالخروج من مصر. ولكي يؤمن فرعون برسالة موسى، أيد الله نبيَّه بمعجزتي العصا التي تتحول إلى حية تسعى، وبيده التي تخرج من جيبه بيضاء دون مرض، وأرسل معه شقيقه هارون ليساعده ويشدَّ من أزره. قابل فرعون رسالة موسى بكثير من اللامبالاة واتهمه بالسِّحر، وجمع له عتاة السَّحرة من جميع أنحاء مصر ليتباروا معه. فلما هزمهم موسى عليه السَّلام أدركوا على الفور أن القُوَّة التي تؤيده هي قُوَّة إلهية وليست سحُرِّيَّة، فآمنوا لتوهم برب موسى وخروا سجداً. وبالرغم من ذلك لم يؤمن فرعون وعاقب السَّحَرَة عقاباً بربرياً، واستمر في اضطهاد بني إسرائيل، فعاقبه الله تعالى وقومه بالسنين ونقص في الثمرات والأموال والأنفس، وعذبهم بالطوفان والجراد والضفادع والقمل والدم. وبالرغم من كل هذه الآيات لم يرتدع فرعون ولم يؤمن، ووصل به الجهل والغرور حداً جنونياً، جعله يدَّعي أنه الرَّب الأعلى

---

[12] سفر التثنية: الإصحاح الحادي عشر (23).

[13] قرآن كريم: سورة الشعراء، الآيات 52- 56.

وصدقه قومه. وفي نهاية المطاف قاد موسى عليه السَّلام بني إسرائيل ليلاً في رحلة الخروج من مصر، وتوجهوا نحو خليج السويس والبحر الأحمر، ولما وصلت إلى مسامع فرعون أنباء خروج موسى وقومه، أمر بتجميع جيوشه، ولحق بهم بعد حوالي أسبوعين، لكي يقضي عليهم ويبيدهم عن بكرة أبيهم. وعندما كان بني إسرائيل على مرمى أنظار فرعون وجنوده، أوحى الله تعالى لموسى أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق البحر، فاتحاً ممراً لعبور بني إسرائيل بسلام للضفة الأُخرى. كان الممر القاتل مغرياً جداً لفرعون وجنوده، فتبعوا بني إسرائيل فيه، فما أن جاوز بنو إسرائيل البحر إلى الضِّفة الأُخرى حتى انطبق البحر على فرعون وجنوده فهلكوا أجمعين.

في صحراء سيناء، توالت الآيات والمعجزات الإلهيَّة على يد موسى عليه السَّلام لبني إسرائيل، فانفجرت لهم اثني عشر عين ماء لشرابهم، وأنزل عليهم المن والسلوى لطعامهم، وساق عليهم الغمام ليظلهم، ونتق الله تعالى الجبل فوقهم علهم يؤمنون. وبالرغم من جميع المعجزات والآيات التي حدثت على مرأى ومسمع من بني إسرائيل قبل خروجهم من مصر، وبعد اجتيازهم البحر إلى سيناء، فلا يبدو أنهم آمنوا بالله تعالى، وما كان خروجهم مع موسى عليه السَّلام إلا فراراً من اضطهاد فرعون لهم وليس إيماناً برسالة موسى. فبعد أن جاوز بنو إسرائيل البحر إلى سيناء والمنظر المروع لغرق فرعون وجنوده لا يزال ماثلاً أمام أعينهم، وصوت صرخات الجنود تصم مسامعهم، طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها من دون الله تعالى، ثم عبدوا العجل الذهبي الذي صنعه السامري في غياب موسى عليه السَّلام، ورفض شيوخهم الإيمان بالله إلا إذا شاهدوه بأعينهم، وتلاعبوا بأوامر الله تعالى ولم يعملوا بها، وأخيراً جبنوا عن دخول الأرض المُقدَّسة التي أمرهم الله أن يدخلوها. فشكا موسى عليه السَّلام أمرهم لله تعالى بقوله:

{قال ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين}[14].

---

[14] قرآن كريم: سورة المائدة، الآية 25.

حكم الله تعالى على بني إسرائيل بالضياع (التيه) في سيناء، ويعتقد العلماء بأن التية فقط هو الذي حدد بأربعين سنة، أما تحريم الأرض المُقدَّسة على بني إسرائيل، فهو تحريم أبدي، بمعنى أن لا يكون لهم استقرار دائم فيها، ولهذا يوقف في القراءة عند قوله تعالى: {محرمة عليهم}.

لم يخرج بنو إسرائيل من التيه في صحراء سيناء بأخلاق وشيم جديدة مغايرة لتلك التي كانوا عليها قبل التيه، ففترة التيه كانت عقاباً إلهياً لهم وليست فترة إصلاح وتهذيب وإعداد جيل قادر على تحمل المسؤولية كما يردد البعض، فتاريخهم اللاحق كله منذ ذلك الوقت وحتى الآن لا يدل على ذلك باستثناء فترات زمنية قصيرة بعث فيهم أنبياء جدد، إذ لم يتحول كفرهم إلى إيمان وطاعة، ولم يتبدل جبنهم إلى شجاعة وإقدام، ولا خستهم ووضاعتهم إلى سمو ورفعة. ومن غير الممكن التسليم بأن بني إسرائيل قد قاموا بأي عمليات قتالية كما تزعم التَّوراة بعد خروجهم منهكين وجوعى من التيه في صحراء سيناء، وذلك لقلة عددهم الذي يجمع المؤرخون على أنه لا يتجاوز السبعة آلاف شخص بين رجل وامرأة وطفل وشيخ. بالإضافة إلى تدني مهاراتهم القتالية أثناء فترة التيه وقلة خبرتهم في القتال، فهم حتى تلك اللحظة لم يقوموا بعملية قتالية واحدة. ومن الجدير بالذكر أن بني إسرائيل فقدوا جميع المهارات التي اكتسبوها في مصر كصناعة الأسلحة من سيوف ورماح وأقواس وسهام، وحتى إنهم فقدوا أبسط المهارات المتعلقة بشريعتهم كالختان مثلاً، فلم يعودوا يقومون بإجراء عملية الختان لأبنائهم، مما جعل الرب يتدخل ويذكر يوشع بن نون بها:

«في ذلك الوقت قال الرب ليشوع: اصنع لنفسك سكاكين من صوان وعد فاختن بني إسرائيل ثانية»[15].

سار بنو إسرائيل نحو الأرض المُقدَّسة بعد خروجهم من التيه وحاولوا دخولها عن طريق بوابتها الجنوبية، فتصدى لهم الملك العربيّ الكنعاني "عراد" وألحق بهم الهزيمة وأجبرهم على تغيير خط سيرهم والاتجاه شرقاً نحو أراضي مملكتي آدوم ومؤاب، وهناك توفي هارون ثم موسى عليهما السَّلام، دون أن تطأ

---

[15] سفر يشوع: الإصحاح الخامس عشر (2).

أقدامهما الأرض المُقدَّسة "فلسطين". وبعد وفاة موسى برز فجأة اسم يوشع بن نون كخليفة له، ونبياً يوحى إليه كما كان يوحى لموسى عليه السَّلام. ويوشع بن نون في الحقيقة لم يكن من سلالة إسرائيليَّة خالصة، إذ تذكر إحدى كتب التفسير في الإجادة اليهوديَّة أنه كان من الأميين الذين اعتنقوا الدِّيانة الموسوية، وأن جدته الكبرى هي أسيناث المصريَّة التي تزوجت يوسف عليه السَّلام، وبنو إسرائيل كانوا ولا يزالون ينسبون الولد لأمه ولا يقبلون بينهم من كانت أمه غير يهوديَّة، ولا يعرف على وجه التأكيد لماذا تبدل اسم يوشع إلى "يشوع". على أي حال أخذ يوشع بن نون يجهز قومه للقيام باقتحام أرض كنعان عسكرياً، ومن البداية يظهر الطابع الخيالي والأسطوري لهذه القصة، فمن السبعة آلاف رجل وامرأة وطفل وشيخ الذين خرجوا من التيه، تمكن يوشع بن نون أن يجهز جيوشاً جرارة التفت حول الحدود الشَّرقية لآدوم ومؤاب، ثم حققت انتصارات ساحقة ومفاجئة على "سيحون" ملك المملكة العمورية الجنوبية وقاموا بقتله وجميع قومه. ثم زحف يوشع بن نون بجيوشه نحو مملكة باشان وقتل ملكها "عوج" وجميع من فيها. كانت الخطوة التالية ليوشع بن نون باتجاه مدينة أريحا الفلسطينيّة، فبعد أن عرف يوشع بن نون أسرار مدينة أريحا عن طريق العاهرة "راحاب"، زحف بجيشه نحو المدينة. وفي محاولة لاستنساخ معجزة انفلاق البحر لموسى عليه السَّلام، تذكر التَّوراة أن مياه نهر الأردن تجمدت تحت أقدام بني إسرائيل ليمروا بسهولة لضفته الأُخرى، وتوقفت الشمس في كبد السماء ذلك اليوم ولم تغب كعادتها الأبدية حتى يكمل بنو إسرائيل احتلال المدينة!! وعندما وصل يوشع بن نون وقومه إلى أسوار مدينة أريحا وجدوا بواباتها مغلقة أمامهم، فطافوا حول أسوارها سبعة أشواط وتابوت العهد أمامهم والكهنة ينفحون بالأبواق، وفي نهاية الشوط السَّابع صاح بنو إسرائيل صيحة عظيمة فانهارت أسوار أريحا الهائلة ودخلها بنو إسرائيل، وقاموا بإحراقها وتدميرها، وقتل جميع من فيها، عدا العاهرة راحاب وأهلها، كما أوصاهم يوشع بن نون بقوله:

«وحرموا كل ما في المدينة "أريحا" من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والحمير بحد السيف. وقال يشوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض: ادخلا بيت الزانية واخرجا من هناك المرأة وكل مالها كما حلفنا لها. فدخل الغلامان

الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وأخوتها وكل مالها، وأخرجا كل عشائرها وتركاهم خارج محلة إسرائيل، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها»[16].

بعد احتلال مدينة أريحا، زحف يوشع بن نون نحو مدينة "عاي" الواقعة عل بعد كيلومترات قليلة غربي مدينة أريحا، وفي البداية تكبد بنو إسرائيل خسائر فادحة، فأهال شيوخهم التراب فوق رؤوسهم، ومزق يوشع بن نون ثيابه، وسقط على الأرض، وتمرغ في التراب، وخاطب الرب قائلاً كما جاء في الإصحاحين السَّابع والثَّامن من سفر يوشع: «لماذا أجزيت هذا الشَّعب الأردن لتسلمنا إلى أيدي الأموريين؟ يا ليتنا ارتضينا وأقمنا بعبر الأردن. وإذا سمع الكنعانيون وسكان الأرض بما صار، أحاطوا بنا ومحوا اسمنا من الأرض». وبالرغم من ذلك، تمكن يوشع بن نون من تجهيز جيش قوامه ثلاثون ألف رجل!! وهاجم مدينة عاي ثانية وأحرقها ثم دمرها وقتل اثني عشر ألفاً من سكانها. وهكذا فعل يوشع بمدن الجلجال وحاصور وجبعون وغيرها من المدن الفلسطينيّة. إلا أن مصداقية الرواية التَّوراتيَّة، عن غزو يوشع بن نون لأرض كنعان، تهاوت أمام سيل جارف من الاكتشافات الأثريَّة، فقد أثبتت عالمة الآثار كاثلين كينون أن مدينة أريحا كانت مهجورة في الزمن المفترض لهجوم يوشع المزعوم عليها، بل ولم تكن محاطة بالأسوار في ذلك الزمن؛ حيث إنها دمرت قبل مئات السنين. أما مدينة عاي فلم تكن موجودة في ذلك التَّاريخ لأنها دُمِّرت في القرن الرَّابع والعشرين قبل الميلاد، ولم تبنَ مرة أُخرى حتى ذلك الوقت. وخلاصة ما توصل إليه علماء الآثار هو أنه لم يحدث غزو إسرائيلي لفلسطين زمن يوشع بن نون ولا في أي زمن آخر، وإنما دخل اليهود إليها عن طريق التسلل التدريجي على مدى فترة زمنية لا تقل عن قرن من الزمن، وأقاموا في المناطق المهجورة غربي نهر الأردن. ولا يوافق معظم العلماء على ما جاء في سفر يشوع بشأن غزوه العسكريّ لفلسطين، ويعتبرونه عملاً أدبياً لا قيمة له.

---

[16] سفر يشوع: الإصحاح السَّادس (21 – 24).

ثانياً: مدينة القُدس تحت حكم اليهود

اعتمد معظم المؤرخين والباحثين العرب والأجانب على رؤية العهد القديم في سرد أحداث التَّاريخ اليهودي القديم في فلسطين بالرغم من كذبها وعدم مصداقيتها كما أثبت علماء الآثار خلال القرنين التَّاسع عشر والعشرين. فخلال القرن الثَّاني عشر قبل الميلاد تمكن بنو إسرائيل من التسلل التدريجي إلى أرض كنعان وأقاموا في منطقة التلال الدَّاخليَّة غربي نهر الأردن، وكنوع من المجاملة لشعب الله المختار قسم المؤرخون التَّاريخ اليهودي القديم في فلسطين إلى ثلاث مراحل أو عصور: الأول هو عصر القضاة، والثَّاني هو عصر الملوك أو عصر الدَّولة اليهوديَّة، أما الثَّالث فهو عصر انقسام الدَّولة اليهوديَّة ثم زوالها. بعد موت يوشع بن نون حوالي عام 1130 قبل الميلاد، تولى قيادة بني إسرائيل أناس كانوا بمثابة القضاة والأنبياء معاً، عرفت هذه الفترة من تاريخ بني إسرائيل في فلسطين باسم عصر القضاة. بلغ عدد القضاة أربعة عشر قاضياً أولهم القاضي عتنائيل وآخرهم القاضي صموئيل، وكانوا أحياناً من النِّساء مثل القاضية "ببورة". استمر عهد القضاة حوالي قرن من الزمن - أي حتى عام 1020 قبل الميلاد - وليس أربعة قرون كما تزعم التَّوراة[17]. وفي عصر القضاة اختلط اليهود بالكنعانيين وتزاوجوا معهم، واكتسبوا لغتهم وتكلموا بها، واقتبسوا الكثير من عاداتهم وتقاليدهم، وعبدوا أيضاً آلهتهم مثل بعل وعشتار "بعليم وعشتروت". تميز عصر القضاة بالانقسامات الدَّاخليَّة بين بني إسرائيل. وبالعودة إلى الوثنية والهمجية التي طبعوا بها. وأثناء عصر القضاة لم يعرف اليهود طعم الاستقرار في فلسطين، فقد ظلوا دائماً عرضة للغارات المُسلَّحة للكنعانيين والمدينيين والآراميين والمؤابيين، ولحروب مستمرة مع الفلسطينيّين. وعندما شاخ القاضي صموئيل آخر قضاتهم، خلفة اثنان من أبنائه ولكنهما فجرا وفسقا وساد الفساد والرشوة على طابع حكمهما، فتذمر شيوخ بني إسرائيل واتفقوا على الذهاب لمقابلة القاضي صموئيل حيث يقيم في بلدة "الرامة"، وشكوا إليه ظلم أولاده وطلبوا منه أن يجعل عليهم ملكاً يحكمهم ويدبر شؤونم مثل بقية الشُّعوب. اختار

---

[17] محمد عزة دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم.

القاضي صموئيل شاباً حسناً من بني إسرائيل هو شاؤول بن قيس وقام بتصيبه ملكاً في بلدة الجلجال الواقعة للشمال الشَّرقي من مدينة القُدس، وبذلك بدأ عصر الدَّولة اليهوديَّة في فلسطين أو عصر الملوك. كانت الظروف المحلية والإقليميَّة مواتية جداً لشاؤول بن قيس (1020 - 1000 قبل الميلاد)، لكي يعلن عن قيام دولته دون تدخل أحد من القوى المعادية، فالتناحر والنزاع والفرقة كانت على أشدها بين الإمارات والممالك الكنعانيَّة، وانحسر النفوذ الآشوري والحثي في بلاد الشَّام، وباشر شاؤول بن قيس عمله بتعيين ابنه يوناثان ولياً للعهد، واستعان بداود عليه السَّلام كمستشار عسكري في البلاد الملكي، وبالرغم من أن داود كان متزوجاً من ميخال بنت شاؤول، وصديقاً حميماً ليوناثان ولي عهد شاؤول، إلا أن داود كان مصدر قلق بالغ لشاؤول بسبب الانتصارات العسكريّة التي حققها وخشي منه على كرسي العرش. فقرر شاؤول التخلص من داود عليه السَّلام وأصدر فعلاً أمراً بإعدامه، ولكن ميخال بنت شاؤول زوجة داود أخبرته بما يخطط له والدها، فتمكن داود من الفرار واللجوء إلى أراضي الملك الفلسطينيّ أخيش ملك جت "عراق المنشية" وبقي هناك سنة وأربعة أشهر. لم يتمكَّن الملك شاؤول من بسط سيطرته على منطقة التلال الدَّاخليَّة غربي نهر الأردن، وتميزت فترة حكمه بازدياد الانقسامات الدَّاخليَّة والتناحر والنزاع بين بني إسرائيل، وبالهزائم العسكريّة المتتالية. وفي معركة جبل جبوع "جبل فقوعة" مع الفلسطينيّين مات شاؤول مُنتحراً وقُتل حامل سلاحه وثلاثة من أبنائه وأعداد كبيرة من جنوده، فلما رأى اليهود ما حدث لشاؤول وجيشه قاموا بترك المدن والقرى التي يقيمون فيها، فجاء الفلسطينيّون وسكنوا تلك المدن والقرى.

بعد انتحار شاؤول في معركة جبل جلبوع بدا الخلاف والانقسام واضحاً داخل المملكة اليهوديَّة، فقد بايعت أسباط بني إسرائيل الشَّمالية الابن الرَّابع لشاؤول المدعو أشبوشت ملكاً عليها بمؤازرة قائد جيش شاؤول "أبنير" واتخذ أشبوشت من بلدة محانيم عاصمة له. بينما بايعت الأسباط الجنوبيَّة داود عليه السَّلام ملكاً عليها، وجعل من مدينة الخليل "حبرون" عاصمة لمملكته. استمرت الحروب بين المملكتين لمدة طويلة، ولم تتوقف إلا بموت أشبوشت بن شاؤول. وبهذه النهاية بويع داود عليه السَّلام ملكاً على عموم بني إسرائيل في فلسطين.

ولأول مرة في تاريخ بني إسرائيل تمكن اليهود من دخول مدينة القُدس في عهد داود عليه السَّلام. فقد جهز داود جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل وقام بمهاجمة مدينة القُدس، ولكنَّه لم يتمكَّن من احتلالها نظراً للمقاومة العنيفة من سكانها العرب اليبوسيين، وأخيراً لجأ داود إلى الحيلة لاحتلال المدينة، فحاصر عين جيحون "أم الدرج" واحتلها. ثم تسلل جنوده عبر النفق الذي يصل عين جيحون بقلب المدينة. لم يتمكَّن داود ولا ابنه سليمان عليهما السَّلام من صبغ مدينة القُدس بصبغة إسرائيليَّة خالصة، فقد ظلت تحتفظ بطابعها العربيّ الكنعاني، ولم يتمكَّن كتبة التَّوراة إخفاء عروبة القُدس ولا حقيقة أنها لم تكن يوماً مدينة يهوديَّة خالصة تحت السَّيطرة الإسرائيليَّة المُطلقة. والنُّصوص التَّوراتيَّة كثيرة وواضحة بهذا الشَّأن:

1-أما اليبوسيون سكان أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم. فأقام اليبوسيون مع بني يوذا في أورشليم حتى اليوم»[18].

2-«فأما اليبوسيُّون المقيمون بأورشليم فلم يطردهم بنو بنيامين، فأقام اليبوسيُّون مع بني بنيامين إلى هذا اليوم»[19].

3-«فلم يرضَ الرجل أن يبيت، بل قام وانصرف، حتى انتهى إلى يبوس، التي هي أورشليم، ومعه حماران موقران وسرِّيته. وفيما هو عند يبوس، وقد مال النهار جداً، قال الغلام: مِلْ بنا إلى مدينة اليبوسيِّين هذه فنبيت فيها»[20].

4-«وسار داود، وجميع إسرائيل، إلى أورشليم التي هي يبوس؛ حيثُ كان اليبوسيُّون سُكَّان الأرض، فقال سُكَّان يبوس لداود: إنَّك لا تدخل إلى ها هنا. فأخذ داود حصن صُهيون، وهو مدينة داود»[21].

5-«كانت إليَّ كلمة الرَّب قائلاً: يا ابن البشر أخبر أورشاليم بأرجاسها، وقل هكذا قال السَّيِّد الرَّب لأورشاليم: معدنك ومولدك من أرض الكنعانيِّين وأبوك أموري وأمك حثيَّة»[22].

---

(18) سفر يشوع: الإصحاح الخامس عشر (13).

(19) سفر القضاة: الإصحاح الأول (21).

(20) سفر القضاة: الإصحاح التَّاسع عشر (10- 11).

(21) سفر أخبار الأيام الأول: الإصحاح الحادي عشر (4 -5).

نقل داود عليه السَّلام مقره إلى مدينة القُدس وجعلها عاصمته السِّياسيَّة والعسكريّة والدِّينيَّة، وذلك بسبب موقعها الحصين في سلسلة الجبال الوسطى لفلسطين، وعدم تبعيتها لأي من أسباط بني إسرائيل، فلم يظهر داود بصورة الملك القبلي المتعصب لقبيلة يهوذا، التي ينتمي إليها، وقد عُرفت مدينة القُدس باسم مدينة داود لفترة قصيرة من الزمن بعد الاحتلال الإسرائيلي لها. ولكن الدكتور توماس تومسون[23] يرى أن نظريَّة قيام دولة يهوديَّة موحَّدة عاصمتها القُدس في فلسطين، قد تهاوتْ وسقطتْ للأسباب التَّالية:

1-إن وجود مملكة إسرائيل في الشَّمال ومملكة يهوذا في الجنوب، في ذلك التَّاريخ المبكر جداً من عمر الدَّولة اليهوديَّة، لا تؤيِّده المعلومات المتوفِّرة عن فلسطين في تلك الفترة.

2-لم تكن مملكة يهوذا قد استقرت سكانياً خلال القرن التَّاسع قبل الميلاد.

3-لم يكن لليهود قاعدة سياسيَّة واقتصاديَّة في فلسطين.

4-لم تكن مدينة القُدس مؤهلة سُكَّانيَّاً وعُمرانيَّاً لتكون عاصمة موحدة، وقد ظلَّ هذا حالها حتى القرن الثَّامن قبل الميلاد، عندما كانت فلسطين تابعة للحُكم الآشوري. وبعد ذلك التَّاريخ أخذت مدينة القُدس في الاتساع بسبب الانفجار السُّكاني داخلها وليس لأي سبب آخر.

وتُحاول التَّوراة إظهار مملكة داود بمظهر الدَّولة العظمى، التي تمتدُّ من النِّيل إلى الفرات، وذات قُوَّة ونفوذ عالمي أسطوري. والحقيقة أن الملك داود حتى في أوج ملكه وسلطانه، كان ملكاً صغيراً لمملكة صغيرة، لا تزيد عن دويلات المدن الكنعانيَّة في فلسطين. يقول يسرائيل فنكلشتاين: «إن داود فقد كان مجرد حاكم عسكري قبلي وضابطاً عسكرياً ممتازاً». أما من النَّاحية الدِّينيَّة فقد كان داود عليه السَّلام نبياً عظيماً بعثه الله تعالى لهداية بني إسرائيل، شأنه شأن جميع أنبياء العهد القديم، والدِّيانة اليهوديَّة ديانة قبليَّة غير تبشيريَّة خاصَّة ببني

---

[22] سفر حزقيال: الإصحاح التَّاسع عشر (1- 3).

[23] د. توماس تومسون: التَّاريخ المبكر للشعب الإسرائيلي.

إسرائيل، ولم يكن داود عليه السَّلام بحاجة لخوض الحروب وفتح الممالك ليبشر بدينه. وعهد داود تميز باليسر والرخاء بشكل عام، ولكن هذا لم يمنع عوامل الانهيار أن تظهر في وقت مبكر داخل مملكته. وأبرز مثال على ذلك الانهيار هو الثَّورة المُسلَّحة التي قادها ضده ابنه "أبشالوم" وكانت من القُوَّة بحيثُ أن داود عليه السَّلام اضطرَّ للفرار واللُّجوء إلى أراضي الأمير العربيّ العموني "شوبي" في شرقي الأردن الذي قدم له الحماية والمساعدة.

بعد وفاة داود عليه السَّلام تولى ابنه سليمان الملك في بني إسرائيل (961 - 922 قبل الميلاد). جمع سليمان عليه السَّلام بين الملك والنُّبوَّة أيضاً، و سار على خطى والده في العدل والحُكْمة، وحسب الرواية التَّوراتيَّة فإن سليمان استهل حكمه بقتل أخيه أدونيا لمنافسته له على الحُكْم، وقتل أيضاً يؤاب قائد جيوش داود، وعزل أبيانار الكاهن الأعظم في عهد والده، وحاول سليمان أن يوطِّد علاقته بالممالك المجاورة، فتزوج ابنة فرعون سي آمون (970 - 950 قبل الميلاد) آخر فراعنة الأسرة الحادية والعشرين. وأقام علاقات طيبة مع بلقيس مملكة سبأ العربيَّة، وأيضاً مع المملكة الفينيقية. كان سليمان مغرماً بالنِّساء كما تذكر التَّوراة ويملك منهن ألف امرأة - سبعمائة زوجة مدفوع مهورهن، وثلاثمائة جارية!!- وقد أثرت النِّساء إلى حد كبير في سليمان فأدخل طقوساً وثنية لديانته لإرضاء زوجاته الوثنيات، كما أنه أرهق شعبه بالضَّرائب الفادحة من أجل تنفيذ مشاريعه الضخمة وفي مقدمتها القصور الملكية والمعبد المركزي "هيكل سليمان". وفكرة الهيكل في الميثولوجيا اليهوديَّة هي فكرة و ثنية تتلخص في بناء مكان في مدينة القُدس لكي يقيم فيه الرب عندما ينزل إلى الأرض من السموات العلى. ومن الغريب أن ينسب كتبة التَّوراة هذه الفكرة لداود عليه السَّلام، ويزعمون أنه صاحبها، وهو الذي أشرف على رسم خرائط الهيكل الهندسية، وقام بجمع الأموال والذهب والفضة اللازمة، وخزن مواد البناء والأخشاب ومعدات البناء. ولكن النبي ناثان نصح داود بالتريث وتأجيل مشروع بناء الهيكل حتى يتم تنفيذه في عهد ابنه سليمان. وقد اختلف المؤرخون في السبب الحقيقي الذي دفع داود للتفكير في بناء الهيكل المزعوم، ففريق يرجعه إلى رغبة داود في إرضاء شعبه، بعد أن ضربهم الرب بوباء الطاعون، نتيجة كفرهم وطغيانهم، بينما

يرى فريق آخر أن داود كان يريد تقليد اليبوسيين العرب سكان مدينة القُدس في إقامة معابدهم فوق قمم الجبال، ويرى فريق ثالث أن داود كان يريد أن يبني معبداً في القُدس لكي يضع فيها تابوت العهد* بصفتها مدينة محايدة ولا تتبع لأحد من قبائل بني إسرائيل. ولكن هذه الرغبة لم تنل موافقة الكهنة والأحبار الذين كانوا يرون أن تابوت العهد يجب أن لا يوضع في مكان ثابت. ومن الجدير بالذكر أن الطائفة السَّامريَّة اليهوديَّة تعتقد أن الرب قد أمر داود ببناء الهيكل فوق قمة جبل جرزيم بمدينة شكيم (نابلس)، ولكن داود خالف أوامر الرب وخطط لبنائه في مدينة القُدس. لم يباشر ببناء الهيكل إلا في السنة الرَّابعة لحكم سليمان بمساعدة الملك حيرام ملك مدينة صور الفينيقية ولكن ليس لدى علماء الآثار أي دليل كتابي أو أركيولوجي يؤكد وجود ملك على مدينة صور اسمه حيرام خلال القرن العاشر قبل الميلاد[24].

والحقيقة أن اليهود في عهد داود وسليمان كانوا لا يزالون همجاً من أشباه البشر على درجة عالية من التخلف الثقافي والحضاري والاجتماعي والمهني، وكانوا أيضاً أشباه عراة يسترون أجسادهم وعوراتهم بجلود الحيوانات. إن شعباً هذه هي صفاته لعاجز تماماً عن إدارة شؤون دولة من أي نوع. أما عوامل الازدهار والرخاء في دولة داود وسليمان عليهم السَّلام فترجع إلى سياستهما الحكيمة العادلة والغير عنصريَّة، إذ إن هذه الدَّولة كانت دولة متعددة القوميات والأعراق والأديان ساهمت الشُّعوب الأُخرى وبخاصَّة العرب الكنعانيون في إدارة وتدبير شؤونها.

بعد وفاة سليمان عليه السَّلام في حدود عام 922 قبل الميلاد، اجتمع شيوخ بني إسرائيل في مدينة شكيم "نابلس" لمبايعة رحبعام بن سليمان ملكاً لبني إسرائيل وهو في السَّادسة عشرة من عمره، وقبل مبايعته ملكاً عليهم قالوا له:

---

* تابوت العهد: ويسمى أيضاً تابوت الشهادة، وهو عبارة عن صندوق من الخشب طوله ذراعان ونصف الذراع وعرضه ذراع واحد ونصف الذراع. وهو مغطى بالذهب الخالص من الداخل والخارج. وكان اليهود يضعون ألواح التَّوراة في التابوت ويحملونه أمامهم حيثما ذهبوا.

[24] فراس السواح: آرام دمشق وإسرائيل.

«إن أباك ثقل نيرنا ،أما أنت فخفف نيرنا . فأجابهم: أبي حملكم نيراً ثقيلاً وأنا أزيد من نيركم. أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب»[25].

لم يَرُقْ هذا الردُّ القاسي لبني إسرائيل، وثاروا على رحبعام بن سليمان، وقاموا بقتل المفوض الملكي "أدورام"، فسارع رحبعام بركوب عربته والفرار باتجاه مدينة القُدس؛ حيثُ بايعه هناك سبطي يهوذا وبنيامين ملكاً عليها، بينما امتنعت الأسباط العشرة الشَّمالية عن مبايعته، ونادت بشخص آخر هو يربعام بن ناباط ملكاً عليها. بذلك بدأ عصر الانقسام وانشطرت الدَّولة اليهوديَّة إلى مملكتين: الأولى شماليَّة باسم إسرائيل، جلس على عرشها يربعام بن ناباط الأول، والثَّانية جنوبيَّة أطلق عليها اسم يهوذا، ونُصِّب رحبعام بن سليمان ملكاً عليها. كان يربعام الأول قائداً للحرس الملكي في بلاط سليمان، وقد ظهرت لديه الروح الانفصالية في وقت مبكر، ولما علم سليمان عليه السَّلام بأمره قرر معاقبته ولكنه تمكن من الفرار إلى مصر وبقي فيها لحين وفاة سليمان. اتخذ رحبعام ملك يهوذا من مدينة القُدس عاصمة له، أما يربعام الأول ملك إسرائيل فجعل من مدينة شكيم "نابلس" عاصمة لمملكته، ولكنه اضطر لدواعي أمنية نقلها إلى بلدة فينوئيل شرقي الأردن ثم إلى بلدة ترصة الواقعة إلى الشَّمال من مدينة شكيم "نابلس". ولقد طغت مظاهر الفوضى والهمجية على المملكتين اليهوديتين، وسادت فيهما الوثنيَّة والفساد والفجور وبخاصَّة في المملكة الشَّماليَّة، واستمرت بينهما الحروب لفترة طويلة. ومن الغريب أن الدَّولة اليهوديَّة الموحدة المضخمة توراتياً بشكل هائل لم تخلف أي مدونات أو وثائق ولا آثار تدل عليها. فخارج العهد القديم لا يوجد أي ذكر لمملكة داود وسليمان الموحدة في أي مصدر آخر، وقد فشل علماء الآثار في العثور على أي أثر أركيولوجي لهيكل سليمان المزعوم في الموقع الذي حددته التَّوراة في القُدس، ولا يوجد ذكر للدولة اليهوديَّة الموحدة في مصادر الشُّعوب القديمة المجاورة لفلسطين. وهذه ليست محاولة لإلغاء التَّاريخ اليهودي في القُدس وفلسطين. فَخُلُوُّ تاريخ الشُّعوب من المدوَّنات والوثائق، وافتقاره إلى الآثار لا يلغيه على الإطلاق، وإنما يضعه في حجمه الحقيقي

---

[25] سفر الملوك الأول: الإصحاح الثَّاني عشر (10- 11).

تاريخيَّاً وحضاريَّاً واجتماعيَّاً، ويدلُّ على عمره الزَّمني القصير، الذي لم يخلف أي أثر أركيولوجي على الأرض، ولا لمحة أو إشارة عابرة في ذاكرة الشُّعوب القديمة المجاورة لفلسطين.

يقول الدكتور توماس تومسون[27]: «إن قصة الغزو اليهودي لفلسطين، قد أثبتت عدم صحتها، وإن دراسة أصول السُّكَّان والمستوطنات، تؤكد أن السُّكَّان الأصليين لفلسطين لم يتغيروا منذ العصر الحجري وخلال فترة القرن السَّادس إلى القرن الرَّابع قبل الميلاد». وتؤكد دراسات أُخرى أن دولة اليهود الأولى في فلسطين لم تزد عن كونها مجموعة من المستوطنات الصغيرة من السُّكَّان الأصليين.

---

[27] د. توماس تومسون: التَّاريخ المبكر للشعوب الإسرائيلية.

الفصل الثَّالث

القُدس خلال الألفيَّة الأولى قبل الميلاد

شهد مطلع الألفيَّة الأولى قبل الميلاد زوال المملكة اليهوديَّة الموحدة في فلسطين، فبوفاة سليمان عليه السَّلام زالت في لمح البصر الإمبراطوريَّة اليهوديَّة الوهميَّة، واختفت كالبرق هياكلها وقصورها وحصونها وقلاعها، وتلاشت كالسَّراب جيوشها وأساطيلها، وأصبحت أثراً بعد عين، وعاد اليهود كما كانوا دائماً جماعات من الهمج البرابرة الوثنيين، ولم تعد التَّوراة تقص سوى أحداث القتال الدامي بين إسرائيل ويهوذا. وفي محاولة ذكيَّة لإطالة عمر الاستيطان اليهودي في فلسطين بالطَّريقة التي توهم القارئ للتَّوراة أن لليهود تاريخاً طويلاً في فلسطين العربيَّة، لجأ كَتَبَةُ التَّوراة إلى الاستفاضة في تاريخ المملكتين اليهوديتين الزائلتين والحديث عن الملوك التسعة عشر الذين تناوبوا على عرش المملكتين، مُستغلين خُلُوِّ مدوَّنات ووثائق الشُّعوب المجاورة لفلسطين من أي ذكر للمملكة اليهوديَّة إلا فيما ندر.

لم تكن الألفيَّة الأولى قبل الميلاد بأحسن حالاً من سابقتها، فقد تعرضت فلسطين للغزو العسكريّ والاحتلال الأجنبي عدة مرات. فقد احتلها على التوالي المصريون القدماء والآراميُّون والآشوريُّون والبابليُّون والفرس ثم اليونانيّون والرومان. وبعد الاحتلال المصري والآشوري والبابلي خلت مدينة القُدس وفلسطين كلها تقريباً من اليهود، ولكنهم عادوا إليها في العهد الفارسي وظلوا أقلية في فلسطين حتى طردهم الرُّومان مرة ثانية بعد احتلالهم لفلسطين.

3-1: القُدس تحت حُكم الفراعنة مرَّة ثانية

من الأسباب الإقليميَّة الرئيسيَّة التي أتاحت لشاؤول بن قيس فرصة الإعلان عن دولته في فلسطين دون تدخل القوى الخارجيَّة المناوئة، هو انحسار النفوذ الآشوري والحثي في بلاد الشَّام، وفقد الدَّولة المصريَّة لدورها الإقليمي نتيجة الضُّعف الذي أصابها من جراء سيطرة الكهنة على زمام الأمور فيها. وقد ظل هذا حالها إلى أن تولى حكمها الفرعون شيشنق الأول الذي تسميه التَّوراة "شيشق"[1]. كان شيشنق الأول فرعوناً شجاعاً وقوياً وحازماً، تمكن في فترة وجيزة الخروج بمصر من كبوتها المؤقتة وأعاد إليها قوتها وهيبتها، وكان يرنو إلى استرجاع أمجادها وهمينتها الإقليميَّة التي بلغت الذروة أثناء حكم الفرعون تحتموس الثَّالث. كانت فلسطين تشكل لشيشنق الأول أهميَّة بالغة لأنها هي محطته الأولى في سبيل تحقيق تطلعاته التوسعية الإقليميَّة، فانتهز فرصة الضُّعف الذي حلَّ بالملكتين اليهوديتين، وقام باجتياح فلسطين في السنة الخامسة لحكم رحبعام بن سليمان، وعسكر بجيشه المكوَّن من قوات مصريَّة وعربيَّة وليبيَّة في مدينة غزة. توجه قسم من الجيش المصري لاحتلال جنوب فلسطين، ثم توجهت القوات الرئيسية بقيادة شيشنق الأول نفسه نحو مملكة يهوذا ودمرت تحصيناتها ودفاعاتها واستولت على مدنها المحصنة. وعند وصول شيشنق الأول إلى مدينة القُدس، قرر رحبعام بن سليمان الاستسلام لشيشنق الأول وتسليمه المدينة دون قتال منعاً لإراقة المزيد من الدماء، أعلن رحبعام بن سليمان ولاءه للحاكم الجديد ودفع لشيشنق الأول جزية كبيرة، وقدم له جميع كنوز سليمان وهيكله:

«في السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشنق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك. وأخذ أتراس الذهب التي عملها سليمان»[2].

---

[1] الفرعون شيشنق الأول: مؤسس الأسرة الفرعونية الثَّانية والعشرون. وهو لم يكن مصرياً وإنما ليبي الأصل.

[2] سفر الملوك الأول: الإصحاح الرَّابع عشر (25- 26).

بعد أن سيطر شيشنق الأول على مملكة يهوذا واستتبت له الأحوال في مدينة القُدس، واصل زحفه شمالاً نحو مملكة إسرائيل واحتل مدينة شكيم "نابلس"، ثم توجه إلى ترصة عاصمة إسرائيل. فاضطر ملك إسرائيل يربعام الأول للفرار إلى مدينة فينوئيل ثم بلدة محانيم شرقي الأردن. احتل شيشنق الأول العاصمة الإسرائيليَّة "ترصة" وجعل منها قاعدة أمامية لقواته، ثم أرسل قسماً من قواته لاحتلال شمال فلسطين، وقسماً آخر اجتاز نهر الأردن واتجه شرقاً لمطاردة يربعام الأول وقواته في مدينتي فينوئيل ومحانيم، لم يتمكَّن يربعام الأول من الصمود طويلاً أمام الجيش المصري فاستسلم له وأعلن ولاءه لشيشنق الأول. وبذلك استولى الجيش المصري على جميع الأراضي الفلسطينيّة (أنظر خارطة رقم 2). وأثناء الاجتياح المصري لفلسطين فر من فر من اليهود إلى الدول المجاورة، وقتل من قتل، ونقلت أعداد كبيرة منهم كأسرى إلى مصر. وبالاحتلال المصري لفلسطين، قضى شيشنق الأول على الوجود السياسي اليهودي فيها، وبعثر الكيان السُّكَّاني والاجتماعي اليهودي في جميع أنحاء فلسطين. وعندما عاد شيشنق الأول إلى مصر، قام بتخليد انتصاراته على اليهود في فلسطين، على الجدار الجنوبي لمعبد آمون في مدينة الكرنك المصريَّة، فقد نُقشت على هذا الجدار أسماءُ المدن الفلسطينيّة التي دمرها شيشنق الأول، ما عدا مدينة القُدس، لأنها احتُلَّت دون قتال. ويعتقد بعض المؤرخين أن شيشنق الأول قد قام بغزو فلسطين في أواخر أيام سليمان عليه السَّلام، وأسر أعداداً كبيرة من اليهود، وساقهم عبيداً إلى مصر. ولا يوجد في التَّوراة ما يتعارض مع هذه النظريَّة، بل يوجد ما يؤكدها ويثبت صحتها. ففي سفر الملوك الأول، توجد نصوص شاكية باكية متضرعة، تثبت تعرض اليهود للسبي والأسر المصري في عهد سليمان، قبل الأسر الآشوري البابلي بوقت طويل:

«إذا خرج شعبك لمحاربة عدوه في الطَّريق الذي ترسلهم فيه وصلُّوا إلى الرب نحو المدينة التي اخترتها والبيت الذي بنيته لاسمك (هيكل سليمان)، فاسمع من السماء صلاتهم وتضرعهم، واقض قضاءهم إذا أخطأوا إليك. لأن ليس الإنسان لا يخطئ. وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو وسباهم. فإذا ردوا إلى قلوبهم في الأرض التي يسبون ورجعوا وتضرعوا في أرض سبيهم قائلين: قد

أخطأنا وأذنبنا، ورجعا إليك من كل قلوبهم ومن كل أنفسهم في أرض أعدائهم الذين سبوهم، وصلّوا إليك نحو أرضهم التي أعطيت لآبائهم نحو المدينة التي اخترت والبيت الذي بنيت لاسمك، فاسمع في السماء مكان سكناك صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم واغفر لشعبك ما أخطأ به إليك وجميع ذنوبهم التي أذنبوا بها إليك واعطهم رحمة أمام الذين سبوهم فيرحموهم»[3].

وبعد الاحتلال المصري لفلسطين أصبحت مدينة القُدس تابعة لحكم شيشنق الأول، وتدفع الجزية له حالها كحال المدن الفلسطينيّة الأُخرى.

---

[3] سفر الملوك الأول: الإصحاح الثّامن (40- 50).

2-3: القُدس تحت حُكم الآراميِّين

كان الآراميُّون في سورية من ألدّ الأعداء ليهود فلسطين، وقد استمرَّت الحروب بينهم فترة طويلة من الزمن، وهدد الملك الآرامي "بنهدد الأول" ملك دمشق وجود الدَّولة اليهوديَّة معظم أيام داود وطيلة عهد سليمان. وكان ملوك آرام يتحينون الفرص لغزو فلسطين لتصفية حساباتهم مع يهودها، ولكن الاحتلال المصري لفلسطين جعلهم يؤجلون خططهم لحين هدوء الأحوال فيها، فما أن أصبحت الظروف مواتية للآراميين حتى قام الملك الآرامي "حزائيل بن بنهدد" باجتياح فلسطين ووصل بجيشه إلى مدينة جت "عراق المنشية" في الجنوب الفلسطينيّ. وقد سيطر الآراميُّون على مدينة القُدس وجعلوها تحت حكمهم المباشر.

3-3: القُدس تحت حُكم الآشوريِّين

في هجرة ساميَّة كبيرة، وصلت بعض القبائل العربيَّة إلى وادي الرافدين، قادمة من شبه الجزيرة العربيَّة، وعاشوا جنباً إلى جنب مع السُّومريِّين سكان وادي الرافدين. ومع مرور الوقت تمكن العرب التغلب عرقياً ولغوياً ودينياً على السُّومريِّين، وبذلك بدأ تاريخ الأكاديِّين الذين عرفوا فيما بعد باسم الآشوريِّين والبابليِّين. بدأ العرب في إنشاء مدنهم الخاصَّة في وادي الرافدين كان أولها مدينة "مات شوميريم" أي بلاد السُّومريِّين. تميزت الحالة السِّياسيَّة في وادي الرافدين حينئذ بقيام الكثير من دويلات المدن، واستمر هذا حالها إلى أن جاء الملك سرجون الأول وتمكن عام 2350 قبل الميلاد من توحيد هذه الدويلات في مملكة واحدة. ظهرت آشور كقُوَّة عظمى في عهد الملك تغلات بلاسر الأول (1115- 1077 قبل الميلاد). تمكن تغلات بلاسر الأول من احتلال جميع بلاد الشَّام وضمها لإمبراطوريته. وبعد وفاة تغلات بلاسر الأول انشغل الآشوريُّون في تأمين حدود مملكتهم في وادي الرافدين، وانحسر نفوذهم في بلاد الشَّام، مما كان له أثر كبير في تمكن شاؤول بن قيس إعلان قيام الدَّولة اليهوديَّة الأولى في فلسطين عام 1020 قبل الميلاد. ولكن آشور نهضت من كبوتها في عهد الملك تغلات بلاسر الثَّالث (745 - 727 قبل الميلاد) الذي أعاد احتلال بلاد الشَّام، وفي عهد خليفته سلمانصر الخامس (727 - 722 قبل الميلاد) بدأت سورية في التحرك ضد الآشوريين، فانتهز هوشع بن آيلة - آخر ملوك مملكة إسرائيل - الفرصة وحاول التَّحالف مع الفرعون المصري "سبي" لكي يتخلص من الهيمنة الآشورية. وإزاء هذا الموقف العدائي من هوشع بن آيلة، زحف الملك الآشوري سلمانصر بجيشه نحو مملكة إسرائيل، لكي يقضي عليها، ولكنه توفي قبل أن يحقق هدفه، فأكمل المهمة ابنه سرجون الثَّاني (722- 705 قبل الميلاد)، الذي قام عام 722 باجتياح مملكة إسرائيل وأزالها عن الوجود، ثم سبى من بقي حياً من اليهود، وساقهم أسرى وعبيداً إلى العاصمة الآشورية "نينوى"، ووضع في مكانهم عناصر سُكَّانيَّة من قبائل ثمود وأباديدي ومارسيمانو، ومن بابل والكوت وحماه أيضاً. ثم زحف سرجون الثَّاني بجيوشه نحو الحدود المصريَّة جنوباً لمعاقبة الفرعون "سبي" لتحالفه مع اليهود. وعند رفيحو "رفح"، على الحدود

الفلسطينيّة المصريَّة، تمكَّن سرجون الثَّاني من إلحاق الهزيمة بالجيش المصري، فاضطر فرعون مصر لدفع الجزية لآشور حتى ينقذ بلاده من غزو آشوري محتم. وفي نقش أثري يصور إحدى حوليات الملك سرجون الثَّاني جاء فيه ما يلي:

«لقد حاصرتُ السَّامرة وفتحتُها ونفيت 27290 نسمة من سكانها، وقد ألفتُ من بينهم فرقة لخمسين عربة، وجعلتُ السُّكَّان الباقين يأخذون أماكنهم، وقد نَصَّبت عليهم ضباطاً من ضباطي، وفرضتُ عليهم ضرائب الملك السابق. أما هانو ملك غزة وكذلك سبي قائد جيش مصر وحاكمها فقد وصلا من رفح عليّ، فقابلتهما في موقعة فاصلة وقهرتهما. وقد فر سبي خائفاً بمجرد أن سمع ضوضاء جيشي الزاحف ولم يعد ثانية، أما هانوا فقبضتُ عليه شخصياً، وتسلمتُ الجزية من فرعون مصر، وكذلك تسلمتُ من سمسمي ملكة العرب ومن أتامار السبئي ذهباً وخيلاً وجمالاً»[4].

وفي عهد الملك الآشوري سنحاريب بن سرجون الثَّاني (705 - 681 قبل الميلاد) قام الجيش الآشوري بالزحف بقيادة سنحاريب نحو مدينة القُدس وحاصرها عام 701 قبل الميلاد. ولكن انتشر مرض الطاعون في الجيش الآشوري، فاضطر سنحاريب للانسحاب بمن تبقى من جيشه. إلا أنه عاود الكَرَّة ثانية واستولى على مدينة القُدس، وأسر ملكها ونفاه إلى نينوى.

---

[4] سليم حسن: مصر القديمة.

3-4: القُدس تحت حُكم البابليِّين

بعد هزيمة الجيش المصري في رفح، استمر فراعنة مصر في تحريض يهود فلسطين ضد الآشوريين، وحثهم على التوقُّف عن دفع الجزية لهم، فقام سنحاريب بن سرجون الثَّاني باجتياح فلسطين ثانية، ثم غزا الملك الآشوري أسرحدون (681- 669 قبل الميلاد) مصر واحتلها، وبذلك توقف تحريض الفراعنة لليهود، وخضعت فلسطين ومصر خضوعاً تاماً للآشوريين. وعندما حل الضُّعف بالإمبراطوريَّة الآشورية تمكَّن المصريُّون من طردهم من مصر، وفي محاولة لاستعادة النفوذ المصري في بلاد الشَّام، غزا الفرعون بسامتيك الأول[5] فلسطين وقام بمحاصرة مدينة أسدود الفلسطينيّة لعدة سنوات. ولكنه اضطر للعودة إلى مصر بعد غزو الأشكوز[6] للمنطقة وتهديدهم بغزو مصر. بعد وفاة بسامتيك الأول خلفه على عرش مصر ابنه "نخاو" الذي تمكن من السَّيطرة على معظم بلاد الشَّام. إلا أن حكم نخاو في بلاد الشَّام لم يدم طويلاً، فقد ظهر في بابل الملك البابلي "نبوبولاسر" مؤسس الأسرة البابلية الحديثة أو الأخيرة. تمكن نبوبولاسر من القضاء على الإمبراطوريَّة الآشورية بالتعاون مع الميديين سكان شمال إيران، ثم توجه نبوخذ نصر "بختنصر" الابن الأكبر لنبوبولاسر لمقابلة الجيش المصري بقيادة الفرعون نخاو في بلاد الشَّام، وألحق به هزيمة كبيرة عام 605 قبل الميلاد في معركة قرقميش، ثم اكتسح نبوخذ نصر بلاد الشَّام حتى الحدود المصريَّة. وهكذا خضعت فلسطين للحكم البابلي. وبتأليب من فراعنة مصر، امتنعت مملكة يهوذا عن دفع الجزية لبابل، فقام نبوخذ نصر، الذي أصبح ملكاً لبابل بعد وفاة والده، بالزحف بجيشه على مملكة يهوذا عام 586 قبل الميلاد، ودكَّ أسوار مدينة القُدس، ثم اقتحمها ودمَّرها تماماً، وهدم جميع المعابد

---

[5] الفرعون بسامتيك الأول: مؤسس الأسرة الفرعونية السَّادسة والعشرين.

[6] الأشكوز: شعب اختلف في أصله، إذ يرى البعض أنهم كانوا من أصل آري، بينما يرى آخرون أنهم من أصل مغولي، وقد كانت بلادهم تقع بين نهري الدون والدانوب جنوبي روسيا.

الكنعانيَّة فيها، وأسر من بقي حياً من اليهود وساقهم عبيداً إلى بابل. وتذكر التَّوراة أنه استولى على كنوز معبد سليمان! ولكن ألم يستولي الفرعون شيشنق الأول على هذه الكنوز من قبل كما تذكر التَّوراة أيضاً؟ وبعد الاحتلال الآشوري - البابلي لفلسطين، خلت فلسطين تقريباً من اليهود وطهر هواؤها من أنفاسهم النجسة.

3-5: القُدس تحت الحُكْم الفارسيِّ

ظهرتْ فارس كقُوَّة عظمى في الشَّرق القديم بعد أن تمكن الملك الإخميني كوروش الثَّاني - قورش (550 - 530 قبل الميلاد) - ملك الفرس سكان جنوب إيران - من هزيمة "استياكوس" ملك الميديين سكان شمال إيران "ميديا"، ووحد جميع الولايات الإيرانية في دولة واحدة قوية. وقد أصبحت فارس إمبراطوريَّة عظمى مترامية الأطراف، بعد أن اجتاحت الجيوش الفارسية تركيا وآسيا الوسطى ثم بابل وفلسطين وبلاد الشَّام. ثم قام قمبيز بن قورش (530 - 521 قبل الميلاد) باحتلال مصر عام 525 قبل الميلاد بعد هزيمته للجيش المصري في معركة بالوظة شمال صحراء سيناء. وفي عهد الملك الفارسي داريوس الكبير - دارا الأول (521 - 485 قبل الميلاد) عبرت الجيوش الفارسية مضيقي البسفور والدردنيل إلى عمق الأراضي اليونانيّة واحتلتها، وقد تحالف الفرس مع ملوك المدن الفينيقية، وحاولت أساطيلهم احتلال قبرص وجزر بحر إيجه الواقع بين تركيا واليونان.

بعد وفاة الملك البابلي نبوخذ نصر، اندلع نزاع على الحُكْم بين أفراد العائلة المالكة، فقتل "أوبل مردوخ" نجل القائد نبوخذ نصر على يد زوج شقيقته الذي استولى على الحُكْم، ثم تولى حكم بابل ملوك ضعاف هووا بالإمبراطوريَّة البابلية للحضيض، وكان آخرهم الملك الزاهد المتصوف "نبونيوس". لقد أغرى الضُّعف الشَّديد الذي أصاب بابل الملك الإخميني قورش الثَّاني بغزو بابل واحتلالها عام 539 قبل الميلاد، ثم احتل فلسطين وبلاد الشَّام عام 538 قبل الميلاد. أبدى قورش الثَّاني تعاطفاً مع يهود السبي البابلي، وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين بعد عامين من احتلالها. وقد اختلفت آ راء المؤرخين وتضاربت أقوالهم حول الأسباب الحقيقية التي دفعت قورش الثَّاني إلى التعاطف مع اليهود، ومن هذه الآراء ما يلي:

1-إن تعاطف قورش الثَّاني مع يهود السبي البابلي كان بتأثير من العاهرة اليهوديَّة "أستير" محظية والد قورش الثَّاني والتي تربى الملك قورش الثَّاني في حضنها وهو طفل صغير.

2-رأي آخر يقول إن هذا التعاطف كان بتأثير من زوجة قورش الثَّاني اليهوديَّة شقيقة زروبابل بن شاليئتيل حفيد يهوياكين آخر ملوك مملكة يهوذا.

3-الخدمات العظيمة التي قدمها يهود السبي البابلي للجيش الفارسي أثناء اجتياحه لبابل، ومن أهمها قيام اليهود بأعمال الجاسوسية المساندة للغزو، وترويج الإشاعات المغرضة التي تضعف الجبهة الدَّاخليَّة وتقضي على روح المقاومة والصمود لدى الشَّعب.

4-كان قورش الثَّاني يهدف من إعادة اليهود إلى فلسطين، توطيد أركان حكمه في بلاد الشَّام، باستخدامهم في لعب نفس الدَّور الذي لعبوه في بابل من قبل، بالإضافة إلى وضع قسم من اليهود عند الحدود الفلسطينيّة المتاخمة لمصر، من أجل تقديم الدعم المعلوماتي والاستخباراتي للجيش الفارسي، الذي كان يستعد لغزو مصر.

5-لم يوافق كثير من المؤرخين على أي من الروايات السابقة، لأن قورش الثَّاني أصدر مرسوماً ملكياً كان محفوظاً في خزائن "ميديا" ويقضي بعتق جميع الأقليات التي كانت مسبية وقتئذ في بابل وآشور وإعادتهم إلى ديارهم، وهذا يعني أن إعادة الأقليات إلى بلادها كانت سياسة عامَّة لقورش الثَّاني ولم تكن قاصرة على يهود السبي البابلي، وقد عثر على نقش حجري يعود تاريخه لزمن قورش الثَّاني نقشت عليه أوامره وجاء فيه ما يلي: فيما يتعلق بالمنطقة من آشور وصوصا وآكاد وأشنونا والمدن، فأنا أعدتُ إليهم المدن المُقدَّسة التي ظلَّتْ مُخرَّبة، والصُّور التي كانت موجودة بها. كما إني جمعت سكانها السابقين وأعدتهم إلى مساكنهم». ولكن اليهود ضخَّموا الأمر واحتكروه لأنفسهم، وأعطوه أبعاداً دينية زائفة، عندما أطلقوا على قورش الثَّاني الوثني لقب المسيح المنتظر أو المخلص، وهم المؤمنون الموحدون حسب زعمهم، فقد جاء في الإصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا ما يلي: «هكذا يقول الرب لكوروش لمسيحه الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً وملوكاً..».

لم توافق غالبية يهود السبي البابلي على العودة إلى فلسطين، وفضلوا البقاء في بابل، بعد أن ألفوا حياة الاستقرار، والرفاهية فيها، واكتنزت خزائنهم بالأموال والفضة والذهب. ولكن عاد قسم صغير منهم إلى فلسطين بقيادة

زروبابل بن شالیئتیل - حفید یهویاكین آخر ملوك یهوذا - بعد عامین من الاحتلال الفارسي لفلسطين، وعاد قسم آخر بقيادة الكاهن عزرا. وكالعادة يضخِّم كتاب العهد القديم في تعداد يهود السبي البابلي العائد إلى فلسطين بشكل يجعل التوفيق بين هذا العدد وعدد اليهود الذين أسرهم القائد البابلي نبوخذ نصر عام 586 قبل الميلاد أمراً مستحيلاً. إذ يذكر العهد القديم أن عدد اليهود العائد كان 42360 من الذكور البالغين عدا النِّساء والأطفال، بالإضافة إلى 7337 من العبيد والجواري!! ومئتين من المغنين والمغنيات[7]، أي ما يزيد عن مائة ألف نسمة! ولكن كيف يمكن لليهود المسبيين في بابل البالغ عددهم 586 قبل الميلاد حوالي 4600 فرد، معظمهم من الأطفال والنِّساء أن يتكاثروا بهذه السرعة ليصلوا إلى هذا الرقم الخيالي في أقل من خمسين سنة؟ على أي حال عاد اليهود إلى فلسطين تحت حماية الجيش الفارسي، ومما لا شك فيه أنهم عادوا كأفراد وليس كدولة، فما كان قورش الثَّاني يسمح بقيام دويلات من أي نوع داخل إمبراطوريته.

هنالك روايات متناقضة عن تمكن يهود السبي البابلي من إعادة هيكل سليمان المزعوم في مدينة القُدس. والحقيقة أن مدينة القُدس، حتى الاحتلال البابلي لها، كانت لا تزال في أيدي أصحابها العرب اليبوسيين، ولا يوجد دليل واحد يثبت أنها كانت عاصمة لمملكة يهوذا، ولا يوجد أي أثر أركيولوجي لهيكل سليمان. والواقع أن نبوخذ نصر قام بتدمير المذبح الكنعاني للقرابين والهيكل الكنعاني في مدينة القُدس. وبعد الاحتلال الفارسي لفلسطين ومدينة القُدس، سمح قورش الثَّاني لليبوسيين العرب بإعادة بناء المذبح الكنعاني للقرابين الذي يعتبر أهم بكثير من المعبد، وقد توافدت للمذبح الكنعاني الجديد جميع طوائف الشَّعب الفلسطينيّ الدِّينيَّة للعبادة وتقديم القرابين للآلهة، وحذا حذوهم يهود مدينة القُدس. وعندما طلب الشَّعب الفلسطينيّ من قورش الثَّاني السماح له ببناء الهيكل الكنعاني المدمَّر في مدينة القُدس، انضمَّ إليهم يهود الأسر البابلي أيضاً، وعندما اكتمل بناء المعبد الكنعاني في مدينة القُدس وارتفعت جدرانه

---

(7) سفر عزرا: الإصحاح الثَّاني (46).

عالياً في السماء، تصوَّر اليهود أنَّه أصبح ملكاً خاصَّاً بهم، وتخيَّلوا أنهم أعادوا بناء هيكلهم الذي لم يوجد أصلاً.

في العهد الفارسي كانت مدينة القُدس وفلسطين كلها تابعة إدارياً لولاية عبر الفرات الفارسية التي تتخذ من مدينة دمشق مقراً لها. والولايات الفارسية كان يحكمها حاكم فارسي يسمى "مرزبان"[8]، ولكن فلسطين كانت تتبع قسماً خاصاً من مرزبانية عبر الفرات يسمى لواء العربيَّة، والسؤال الآن: إذا كانت المزاعم اليهوديَّة صحيحة، فلماذا لم يسمِّ الفرس هذا اللواء باسم لواء اليهوديَّة بدلاً من لواء العربيَّة؟ استمر الحُكم الفارسي لمدينة القُدس حوالي قرنين من الزمن، وربما تمتع اليهود خلالها بمعاملة فارسية خاصَّة. وقد تميز العهد الفارسي بالإصلاحات الإداريَّة الواسعة وبالتنظيم الراقي لأجهزة الدَّولة.

ولقورش الثَّاني أهميَّة خاصَّة في التَّاريخ اليهودي، ففي عهده تمَّتْ العودة الأولى لليهود إلى فلسطين، ولولا هذه العودة لمات التَّاريخ اليهودي في بابل ودُفن إلى الأبد هناك. وفي بابل أيضاً أشرف الكاهن عزرا على كتابة معظم أسفار العهد القديم. وهنا فقط بدأ التَّاريخ الحقيقي للديانة اليهوديَّة وبالتالي التَّاريخ اليهودي. والهدف الأساسي من كتابة العهد القديم هو تبرئة اليهود من جميع العيوب وإلصاقها بالآخرين، ثم وضع اليهود عرقياً ودينياً في مرتبة أرقى وأسمى من جميع البشر، مع التركيز على أن فلسطين هي الموطن الأصلي لليهود. ولقد تطورت الدِّيانة اليهوديَّة وبالتالي التَّاريخ اليهودي خلال الاحتلال الفارسي واليونانيّ لفلسطين، لتصل إلى ما هي عليه الآن في القرن الثَّاني قبل الميلاد. وبعد عودة اليهود إلى فلسطين من بابل، وبين أيديهم القسم الأكبر من مادة العهد القديم، بدأ العالم يسمع لأول مرة عن المملكة اليهوديَّة الموحدة الزائلة في فلسطين، وعن مملكتي إسرائيل ويهوذا، وأيضاً عن حروب وانتصارات وهمية، وهيكل سليمان المزعوم، وأرض الميعاد والشَّعب المختار إلى آخر هذه السلسلة من الخرافات والأوهام. يقول الأستاذ روبرت ألتر - أستاذ التَّاريخ اليهودي بجامعة بيركلي الأمريكيَّة: «إن التَّوراة المتداولة الآن يجب قراءتها بعيون الأدب وليس بعيون التَّاريخ والدين».

---

[8] المرزبان: كانت الإمبراطوريَّة الفارسية في أوج اتساعها مقسمة إلى عشرين ولاية، ويحكم كل ولاية حاكم فارسي يسمى بالفارسية "مرزبان".

3-6: القُدس تحت الحُكْم اليونانيّ

أولاً: الإسكندر المقدوني

ظهر في مقدونية الملك فيليب الذي سعى جاهداً لتوحيد الولايات اليونانيّة تمهيداً لغزو الفرس وتقويض إمبراطوريتهم، ولكنه توفي عام 336 قبل الميلاد، وخلفه في الحُكْم ابنه الإسكندر المقدوني المعروف بالإسكندر الأكبر ذو القرنين (336 - 323 قبل الميلاد). وبالرغم من صغر سنه كان الإسكندر المقدوني ملكاً شجاعاً قوي الشكيمة صلب العزيمة، سار على خطى والده، فأكمل توحيد الولايات اليونانيّة تحت سيطرته، وأنشأ جيوشاً قويَّة جرارة. وفي ذلك الوقت تدهورت الأحوال داخل الإمبراطوريَّة الفارسية وأصابها الضُّعف نتيجة انغماس ملوكها في حياة الترف واللهو، وإهمالهم لشؤون إمبراطوريتهم الشاسعة، وتدني مستوى جيوشهم، التي أصبحت تعتمد بالدرجة الأولى على جنود من المرتزقة. استغل الإسكندر المقدوني الفرصة، وعبر بجيوشه مضيق البسفور، باتجاه آسيا الصُّغرى، واستولى على أراضي الأناضول، ثم زحف نحو بلاد الشَّام، ووجَّه ضربة ساحقة للملك الفارسيّ دارا الثَّالث في معركة إيسوس عند الأطراف الشَّمالية لبلاد الشَّام، وأسر جميع عائلته، وقد أمر الإسكندر المقدوني ببناء مدينة في مكان المعركة أطلق عليها اسم الإسكندرونة. بعد معركة إيسوس اجتاح الإسكندر المقدوني بلاد الشَّام بسهولة، وكذلك مملكة فينيقية ما عدا مدينة صور التي صمدت أمام الجيش اليونانيّ لحوالي سبعة أشهر. ثم زحف الإسكندر الأكبر نحو فلسطين وتمكن من احتلالها ودخل مدينة القُدس، إلا أنه وجد صعوبة بالغة في احتلال مدينة غزة. وكادت حاميتها العسكريّة بقيادة القائد الفارسي "باتيس" أن تلحق هزيمة نكراء بالجيش اليونانيّ، وفي النهاية سقطت مدينة غزة في يد القوات اليونانيّة، وبسقوطها فقد الفرس آخر معقل حصين لهم في بلاد الشَّام. بعد احتلال بلاد الشَّام زحف الاسكندر الأكبر بجيوشه نحو مصر، وتمكَّن من احتلالها دون عناء، نظراً لتعاطف المصريين معه وكراهيتهم للفرس. وبعد هدوء الأحوال في مصر، أمر الإسكندر المقدوني ببناء مدينة حديثة، على الطراز اليونانيّ، شمال مصر، على ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط، أطلق عليها اسم

الإسكندريَّة، ثم عاد إلى بلاد الشَّام، وقاد جيوشه نحو وادي الرافدين؛ حيثُ التقى، في معركة فاصلة، مع دارا الثَّالث عند بلدة كوكميلة شمالي مدينة أربيل. هزم الإسكندر المقدوني الجيش الفارسي هزيمة قاضية، وفرَّ دارا الثَّالث، وتشتت جيشه، واكتسح الجيش اليونانيّ جميع الأراضي الإيرانية، مُعلناً بذلك نهاية الإمبراطوريَّة الفارسيَّة. ومن فارس اتجهت جيوش الإسكندر المقدوني شرقاً واجتازت ممر خيبر الحيوي إلى أفغانستان، ثم إلى السند والهند. وامتثالاً لنصائح قادته، توقف الإسكندر الأكبر عند هذا الحد، واكتفى بما حققه من انتصارات وفتوحات، وقفل عائداً إلى بابل حيث مرض هناك بالحمى ومات عام 323 قبل الميلاد وهو في الثَّالثة والثلاثين من العمر.

فور وصول الجيش اليونانيّ لمدينة القُدس، تخلَّى يهود المدينة عن ولائهم القديم لأصدقائهم الفرس، وخرجوا عن بكرة أبيهم لاستقبال الفاتح الجديد والترحيب به وإعلان الولاء له. ويقول المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس، الذي عاش في القرن الأول للميلاد، أن الإسكندر الأكبر، أثناء حصاره لمدينة صور الفينيقية، طلب مساعدة الكاهن اليهودي الأعظم في مدينة القُدس!! ولكن الكاهن الأعظم رفض طلب الإسكندر الأكبر الذي غضب غضباً شديداً وعقد العزم على الانتقام منه فور احتلاله لفلسطين. انتهز زعيم اليهود في مدينة السامرة "سنبلط" فرصة رفض الكاهن الأعظم مساعدة الإسكندر الأكبر، وجهز جيشاً صغيراً من سبعة آلاف مقاتل يهودي، وتوجه به إلى مدينة صور الفينيقية، وشارك الجيش اليونانيّ في احتلالها. ويذكر يوسيفوس أيضاً أن الإسكندر الأكبر، بعد احتلاله لفلسطين، توجه إلى مدينة القُدس لمعاقبة الكاهن الأعظم، ولكن الكاهن الأعظم خرج لاستقباله وجميع كهنته ويهود المدينة، وأخبره أن عدم مساعدته له كانت بسبب رؤيا حلم بها، تبشر بأن الإسكندر الأكبر سوف ينتصر على الفرس. فعفا الإسكندر الأكبر عنه، ثم قام الكاهن الأعظم باصطحابه في زيارة للمعبد اليهودي في مدينة القُدس، حيث قدم القرابين للرب "يهوه" وأطلعه على نسخة من سفر دانيال الذي يتنبأ بأن أحد القادة الإغريق سوف ينتصر على الفرس ويقوض إمبراطوريتهم. أما سنبلط زعيم الطائفة اليهوديَّة في السامرة فقد كافأه الإسكندر الأكبر بالسماح له بإقامة هيكل السامرة فوق جبل جرزيم

بمدينة نابلس، وكافأ جنوده الذين شاركوا في احتلال مدينة صور بأن منحهم إقطاعيات في أرض طيبة بعد احتلاله لمصر. ويرفض معظم المؤرخين روايات المؤرخ اليهودي يوسيفوس، فمن غير المعقول أن يحتاج أعظم فاتح في التَّاريخ إلى مساعدة حفنة من اليهود في فلسطين. ويشير المؤرخ فيكتور تشركوفر[9] إلى عدم صحة رواية يوسيفوس بشأن زيارة الإسكندر الأكبر لمعبد أورشاليم وتقديمه القرابين للإله "يهوه"، ويعتبرها أوهام وخيالات، كما وأن اطلاع الإسكندر الأكبر على نسخة من سفر دانيال رواية غير مقبولة تاريخياً لأن سفر دانيال كتب بعد عهد الإسكندر الأكبر بفترة طويلة.

عندما توفي الإسكندر الأكبر عام 323 قبل الميلاد، لم يكن له وريثاً للعرش، ولم يكن قد ترك وصية، فتنازع قادته على اقتسام أراضي الإمبراطوريَّة اليونانيّة الضخمة. فكانت فلسطين وجنوب بلاد الشَّام ومصر وبرقة وشمال أفريقية وقبرص وبعض جزر بحر إيجه من نصيب القائد اليونانيّ بطليموس سوتر، أما وادي الرافدين وشمال بلاد الشَّام وآسيا الصُّغرى وأفغانستان وشمالي غربي الهند فكانت من نصيب القائد اليونانيّ سلوقس نيكتور.

ثانياً: مدينة القُدس تحت حُكْم البطالسة

بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام 323 قبل الميلاد، تولّى حكم مصر لقائد اليونانيّ بطليموس سوتر تحت اسم بطليموس الأول (323 - 283 قبل الميلاد)، واتخذ بطليموس الأول من مدينة الإسكندريَّة عاصمة له، وامتد حكمه إلى فلسطين وجنوب بلاد الشَّام. وفي البداية عامل البطالسة يهود مدينة القُدس بالشدة والقسوة، ولكنهم هادنوهم فيما بعد وعاملوهم معاملة حسنة، وبخاصَّة في عهد بطليموس الثَّاني. وقد أرسل بطليموس الثَّاني إلى الكاهن الأعظم في القُدس يطلب منه إرسال مجموعة من العلماء في اللغتين اليونانيّة والعبرية للقيام بترجمة العهد القديم إلى اللُّغة اليونانيّة، فأرسل الكاهن الأعظم 72 عالماً إلى مدينة الإسكندريَّة وقاموا بترجمة أسفار العهد القديم خلال 72 يوماً، ولذلك عرفت هذه الترجمة باسم "التَّرجمة السبعينيَّة". أصبحت مدينة

---

[9] فيكتور تشركوفر: الحضارة الهلينية واليهود.

الإسكندريَّة في العهد اليونانيّ مركزاً علمياً وحضارياً متقدماً في الشَّرق، فنقل اليهود نشاطهم من مدينة القُدس إلى مدينة الإسكندريَّة، وغدا يهود الإسكندريَّة يمثِّلون التَّيار الليبرالي الجديد في الفكر اليهوديّ، بينما ظل يهود فلسطين أسرى لمنظومتهم العنصريَّة والعرقيَّة والدِّينيَّة المتزمتة، التي توارثوها جيلاً بعد جيل.

ثالثاً: القُدس تحت حُكْم السلوقيِّين

في البداية، اتَّخذ القائد اليونانيّ سلوقس نيكتور، من مدينة أنشأها على نهر دجلة بالقرب من بابل وسماها "سلوق"، عاصمة له، ثم قام بنقل عاصمته إلى مدينة "أنطيوخية" (أنطاكية) شمال بلاد الشَّام. لم يكن السَّلوقيون في سورية راضين عن ضمِّ البطالسة في مصر لفلسطين وأجزاء من بلاد الشَّام لملكتهم. واستمرَّت الحروب بينهم، إلى أن تمكَّن الملك السلوقي أنطوخيوس الثَّالث (223 - 187) قبل الميلاد من هزيمة الملك البطلمي بطليموس الرَّابع في معركة بانيون "بانياس"، وطرده من فلسطين وبلاد الشَّام. وبذلك خضعت مدينة القُدس للحكم السَّلوقي في سورية. وعلى عكس البطالسة، لم يكن السَّلوقيُّون على وفاق مع يهود فلسطين، وعاملوهم باحتقار شديد وقسوة بالغة، وأرغموهم على التخلي عن ديانتهم واعتناق الدِّيانة اليونانيّة الوثنية، ومنعوهم من اقتناء الأسفار المُقدَّسة، وأجبروهم على أكل لحم الخنزير وترك عادة ختان أولادهم. ثم قام الوالي السَّلوقي في فلسطين "أثنيوس" بنصب تمثال لكبير الآلهة اليونانيّ زيوس داخل معبد أورشليم، وأمر اليهود بعبادته وتقديم القرابين له، ووضع تمثالاً للإله جوبيتر في معبد السامرة بمدينة نابلس. وإزاء هذه الإجراءات العدائية من قبل السُّلطات السَّلوقية انقسم يهود مدينة القُدس إلى قسمين:

1-قسم المتأغرقين: وهم اليهود الذين فضلوا البقاء في مدينة القُدس، وحاولوا التأقلم مع الفكر والثقافة اليونانيّة وانصرفوا عن التعاليم الدِّينيَّة اليهوديَّة.

2-قسم المتمردين: وهم اليهود الذين بقوا على التعاليم اليهوديَّة وتمردوا على السُّلطات السلوقية، ثم فروا من مدينة القُدس وانضموا إلى الكاهن اليهودي المتمرد "ماتاثيه" الذي كان يختبئ هو ورجاله في المغاور والكهوف.

وفي عهد الملك السلوقي أنطوخيوس الرَّابع اندلعت ثورة يهوديَّة مُسلَّحة في فلسطين ضد محاولة صبغهم بالصبغة الإغريقية قادها عام 166 قبل الميلاد الكاهن ماتاثيه وخمسة من أبنائه هم: يوحنا وسمعان ويهوذا وأليعازر ويوناثان، وعُرفت هذه الثَّورة باسم الثَّورة المكابية❖. وبعد موت الكاهن ماتاثيه تولى قيادة الحركة المكابية ابنه الثَّالث يهوذا. تمكن يهوذا بن ماتاثيه من إلحاق هزيمة كبيرة بالقائد السلوقي "أبولونيس". فأرسل أنطوخيوس الرَّابع قائده سيرون ثم القائد ليسياس إلى فلسطين لإخماد الثَّورة المكابية، ولكنهم فشلوا في مهمتهم. وبعد فترة من القتال عقدت السُّلطات السلوقية اتفاقية هدنة مع المكابيين، فاغتنم القائد المكابي يهوذا بن ماتاثيه هذه الفرصة وقام باقتحام مدينة القُدس عام 165 قبل الميلاد، إلا أن السلوقيين تمكَّنوا من استرجاعها عام 161 قبل الميلاد. وفي عهد الملك السلوقي أنطيوخوس الخامس تمتَّع اليهود بشيء من الحُرِّيَّة، من خلال الحُكْم السلوقي، ولكن أنطيوخوس الخامس قُتل على يد نجل أنطيوخوس الرَّابع "ديمتريوس". تولَّى ديمتريوس الأول حُكم بلاد الشَّام، وعين القائد السلوقي بكيدس والياً على مدينة القُدس، واختار الكاهن المتأغرق "ألكميس" لمنصب الكاهن الأعظم ليهود القُدس، فاندلع قتال بين اليهود أنفسهم، بين أنصار الكاهن ألكيمس والمكابيين، فغضب ديمتريوس الأول، وشنَّ حرباً واسعة على المكابيين، وقتل قائدهم يهوذا، وفرَّ أخويه ورجالهم إلى شرق الأردن. وفي عام 150 قبل الميلاد نشب نزاع على الحُكْم بين ديمتريوس الأول والقائد الإسكندر بالاس، انتهى بمقتل ديمتريوس الأول، وتولى الإسكندر بالاس الحُكْم. وفي عهد الإسكندر بالاس تمتَّع اليهود بالاستقلال الذَّاتي في مدينة القُدس. وفي عام 67 قبل الميلاد اندلع نزاع على الحُكْم بين القائد المكابي هركانس الثَّاني وشقيقه أرسطوبولس، وانتهى النزاع بفوز أرسطوبولس الثَّاني بالحُكْم، فنشبت بين الأخوين حروب مريرة، استمرَّت فترة طويلة، ولم تنته إلا باجتياح القائد الرُّومانيّ "بومبيوس" لفلسطين، وقضى على المكابيين، وأنهى الحُكْم اليونانيّ لبلاد الشَّام.

❖ كلمة مكابي: هي الأحرف الأولى للعبارة العبرية التالية: (مي كاموخا بجبيم يهوه)، ومعناها: من مثلك بين الأمم يا يهوه.

وإذا ما تمكَّن المكابيُّون من تحقيق بعض الانتصارات على السلوقيين في فلسطين، وسيطروا على مدينة القُدس لبعض الوقت، وتمتعوا بنوع من الحُكْم الذاتي في القُدس تحت السِّيادة السَّلوقية، فإن ذلك يعود إلى سببين مهمين:

الأول: النِّزاع الدائم بين السَّلوقيين في سورية والبطالسة في مصر.

الثَّاني: الخلافات والصِّراعات بين السَّلوقيين أنفسهم في سورية.

3-7: القُدس تحت الحُكْم الرُّومانيّ

كان الرُّومان يتطلَّعون إلى وراثة أراضي الإمبراطوريَّة اليونانيّة المترامية الأطراف، وقد بدأ حلمهم يتحقق بسقوط قرطاجنة في شمال أفريقية في أيديهم، بعد حروب مع الإغريق دامت أكثر من مائة عام، وبسقوط قرطاجنة في قبضة الرُّومان، تهاوت ولايات شمال أفريقية الواحدة تلو الأُخرى، وسقطت في يد الرُّومان. بعد هذه الانتصارات، اتجهت أنظار الرُّومان نحو الشَّرق، فاجتاحوا مقدونية وبلاد الإغريق نفسها، ثم اكتسح القائد الرُّومانيّ العملاق بومبيوس "بومبي" آسيا الصُّغرى وزحف جنوباً واحتل بلاد الشَّام ثم فلسطين عام 63 قبل الميلاد. وعندما دخل بومبيوس مدينة القُدس نكل بيهودها تنكيلاً شديداً، وقام بإرسال عدد كبير منهم عبيداً إلى روما. بعد انتصارات بومبيوس اندلع صراع مُسلَّح على الحُكْم بينه وبين القائد الرُّومانيّ يوليوس قيصر، وانتهى هذا الصِّراع بانتصار يوليوس قيصر ومقتل بومبيوس في مصر عام 48 قبل الميلاد. وعندما احتل يوليوس قيصر مصر كان يجلس على عرشها طفل في العاشرة من عمره هو بطليموس الثَّالث عشر، وقد شب نزاع على الحُكْم بين الأوصياء على عرش مصر من ناحية وبين كليوباترا شقيقة بطليموس الثَّالث عشر. وانتهى هذا النزاع بفوز كليوباترا، وجلوسها على عرش مصر، بمساعدة وتأييد يوليوس قيصر نفسه. رحلت الملكة البطلمية كليوباترا مع يوليوس قيصر إلى روما، وبقيت هناك حتى مصرع يوليوس قيصر عام 44 قبل الميلاد، على يد أحد أنصار الاتجاه الجمهوري في روما، لأنه أراد أن يجعل الحُكْم وراثياً في أسرته. وبعد مصرع يوليوس قيصر، اندلعت الحرب الأهليَّة في روما، وكان النَّصر في نهايتها من نصيب القائدين: أوكتافيوس ومارك أنطونيو. كان القائد مارك أنطونيو متزوجاً من أخت القائد أوكتافيوس، ولكنه هجرها، بعد أن وقع في غرام الملكة البطلمية كليوباترا، فأهمل شؤون الدَّولة، مما أدى إلى توتُّر العلاقات بينه وبين أوكتافيوس. تحالف مارك أنطونيو مع كليوباترا ضد أوكتافيوس، ولكن الأخير تمكَّن عام 30 قبل الميلاد من هزيمة جيوش التَّحالف، وتدمير أساطيله في معركة "أكتيوم" الواقعة على السَّاحل الغربي لليونان. وبذلك انفرد أوكتافيوس بحكم

روما، ثم نصَّب نفسه كأول إمبراطور للإمبراطوريَّة الرُّومانيّة باسم الإمبراطور أوغسطس.

أوضاع مدينة القُدس في بداية العهد الرُّومانيّ

عندما احتل القائد الرُّومانيّ بومبيوس بلاد الشَّام، عين القائد أوليوس غابينوس حاكماً عاماً لها. قسم غابينوس فلسطين إلى خمس مناطق إدارية هي: القُدس والجليل الأعلى وأريحا وجازر وشرق الأردن. وأعلنت السُّلطات الرُّومانيّة في فلسطين أن هذا التقسيم يهدف إلى تسهيل جمع الضَّرائب. إلا أن السبب الحقيقي لتلك الإجراءات، كان على ما يبدو تفتيت وحدة يهود فلسطين وبعثرة كيانهم الهزيل فيها. وثاني خطوة للقائد الرُّومانيّ غابينوس كان تجريد القائد المكابي هركانوس الثَّاني من لقبه كملك على يهود فلسطين، ثم فرض عليهم ضرائب باهظة، تزيد كثيراً عما فرضه على بقية طوائف الشَّعب الفلسطينيّ. ومما هو جدير بالذكر أن ملوك اليهود كانوا ملوكاً للجالية اليهوديَّة في فلسطين وليس ملوكاً لجميع طوائف الشَّعب. وأثناء الاقتتال بين بومبيوس ويوليوس قيصر برز اسم العسقلاني "أنتيباتر" - مستشار هركانوس الثَّاني - لأنه ساعد يوليوس قيصر في احتلاله لمصر وقتاله مع القائد بومبيوس، فكافأه قيصر بتعيينه نائباً له في فلسطين، مع احتفاظ هركانوس الثَّاني بمنصب الكاهن الأعظم الذي يشغله. أصبح أنتيباتر رجل فلسطين الأول دون منازع، مما أوغر صدر هركانوس الثَّاني عليه، فتآمر عليه وقتله. وبعد مقتل أنتيباتر، عين يوليوس قيصر ابنه هيرودوس خلفاً له. كان هيرودوس كوالده أنتيباتر عربي الأصل، آدومي النسب، روماني الولاء والتبعية، ولكنه كان يهودي الدِّيانة عن طريق التهوُّد الإجباري الذي فرضه هركانوس الثَّاني على الآدوميين، وفور توليه الحُكْم قام هيرودوس الآدومي بالانتقام من قتلة والده، ثم قضى قضاءً مبرماً على بقايا المكابيين في فلسطين. ولهذا السبب غضب منه اليهود، وحقدوا عليه. وفي محاولة لاسترضائهم، بنى لهم هيرودوس عام 18 قبل الميلاد، هيكل أورشليم الثَّاني، واهتمَّ بمدينة القُدس وجدَّدها، وجعل منها مدينة حديثة وجميلة. بعد موت هيرودوس الآدومي خلفه في الحُكْم ثلاثة من أبنائه، الأول أرخيلوس، والثَّاني أنتيباز ثم فيليبس. ومما يذكر أن أنتيباز تزوج من الغانية اللعوب "هيروديا" ابنة شقيقة أرسطوبولس،

وعندما احتجَّ يوحنا المعمدان "يحيى عليه السَّلام"، وأعلن رفضه لهذا الزواج، لأنه مخالف للشرائع السماوية، قام أنتيباز بن هيرودوس الآدومي باعتقاله ووضعه في السجن، ثم قتله بناءً على طلب من الراقصة شالومي ابنة هيروديا من زوجها الأول.

بعد الاحتلال الرُّومانيّ لفلسطين عام 63 قبل الميلاد، عمل اليهود كخدم وعملاء وجواسيس للسيد الجديد، كما جاء في أسفار العهد الجديد. ومن الواضح أن الرُّومان كانوا يعينون ولاة يهود على مدينة القُدس في بداية حكمهم لفلسطين، إلا أن اليهود لم يقدروا جيداً خطورة قيامهم بأي إزعاج للحامية الرُّومانيّة في القُدس. ففي عهد الإمبراطور الرُّومانيّ نيرون (54 - 68 ميلادية) نشبت اضطرابات خطيرة بين اليهود الموالين لروما وبين المناوئين لها. فاضطر نيرون إلى إرسال القائد فاسباسيان على رأس حملة كبيرة لإخماد هذه الاضطرابات، ولكن فاسباسيان عاد إلى روما، بعد اختياره من قبل مجلس الشُّيوخ الرُّومانيّ إمبراطوراً جديداً، بسبب انتحار نيرون. فأرسل فاسباسيان ابنه القائد تيتوس "طيطس" لقيادة الحملة العسكريّة في فلسطين. وفي عام 70 ميلادية اقتحم تيتوس مدينة القُدس، ونكَّل بيهودها تنكيلاً شديداً، وهدم الهيكل الثَّاني الذي بناه الملك هيرودوس الآدومي، وهرب من بقي حياً من اليهود إلى خارج فلسطين، وأصبح تاريخهم منذ ذلك الحين مُلحقاً بتاريخ الأمم المختلفة التي عاشوا بينها. وبين الأعوام 132 - 135 للميلاد أشعل اليهودي سيمون باركوخبا نيران ثورة مُسلَّحة في مدينة القُدس ضد السُّلطات الرُّومانيّة، فقام الإمبراطور الرُّومانيّ إيليوس هارديناوس (117 - 138 للميلاد) بتجهيز حملة عسكريَّة وزحف بها نحو فلسطين. وفي عام 135 اقتحم الإمبراطور إيليوس هارديناوس مدينة القُدس ودمرها تدميراً تاماً، وقتل اليهودي باركوخبا وأتباعه وفر من بقي حياً من اليهود إلى خارج فلسطين. بعد حملة الإمبراطور إيليوس هارديناوس خلت مدينة القُدس تماماً من اليود، إذ إن السُّلطات الرُّومانيّة لم تكن تسمح لهم بالسكن فيها، وحرمت عليهم زيارتها سوى مرة واحدة في العام. أنشأ الإمبراطور إيليوس هارديناوس في مكان مدينة القُدس المدمرة مدينة جديدة

خالية من اليهود أطلق عليها اسم إيليا كالبيتولينا، وجاء إلى موقع المعبد اليهودي المدمر وأنشأ في مكانه معبداً لكبير الآلهة الرُّومانيّ "جوبيتر" ووضع بداخله تمثالاً ضخماً لجوبيتر على غرار تمثال معبد جوبيتر الكبير المقام في مدينة روما، والمعروف باسم معبد الكابيتول. وقد عرفت مدينة القُدس باسمها الرُّومانيّ "إيلياء" منذ ذلك الحين وحتى التحرير العربيّ الإسلاميّ للمدينة عام 636 حيث عرفت باسم بيت المقدس جنباً إلى جنب مع اسم القُدس.

3-8: الفرس مرة ثانية في القُدس

في عام 40 قبل الميلاد، والرُّومان كانوا لا يزالون حديثي العهد في استعمار فلسطين ومدينة القُدس، تمكَّن الجيش الفارسي من اجتياح بلاد الشَّام وفلسطين، وسقطت مدينة القُدس في أيديهم للمرة الثَّانية. إلا أن الرُّومان تمكَّنوا من استعادة مدينة القُدس، وطردوا الفرس من بلاد الشَّام عام 38 قبل الميلاد، أي بعد عامين من الغزو الفارسي لها.

الفصل الرَّابع

القُدس خلال الألفيَّة الأولى للميلاد

شهد مطلع الألفيَّة الأولى للميلاد الأحداث المأساوية التي صاحبت ظهور السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام، والتي كان البرابرة اليهود هم صانعوها وأبطالها، وانتهتْ هذه الأحداث بالقبض على السَّيِّد المسيح عليه السَّلام، ثم محاكمته، وقتله صلباً، حسب الاعتقاد اللاهوتي. وفي نفس الوقت شهدت أرض فلسطين البدايات الأولى للديانة المسيحيَّة. وفي عهد الملك الفارسي كسرى الثَّاني، احتل الفرس فلسطين مرة ثالثة، وقاموا بتدمير مدينة القُدس تدميراً كاملاً، إلا أن الرُّومان استطاعوا استرجاعها بعد أعوام قليلة. وفي عام 636 تمكَّن الفاتحون العرب المسلمون من تحرير مدينة القُدس واستعادة فلسطين كلِّها ثانية إلى البيت العربيّ الكبير، بعد قرون طويلة من الاحتلال الأجنبي الغاصب.

1-4: ظهور السَّيِّد المسيح وبداية الدِّيانة المسيحيَّة

في عصر الميلاد، كان اليهود ينتظرون قدوم مسيحهم المنتظر، لكي ينقذهم من الولايات التي ألمَّت بهم، نتيجة كفرهم بربهم يهوه وعصيانهم له، وينتقم لهم من أعدائهم وينكِّل بهم تنكيلاً شديداً، ويعيد لهم أمجادهم أيام داود وسليمان، ثم يضع العالم بأسره تحت أقدامهم. والحقيقة أن اليهود كانوا ينتظرون مسيحاً عنصرياً حقوداً ومتعصباً لهم، دموي الطباع تقطر يداه بدماء الأبرياء ويسير مزهواً فوق تلال من جماجم المستضعفين والشرفاء، مسيحاً من طراز ثيودور هرتزل وفلاديمير جابوتنسكي ومناحم بيغن وشاؤول موفاز ويوسف عوفيدا وأرييل شارون. ولما فشلت أرحام نساء بني إسرائيل في إنجاب رجل واحد يهديهم ويأخذ بيدهم إلى طريق التوبة والصلاح والإيمان، تدخَّلت قدرة الله تبارك وتعالى بكلمته التكوينيَّة، فانبثق عنها عيسى ابن مريم عليه السَّلام. في هذا الجو العاصف الملبد بغيوم الشرك والكفر والطغيان، ولد السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام في مدينة بيت لحم الفلسطينيّة، أثناء ولاية الملك اليهودي هيرودوس الآدومي، ثم رحلت به والدته السَّيِّدة مريم العذراء إلى مدينة الناصرة حيث تربَّى فيها وشبَّ وكبر. بعث السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام لبني إسرائيل فقط، كما جاء في الفقرة 24 من الإصحاح الخامس عشر لإنجيل متى: «لم أُرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة»، إلا أن بني إسرائيل لم يؤمنوا به، واتهموه هو ووالدته بأبشع التهم. انتقل السَّيِّد المسيح من الناصرة إلى بلدة كفرناحوم ومنها إلى مدينة القُدس؛ حيثُ التفَّت حوله جموع غفيرة من الشُّرفاء والأحرار والفقراء والمرضى والمستضعفين من بني إسرائيل. كانت تعاليم السَّيِّد المسيح عليه السَّلام راقية المضمون وإنسانية الطابع ومثالية الأبعاد، تُعلِّم الناس التَّسامح والمحبَّة والإخاء والمساواة. وهذا ما لم يألفه بنو إسرائيل إطلاقاً، إضافة إلى أنها تخبرهم أن الله تعالى محبٌّ لجميع عباده، وليس ملكاً لشعب معين. فوجئ اليهود بالتعاليم الجديدة، واستشاطوا غضباً منها، فهي من شأنها أن تهدم منظومتهم الدِّينيَّة والعرقيَّة المتوارثة، وتجردهم من ميزة الشَّعب المختار التي تاجروا بها لقرون عديدة، وتحطِّم قيود الدِّين القبليّ محدود الأفق، وتنفي عن الله تعالى جميع الصِّفات العنصرية التي ألصقها به اليهود، كما وأن التعاليم

الجديدة تعري وتفضح اليهود، وتظهر بوضوح تام كفرهم وفسقهم وفجورهم. وإزاء هذه المستجدات الخطيرة شعر اليهود بخطر حقيقي يهدد كيانهم ووجودهم برمته، فسارع كهنتهم وشيوخهم إلى الاجتماع في معبد أورشليم ليتشاوروا في أمر السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام، وفي النِّهاية قرروا أنه ليس مسيحهم المنتظر، وإنما هو رجل دجَّال ومحتال جاء ليفسد بني إسرائيل ويضلهم. قام اليهود بالتآمر على السَّيِّد المسيح مع السُّلطات الرُّومانيّة في فلسطين، مُمثَّلة في الوالي بيلاطوس البنطي، الذي قبض على السَّيِّد المسيح، وألقى به في السجن. أجرى اليهود محاكمة صوريَّة للسيِّد المسيح وحكموا عليه بالموت صلباً بتهمة تهديد سلطة الرومان في فلسطين، وبالزعم بأنه المسيح ملك اليهود، وهم لا يعترفون بملك لهم سوى قيصر روما، كما وأنه يحرض الناس على التوقف عن دفع الضَّرائب للسلطات الرُّومانيّة، ويتبجح بهدم معبد أورشليم حتى لا يبقى حجر من حجارته فوق حجر آخر. وفي الفكر اللاهوتي فإن عمليَّة صلب وقتل السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم تمَّت بطريقة بربريَّة، مارس خلالها اليهود كافة أنواع الأذى المعنويّ والجسديّ بحقِّه، وتقرُّ جميع الأناجيل بحادثة صلب وقتل السَّيِّد المسيح، ولكنها تختلف في التفاصيل، بينما تخلو المصادر اليهوديَّة من أي ذكر لهذه الحادثة.

ويقول المؤرِّخ اليهوديّ إسرائيل ولفنسون إن حادثة صلب السَّيِّد المسيح وقتله كانت مذكورة في كتاب التلمود، ولكن اليهود قاموا بحذف الفقرات المتعلقة بها خشية أن يتعرضوا لمزيد من الكراهية والاضطهاد في الغرب المسيحي الذي عاشوا فيه. أما في الفكر الإسلاميّ فإن القرآن الكريم ينفي عن اليهود تهمة صلب وقتل السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام، ويقرر أنهم قتلوا وصلبوا شبيهاً له علم لاحقاً أنه تلميذه الخائن الذي عرفته الأناجيل باسم يهوذا الإسخريوطي. أما السَّيِّد المسيح فقد رفعه الله تعالى دون أن تمسه أيدي اليهود النجسة. يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

{وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً❖ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً}[1].

---

[1] قرآن كريم: سورة النِّساء، الآيات 157- 158.

{إذ قال الله يا عيسى إني مُتوفيك ورافعك إليّ ومُطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون}[2].

وبرفع السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام إلى السَّماء لم تنتهِ رسالته، فقد حملها تلاميذه إلى شتى أرجاء العالم، وعلى عكس ما كان يتمنى اليهود اعتنق الإمبراطور الرُّومانيّ قسطنطين الدِّيانة المسيحيَّة بعد حوالي ثلاثة قرون من ظهور السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام، وجعلها الدِّيانة الرسميَّة للإمبراطوريَّة الرُّومانيّة. وبناءً على طلب الإمبراطور قسطنطين عقد المجمع المسكوني جلسة عام 325 قرر فيها توحيد جميع التيارات والاتجاهات المسيحيَّة. وقد شهدتْ مدينة القُدس نشاطاً مسيحياً مكثفاً للكشف عن قبر السَّيِّد المسيح. ويقال إن الملكة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين زارتْ مدينة القُدس وشاركتْ في استخراج الصَّليب المقدس الذي صلب عليه السَّيِّد المسيح من تحت الأنقاض، ثم أمرتْ ببناء كنيسة القيامة فوق صخرة الجلجلة ومغارة المسيح. ومنذ ذلك الحين أصبحتْ مدينة القُدس مزاراً يؤمه آلاف الحجاج المسيحيين من جميع أنحاء العالم لزيارة قبر السَّيِّد المسيح.

---

[2] قرآن كريم: سورة آل عمران، الآية 55.

4-2: الفرس مرة ثالثة في القُدس

في عام 614 ألحق القائد الفارسي كسرى الثّاني هزيمة كبيرة بالرُّومان، وتمكن من احتلال فلسطين واستولى على مدينة القُدس بمساعدة يهود المدينة، وقد ارتكب كسرى الثّاني مذبحة بربرية بشعة، ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من سكان مدينة القُدس. ثم قام جنود كسرى الثّاني بهدم وتدمير جميع المعالم المسيحيَّة في المدينة ومن ضمنها كنيسة القيامة واستولوا على الصَّليب المقدس، وقاموا بنقله إلى عاصمتهم "المدائن". وعندما وصلت إلى جزيرة العرب أنباء انتصار الفرس الوثنيين على الرُّوم أصحاب الكتاب، فرح المشركون وابتهجوا، وقالوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم أهل كتاب والرُّوم أيضاً أهل كتاب، وبالرغم من ذلك فقد هزم الرُّوم على يد الفرس، فحزن المسلمون حزناً شديداً، ولكن سرعان ما نزل قرآن كريم يبشر بهزيمة الفرس خلال سنوات قليلة. وبالفعل انتصر الرُّوم على الفرس بعد سبع سنوات واحتلُّوا عاصمتهم المدائن، واسترجعوا الصَّليب المقدس، وأحضروه ثانية إلى مدينة القُدس. يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

{الم❖ غُلبت الروم❖ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون❖ في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون❖ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم❖ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون}[3].

---

[3] قرآن كريم: سورة الروم، الآيات 1-6.

4-3: الفتح العربيّ الإسلاميّ لمدينة القُدس

في مطلع القرن الميلاديّ السَّابع كان العالم بأسره، وليس بلاد العرب فقط، غارقاً في ظُلمات الجاهليَّة البغيضة، وكانت الإمبراطوريتان، الفارسيَّة في الشَّرق والبيزنطيَّة في الغرب، أكبر قوتين فيه، وتتربعان على قمة هرم الشِّرك العالميّ. ففي فارس كان الفرس يزدادون غلواً في الشِّرك والوثنيَّة، وفي بيزنطة تحوَّل جوهر الدِّين السَّماوي إلى جدل عنيف في قضايا جاهلية لا فائدة منها، حتى أصبح اصطلاح "جدل بيزنطي" يُستخدم حتى الآن للدلالة على كل حوار لا جدوى منه ولا يثمر عن نتائج. وانصرف قادة وملوك وأباطرة العالم إلى حياة اللهو والترف، على حساب مقدَّرات الشُّعوب المُضلَّلة المغلوبة على أمرها. في وسط هذا الجو الحالك السَّواد بُعث في مكة المكرمة رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم برسالة عالميَّة الطَّابع، ذات أبعاد إنسانيَّة راقية المضمون، جوهرها التوحيد والعدل والمساواة، رسالة خاتمة ومتمِّمة للديانات السَّماويَّة الأُخرى وصالحة لكل زمان ومكان. ولقد استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم، بالرغم من العقبات والصعوبات الجمة وبتأييد من الله تعالى وبما أوتي من شخصية فذة وقدرات خارقة، أن يشق طريقه في مجتمع مكة الجاهلي ثم في المدينة المنورة بعد هجرته إليها. وفي المدينة المنورة وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قواعد الدَّولة الإسلاميَّة العالميَّة. وتأكيداً لعالميَّة الإسلام أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في السَّنة السَّابعة للهجرة برسائل إلى أربعة من أعظم ملوك الأرض في عصره وهم: هرقل إمبراطور الروم، وكسرى ملك فارس، والمقوقس عظيم القبط، والنجاشي صاحب الحبشة، يدعوهم إلى دخول الإسلام الذي هو هدى للعالمين ومنقياً للديانات السَّماويَّة الأُخرى مما شابها من بدع وخرافات وأوهام، ولكن جاهلية هؤلاء القادة وخوفهم من أن يفقدوا مناصبهم وامتيازاتهم منعتهم من الاستجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفضلوا البقاء على كفرهم وجاهليتهم. وبالرغم من ذلك، كان صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى على يقين تام من انتشار الإسلام عالمياً، ووعد صحابته، وهم كانوا لا يزالون قلة مُستضعَفة، بأن يؤول إليهم ملك قيصر وكسرى. كانت أنظار الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ترنو إلى بلاد الشَّام كأوَّل محطَّة لنشر

رسالته التوحيديَّة عالمياً، لأن بلاد الشَّام أرض عربيَّة، سكنتها القبائل العربيَّة منذ عدة آلاف من السِّنين، وتقع فيها مدينة القُدس قبلة المسلمين الأولى. وقد سبق للرسول صلى الله عليه وسلم أن فتحها معنوياً ليلة الإسراء والمعراج، بالإضافة إلى الرَّوابط التِّجاريَّة الوثيقة بينها وبين الجزيرة العربيَّة. وفي السَّنة الثَّامنة هجرية الموافقة 629 للميلاد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم حملة استطلاعية صغيرة مكونة من 3000 رجل فقط بقيادة زيد بن حارثة إلى بلاد الشَّام، توغَّلت الحملة في جنوب بلاد الشَّام واشتبكت مع الرُّوم في بلدة مؤتة، ونظراً للتفوق العددي الهائل للرُّوم واستحالة تحقيق النصر عليهم لحداثة عهد المسلمين بالحروب الدولية، اقترح خالد بن الوليد رضي الله عنه، وهو وقتئذ مجرد مقاتل عادي، العودة إلى المدينة المنورة وخصوصاً بعد استشهاد قادة الحملة الثلاثة: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة رضي الله عنهم. قاد رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة استكشافية أُخرى إلى منطقة تبوك الواقعة عند الأطراف الشَّماليَّة لشبه الجزيرة العربيَّة، وكانت تحت النفوذ البيزنطي في ذلك الوقت، وبعد أن حققت الغزوة أهدافها، عادت إلى المدينة المنورة.

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم الاستعداد لفتح بلاد الشَّام فجهز جيشاً قوياً بقيادة أسامة بن زيد، ولكنه توفي في 12 ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة الموافق لعام 632 للميلاد. انشغل خليفة رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه في السَّنة الأولى لخلافته بالتَّصدي بشدَّة وحزم لحركات الردَّة التي أعقبت انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم للرفيق الأعلى. وبعد هدوء الأحوال في الجزيرة العربيَّة، بالقضاء على المرتدين، بدأ أبو بكر الصديق رضي الله عنه استكمال ما شرع به الرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة لفتح بلاد الشَّام، فجهز الجيوش التي زحفت نحو بلاد الشَّام، ووضع لها قبل خروجها دستور الحرب الإسلاميّ المستوحى من القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة المشرَّفة عندما أوصى جنوده بقوله: {وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم}.

انطلقتْ الجيوش الإسلاميَّة لتكتسح بلاد الشَّام مُحقِّقة النَّصر تلو النَّصر على جيوش الرُّوم، وخاضت معهم معارك عظيمة، كان من أهمها معركة اليرموك، التي مهدت الطَّريق للسَّيطرة على جميع بلاد الشَّام، ومعركة أجنادين بين مدينتي اللد والرملة، التي فتحت الطَّريق لتحرير مدينة القُدس. وبعد وفاة أبو بكر الصديق تولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وفي عهده حررت بلاد الشَّام جميعها ولم يبقَ للرُّوم وجود عسكري إلا في قيسارية ومدينة القُدس. وبعد استشارة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قرر أبو عبيدة عامر بن الجراح، القائد العام لجيوش المسلمين في بلاد الشَّام، الزحف نحو مدينة القُدس عام 636، وحاصرها بجيوشه حصاراً محكماً لمدة أربعة أشهر، فاضطرت الحامية العسكريّة الرُّومانيّة في المدينة وسكانها للاستسلام للجيوش الإسلاميَّة دون قتال شريطة أن يأتي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتسلم المدينة بنفسه. أرسل أبو عبيدة بن الجراح رسولاً ليخبر الخليفة بطلب الرُّومان في القُدس، فسارع الخليفة بالسَّفر إلى فلسطين، ثم تسلَّم مدينة القُدس من البطريرك الرُّومانيّ صفرنيوس الذي طلب من الخليفة أن لا يسمح لليهود بالسَّكن في المدينة. ومنذ ذلك الحين أصبحت المدينة تُعرف باسم "بيت المقدس" بدلاً من الاسم الرُّومانيّ "إيلياء". وبعد تسلم عمر بن الخطاب لمدينة القُدس كتب لأهلها وثيقة الأمان المعروفة باسم العهدة العمريَّة، ونورد هنا نصها لأهميته الإنسانية البالغة التي تعبر بصدق عن أخلاق المسلمين وتسمحهم وهم في أوج انتصاراتهم وقمة مجدهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين: أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقض منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا أي شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرُّوم واللصوت. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن

يسيير بنفسه وماله مع الرُّوم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الرُّوم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. على ما هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المسلمين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة 15».

كان دخول المسلمين لمدينة القُدس في العشرين من ربيع الأول من العام الخامس عشر للهجرة الموافق للثاني من أيار/ مايو عام 636 للميلاد.

الأهميَّة الدِّينيَّة لبيت المقدس

بيت المقدس وفلسطين بصفة عامَّة، في منظور إسلامي، هي الأرض المباركة والمُقدَّسة، أرض الرباط وأرض المحشر والمنشر. هي أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشَّريفين، ومنها عرج رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم للسَّموات العلى ليلة الإسراء والمعراج. وهي أيضاً مهد رسالة عيسى بن مريم عليه السَّلام، ومهبط الوحي على عدد كبير من الأنبياء عليهم السَّلام.

أولاً: الأرض المباركة

فلسطين وبيت المقدس أرض مباركة بارك الله تعالى فيها للعالمين، وهي مباركة منذ الأزل لذاتها هي وليس لأي شيء آخر، شأنها في ذلك شأن مكة المكرمة. أما ما ذهب إليه المفسِّرون بقولهم إنها مباركة كونها تضمُّ قبور العديد من الأنبياء أو أنها مهبط وحي الكثير منهم، فهو قول غير دقيق، بل وينفيه القرآن الكريم، عندما يقرر أن الله تعالى قد نجى إبراهيم ولوط عليهما السَّلام إلى الأرض التي بارك فيها، وهذا يعني أن فلسطين أرض مباركة قبل وصول أبو الأنبياء إبراهيم عليه السَّلام إليها. يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

{ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين}[4].

---

[4] قرآن كريم: سورة الأنبياء، الآية 71.

ثانياً: الأرض المُقدَّسة

وفلسطين وبيت المقدس أرض مقدسة منذ قديم الزمن لذاتها أيضاً وليس لأي سبب من الأسباب أو لحدث معين بذاته. والأرض المُقدَّسة فلسطين هي نعمة الله تعالى في الأرض، يجد فيها المستضعفون والمطرودون المأوى والحماية والأمان، وقد أوحى الله تعالى لموسى عليه السَّلام أن يدخل بقومه الأرض المُقدَّسة التي أمرهم أن يدخلوها، ولكن بني إسرائيل تخاذلوا وجبنوا عن دخولها. يقول الله تعالى:

{يا قوم ادخلوا الأرض المُقدَّسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين❖ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجا منها فإن يخرجا منها فإنا داخلون}[5].

ثالثاً: أرض الرِّباط

1-عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشَّام من بعدي من العريش إلى الفرات، رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار ساحلاً ن سواحل الشَّام أو بيت المقدس فهو في جهاد إلى يوم القيامة».

2-روى الإمام أحمد رضي الله عنه في مسنده عن أبي أمامة الباهلي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله عز وجل وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس».

رابعاً: أرض المحشر والمنشر

يحشر الناس يوم القيامة في بيت المقدس، فقد روى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله: الصَّلاة في مسجدك أفضل من الصَّلاة في بيت المقدس؟ قال صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى هو أرض المحشر والمنشر».

---

[5] قرآن كريم: سورة المائدة، الآيات 21- 22.

خامساً: قبلة المسلمين الأولى

بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، أمره الله عز وجل بالتوجه نحو بيت المقدس في صلاته. وقد بقيت بيت المقدس قبلة المسلمين حوالي ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، فقال يهود المدينة «ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم»، فطلب صلى الله عليه وسلم من الله عز وجل أن يصرفه عما يعتقد اليهود أنها قبلتهم، وأخذ يطيل النظر في السماء انتظاراً لجبريل عليه السَّلام أن يأتيه بالرد. استجاب الله عز وجل لطلب رسول الله وبدل قبلة المسلمين في منتصف شهر شعبان أو رجب من بيت المقدس إلى مكة المكرمة. يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

{قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون}[6].

سادساً: ثاني المسجدين

المسجد الأقصى ببيت المقدس هو ثاني مسجد وضع في الأرض بعد المسجد الحرام بمكة، ويبدو أن موقع المسجدين قد حدد منذ قديم الزمان، والفارق الزمني بينهما حوالي أربعين سنة. ويقال إن الملائكة قاموا ببنائهما قبل آلاف السنين من خلق آدم عليه السَّلام. قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: «سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى» رواه البخاري ومسلم والنسائي. أما إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السَّلام فقد قاما برفع قواعد بيت الله الحرام.

سابعاً: ثالث الحرمين الشَّريفين

1-عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا». رواه الإمام البخاري رضي الله عنه.

---

[6] قرآن كريم: سورة البقرة، الآية 144.

2-عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضّلت الصَّلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدي بألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة». رواه الإمام أحمد رضي الله عنه.

ثامناً: الإسراء والمعراج

في ليلة الإسراء والمعراج التي تمَّتْ ليلة السَّابع والعشرين من رجب قبل الهجرة النبويَّة بسنة وبضعة أشهر، أسرى الله تعالى برسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من مكة المكرَّمة إلى بيت المقدس، ليربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى برباط رباني أبدي وثيق، ويؤاخي بين أرض الحجاز وأرض فلسطين. يقول الله تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير}[7]. وبعد أن صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إماماً بجميع الأنبياء في المسجد الأقصى المبارك، عرج به من بيت المقدس إلى السموات العلى في أول رحلة فضائية ربانية عرفها التَّاريخ. حيث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى وأوحى إليه ما أوحى. يقول عز وجل: {ولقد رآه نزله أُخرى❖ عند سدرة المنتهى❖ عندها جنة المأوى❖ إذ يغشى السدرة ما يغشى❖ ما زاغ البصر وما طغى❖ لقد رأى من آيات ربه الكبرى}[8].

ومنذ تحرير بيت المقدس، في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، احتلَّت مدينة القُدس مكانة مرموقة في الإسلام، واهتم بها الخلفاء الراشدون والخلفاء الأمويُّون. وفي عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وابنه الخليفة الوليد بن عبد الملك، تمَّ بناء الحرم القُدسي الشَّريف الذي يضمُّ مسجد قبَّة الصَّخرة الذي بُني أولاً، والمسجد الأقصى نفسه الواقع على بعد حوالي 500 متر من مسجد قبَّة الصَّخرة. وقد أولى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وابنه الخليفة الوليد مدينة القُدس اهتماماً خاصاً، فأعادا إعمارها وبناء

---

(7) قرآن كريم: سورة الإسراء، الآية الأولى.

(8) قرآن كريم: سورة النجم، الآيات 13- 18.

ما تهدَّم من أسوارها، وقاما بتجميل المدينة بالمساجد والقصور الفاخرة حتى غدت مدينة رائعة الجمال. وقد واصل خلفاء العصر العباسيّ الاهتمام ببيت المقدس، ولكن بعد وفاة الخليفة العباسي المأمون بن المهدي (813- 833)، اندلعت الثَّورات وحركات التَّمرُّد داخل دولة الخلافة العباسيَّة المترامية الأطراف، وقد ساعد على ذلك حالة الفوضى والضُّعف وسوء الأحوال الاقتصاديَّة، إضافة إلى سيطرة المماليك والسَّلاجقة الأتراك على زمام الأمور وتقلدهم للمناصب الحساسة في الدَّولة. كانت مصر وجنوب بلاد الشَّام مسرحاً رئيسياً للحركات الانفصاليَّة داخل الخلافة العباسية مما أدى إلى ظهور دويلات الأسر الحاكمة كالدَّولة الطُّولونيَّة والإخشيديَّة والسَّلجوقيَّة، ليس هذا فحسب بل ظهرت خلافة مناوئة سياسياً ومذهبياً للخلافة العباسيَّة هي دولة الخلافة الفاطميَّة. وقد خضعت مدينة القُدس تبعاً لذلك لحكام تلك الويلات فترة من عمرها.

4-4: القُدس تحت حُكْم الطُّولونيِّين

تأسَّست الدَّولة الطولونيَّة في مصر على يد المملوك التركي الأصل أحمد بن طولون. كان أحمد بن طولون متزوجاً من ابنة السُّلطان برقوق الذي عينه والياً للخليفة العباسي على مصر. ولكن أحمد بن طولون أعلن انفصاله عن الدَّولة العباسيَّة وانفرد بحكم مصر، وفي عام 878 قام السُّلطان أحمد بن طولون بغزو فلسطين واحتلال بيت المقدس، ثم زحف بجيشه شمالاً واحتل مدينة دمشق وبقية مناطق بلاد الشَّام. خضعت مدينة القُدس فترة قصيرة للحكم الطولوني، فبوفاة مؤسس الدَّولة الطولونيَّة خلفه ابنه خمارويه في الحُكْم، ثم جيش بن خمارويه، الذي حكم لفترة قصيرة، فورثه شقيقه أبو موسى هارون، وحكم لمدة تسع سنوات قبل أن يُقتَل. وبمقتله انهارت دولة الأسرة الطولونيَّة، التي حكمت مصر وبلاد الشَّام لمدة أربعة عشر عاماً (870- 884)، وبذلك عادت مدينة القُدس إلى الحُكْم المركزي العباسي في بغداد.

4-5: القُدس تحت حُكْم الإخشيديِّين

بعد قضاء الجيش العباسي على الدَّولة الطولونيَّة واسترجاع مصر وبلاد الشَّام للحكم العباسي، كان الخلفاء العباسيُّون يعيِّنون ولاة بمعرفتهم لحكم مصر وبلاد الشَّام. وفي عهد الخليفة العباسي القاهر بالله بن المعتضد، أسند إلى والي دمشق التركي الأصل محمد بن طفج مهمة حكم مصر وفلسطين، ولكن محمد بن طفج سرعان ما أعلن انفصاله عن الخلافة العباسيَّة في بغداد وحكم تلك البلاد بصفة مستقلة عنها منذ عام 934. فلم يجد الخليفة العباسي حفاظاً على ماء وجهه بداً من أن يمنح محمد بن طفج لقب "إخشيد" أي الملك على مصر وفلسطين وسورية. عرفت هذه المملكة تاريخياً باسم الدَّولة الإخشيدية، وبعد وفاة مؤسسها عام 945، تولى ابنه أبو القاسم محمد حكم الدَّولة الإخشيدية، ونظراً لصغر سنه تم تعيين أبو المسك كافور وصياً للعرش. كان أبو المسك كافور مملوكاً زنجياً اشتهر في كتب التَّاريخ باسم كافور الإخشيدي، وعرف عنه الشجاعة ورجاحة العقل، وأصبح هو الحاكم الفعلي لمصر وبلاد الشَّام طيلة حكم أبي القاسم محمد وشقيقه أبو الحسن. وأخيراً تولى كافور حكم الدَّولة الإخشيديَّة بصفة رسميَّة عام 966. ومن الجدير بالذكر أن السَّلاطين الإخشيديِّين أحاطوا مدينة القُدس بعناية خاصَّة، وحسب وصيتهم دفنوا فيها جميعاً. وبوفاة كافور الإخشيدي زالت الدَّولة الإخشيديَّة.

6-4: القُدس تحت حُكْم الفاطميِّين

أسس سعيد بن حسن الخارجي الملقب باسم "عبيد الله المهدي" الدَّولة الفاطميَّة عام 909 في تونس. وقد اختلف المؤرِّخون في أصل هذا الرَّجل، فمنهم من ينسبه إلى عبد الله بن ميمون الفارسي المؤسِّس الثَّاني للحركة الإسماعيليَّة، ومنهم من ينفي نسبه الفاطمي، وينظرون إليه كمحتال ودجَّال، وينسبونه إلى أب يهودي الدِّيانة. تمكَّن عبيد الله المهدي من القضاء على دولة الأغالبة في تونس، وأعلن عام 909 عن قيام الدَّولة الفاطميَّة نسبة إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، كأول دولة شيعية في العالم العربي. وتطبيقاً لسياسة عبيد الله المهدي الرامية إلى التوسع والامتداد الإقليمي وتكوين دولة عظمى في المنطقة، تحركت الجيوش الفاطميَّة لتجتاح الشمال الأفريقي بأسره، ومما زاد من فاعلية الجيوش الفاطميَّة وضاعف من قدراتها العسكريَّة: الأسطول البحري الضخم الذي ورثته عن الأغالبة، إذ تمكن هذا الأسطول من السَّيطرة على موانئ الشَّمال الأفريقي، وبسط السِّيادة الفاطميَّة على بعض الجزر الكبرى في البحر الأبيض المُتوسِّط. وفي عام 914 احتل عبيد الله المهدي مدينة الإسكندريَّة المصريَّة ومعظم مناطق دلتا نهر النيل، وقد تمكن القائد الفاطمي جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي من احتلال مدينة الفسطاط المصريَّة عام 969، وفي نفس العام احتلت الجيوش الفاطميَّة مدينة القُدس وفلسطين كلها، ثم توجهت شمالاً، واحتلت مدينة دمشق. وفي عام 973 أمر المعز لدين الله الفاطمي ببناء مدينة جديدة بالقرب من الفسطاط، أطلق عليها اسم "القاهرة"، وجعل منها عاصمة لدولته. وقام أيضاً ببناء الجامع الأزهر، وجعله مركزاً لتدريس المذهب الشيعي في مصر. وقد بلغت الدَّولة الفاطميَّة أقصى اتساع لها في عهد الخليفة العزيز بالله (975- 996) وأصبحت تنافس دولة الخلافة العباسية قُوَّة واتساعاً. وقد عامل العزيز بالله نصارى ويهود مدينة القُدس معاملة حسنة وتزوج من امرأة مسيحية، وعين والياً قبطياً على مدينة القُدس هو أبو اليمن قزمان بن مينا الكاتب. ولكن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (996- 1020) انقلب على النصارى في فلسطين، وقام بهدم كنيسة القيامة في القُدس، ويرجع

المؤرِّخون ذلك إلى قيام الرُّوم بهدم وإحراق بعض المساجد في حروبهم مع المسلمين، وإلى احتكار الوالي القبطي في القُدس للمناصب الحساسة والوظائف العامَّة في ولايته لأبناء جلدته، إضافة إلى تدفق الآلاف من المسيحيين إلى مدينة القُدس للموت بجوار قبر السَّيِّد المسيح، بعد أن راجت إشاعة وقتئذ تقول بقرب يوم القيامة، ولما لم تحدث القيامة في اليوم المحدد غضب الحاكم بأمر الله غضباً شديداً، واعتبر ما حدث من النصارى يهدد أمن واستقرار المدينة المُقدَّسة، ويغير من واقعها الديموغرافي، فأمر بهدم كنيسة القيامة على الفور. وفي عهد الحاكم بأمر الله أيضاً حدث زلزال في مدينة القُدس عام 1015، أدى إلى تدمير أجزاء كبيرة من أسوار الحرم القُدسي الشَّريف، وانهارت قبة مسجد الصَّخرة، ولم يتم ترميمها إلا في عهد الخليفة الفاطميِّ الظَّاهر لإعزاز دين الله (1020- 1035). وفي عام 1034 حدث زلزال آخر في المدينة المُقدَّسة، ألحق أضراراً بسيطة في المسجد الأقصى. وفي عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطميٍّ (1036- 1094) سمح للمسيحيِّين بإعادة بناء كنيسة القيامة، بعد أن تعهَّد الإمبراطور البيزنطيُّ ميخائيل الرَّابع ببناء مسجدين في مدينة القسطنطينيَّة.

الفصل الخامس

القُدس خلال الألفيَّة الثَّانية للميلاد

بعد تمكن السَّلاجقة الأتراك من توطيد أركان حكمهم داخل دولة الخلافة العباسيَّة، وتقلَّدوا مناصبها الحسَّاسة، وأصبح زمام أمورها في أيديهم، قامت جيوشهم بالزَّحف نحو فلسطين وانتزعوا مدينة القُدس من أيدي الفاطميِّين عام 1027. ولكن الفاطميِّين استعادوا المدينة عام 1096 وبقيت في أيديهم ثلاث سنوات حتى الاحتلال الصَّليبيّ لها. ففي القرون الوسطى تعرض المشرق العربيّ لسلسلة من الحملات العسكريّة قادها الغرب المسيحي ضد المسلمين، وعرفت تاريخياً باسم الحروب الصَّليبيّة. وقد أدت أولى هذه الحملات إلى سقوط مدينة القُدس في أيدي الصَّليبيّين عام 1099، وأسَّسوا فيها مملكة صليبيَّة دامت لحوالي 88 عاماً. وفي القرون الوسطى أيضاً اجتاح البرابرة المغول ديار المسلمين، وأسرفوا في قتل العباد وتخريب البلاد، وقوَّضوا الخلافة العباسيَّة بعد احتلالهم لبغداد عام 1258. ويرجع الفضل الأول للقائد المملوكي سيف الدين قطز في وقف الزحف البربريِّ للمغول، وتخليص العالم من شرورهم، بهزيمته لجيوشهم هزيمة نكراء، في معركة عين جالوت بفلسطين عام 1260.

وقد شهد النُّصف الثَّاني من الألفيَّة الثَّانية للميلاد خضوع العالم العربيّ لسيطرة الأتراك العثمانيِّين، وآلت مدينة القُدس للحُكم العثمانيّ حوالي أربعة قرون. وأثناء الحرب العالميَّة الأولى، سقطت مدينة القُدس عام 1917 في قبضة القوَّات البريطانيَّة. وبعد احتلال الجيش البريطاني لفلسطين كلها 1918، وضعت البلاد تحت إشراف القيادة العسكريّة لأراضي العدو المحتلة الجنوبيَّة، ثم استُبدلت هذه الإدارة بإدارة مدنية عام 1920. وفي عام 1923 بدأت بريطانيا في

تنفيذ قرار انتدابها على فلسطين الصَّادر عن عصبة الأمم، وخلال فترة الانتداب التي استمرت 30 سنة، وضع الإنجليز فلسطين في ظروف سياسيَّة وإداريَّة واقتصاديَّة أدَّت، في النِّهاية، إلى إقامة الوطن القوميّ اليهوديّ فيها، وعندما تأكدتْ بريطانيا من مقدرة اليهود في فلسطين على إدارة شؤون البلاد، أعلنتْ إنهاء انتدابها لفلسطين في منتصف ليل الخامس عشر من أيار/ مايو 1948، فأعلن اليهود قيام دولتهم فيها. ومباشرة عقب هذا القرار اندلعتْ الحرب العربيَّة - الإسرائيليَّة الأولى وانتهت بهزيمة ساحقة للجيوش العربيَّة وبكارثة قوميَّة كبرى، إذ استولى الصَّهاينة على معظم الأراضي الفلسطينيّة، وسيطرت قواتهم على القسم الغربيّ من مدينة القُدس، في حين بقيت القُدس الشَّرقية في حوزة الجيش الأردني. وكنتيجة لحرب الأيام الستة في الخامس من حزيران/ يونيو عام 1967، أطبق الصَّهاينة على ما تبقى من الأرض الفلسطينيّة، وأعلنوا أن مدينة القُدس هي عاصمتهم الموحَّدة الأبديَّة.

5-1: القُدس تحت حُكْم السَّلاجقة الأتراك

في مطلع الألفيَّة الثَّانية للميلاد، تدهورت أوضاع العالم الإسلاميّ، ووصلت إلى حالة مزرية من التفكك والفوضى والضُّعف وسوء الأحوال الاقتصاديَّة، وفي الواقع انقسم العالم الإسلاميّ على نفسه، وأصبحت تتنازعه ثلاث خلافات متناحرة، الأولى: دولة الخلافة العباسيَّة في بغداد، والثَّانية: دولة الخلافة الفاطميَّة في القاهرة، أما الثَّالثة: فكانت دولة الخلافة الأمويَّة في الأندلس. لم يقتصر الأمر على ذلك، بل ظهرت عدة دويلات مستقلة، لا تتبع أي من هذه الخلافات الثَّلاث، مثل دولة بني بويه في فارس، ودولة نصر بن أحمد السَّاماني في خراسان، والدَّولة الطولونيَّة ثم الإخشيديَّة في مصر، واستقلَّ بنو حمدان بالموصل وحلب وديار بكر وربيعة ومضر "الدَّولة الحمدانية". وفي ذلك الوقت ظهر القائد التركماني سلجوق بن تقاق، الذي كان قد اعتنق الإسلام على المذهب السِّني هو وقومه، وحسن إسلامهم في بادئ الأمر، وعرفوا فيما بعد باسم السَّلاجقة الأتراك. خرج القائد سلجوق بن تقاق من موطنه الأصليٍّ في سهول القيرغيز بتركستان، وزحف بجيوشه غرباً واستولى على بخارى وأذربيجان، ثم قام حفيداه "طغرل بك محمد وجغرى بك داود" باجتياح خراسان ثم اكتسحوا الولايات الغربيَّة للدولة الغزنويَّة والولايات التَّابعة لبني بويه. وفي عام 1055 وصل طغرل بك محمد بجيوشه إلى مشارف مدينة بغداد. فخرج الخليفة العباسي القائم بأمر الله (1031 - 1075) لاستقباله والترحيب بالغازي الجديد. ترك القائد السلجوقي طغرل بك محمد مدينة بغداد وتوجه إلى آسيا الصُّغرى حيث حاصر بلدة "ملاذكرد" الاستراتيجيَّة التي كانت خاضعة للنفوذ البيزنطي، ولما لم يتمكَّن من احتلالها، عاد إلى بغداد، وطلب مقابلة الخليفة العباسي الذي استقبله بحفاوة بالغة. وعند اللقاء قام طغرل بك محمد بتقبيل يد الخليفة، ثم جهَّز له حراسات خاصَّة من جنوده، ونشر وحدات من جيشه حول بغداد، لحمايتها من أعداء الخليفة العباسي. وقد تجلَّت العلاقات الطَّيبة بين البيت العباسي والسَّلاجقة، بزواج الخليفة القائم بأمر الله من ابنة شقيق طغرل "جغرى بك داود"، ثم زواج طغرل بك محمد نفسه بابنة الخليفة القائم بأمر الله، وقد خلع الخليفة على طغرل بك محمد لقب "سلطان". ومنذ ذلك الحين تغلغل

السَّلاجقة الأتراك في جميع أجهزة الخلافة العباسيَّة، وتقلَّدوا المناصب الحساسة فيها، حتى أصبحوا هم الحكام الفعليِّين لبغداد، وغدا الخليفة العباسي مجرد رمز للخلافة وحاكم صوري لها، إن شاء السَّلاجقة أبقوه، وإن شاؤوا خلعوه أو قتلوه، ويتوقف ذلك على مدى ولاء الخليفة لهم والتزامه بتلبية رغباتهم.

توفي طغرل بك محمد عام 1063 فخلفه في حكم الولايات السَّلجوقيَّة "ألب أرسلان" ابن شقيقه جغرى بك داود. تمكَّن السُّلطان السلجوقي ألب أرسلان (1063 - 1072) من هزيمة جيوش الرُّوم في معركة "ملاذكرد" بآسيا الصُّغرى، وقد تمَّ أسر الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس ومعظم قادته في معركة ملاذكرد التَّاريخية. وقد ترتب على نتائج هذه المعركة تمكُّن السَّلاجقة الأتراك من اجتياح آسيا الصُّغرى، وتهديدهم المباشر للقسطنطينيَّة عاصمة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة الشَّرقيَّة. وفي عام 1071 أرسل السُّلطان ألب أرسلان القائد السلجوقي إتسز بن آوق الخوارزمي على رأس حملة عسكريَّة إلى فلسطين، لانتزاع مدينة القُدس من يد الفاطميِّين في مصر، وقد تمَّ له ذلك، ثم احتل مدن اللد والرملة وعكا وغيرها من المدن الفلسطينيّة. وفي عهد السُّلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان (1072 - 1092) استولى السَّلاجقة على مدينة دمشق وضمُّوها إلى إمبراطوريتهم. وفي عام 1076 حاول القائد إتسز بن آوق الخوارزمي غزو مصر والقضاء على الدَّولة الفاطميَّة، ولكنه هُزم هناك وطُرد منها، وكردٍّ فعلٍ لذلك، قام القائد الفاطمي ناصر الدَّولة الجيوشي بغزو فلسطين عام 1078 وتَمكَّن من احتلال مدينة القُدس، ثم تابع زحفه نحو مدينة دمشق، فسارع إتسز بن آوق بالاستنجاد بالقائد السلجوقي تتشى بن السُّلطان ألب أرسلان الذي هبَّ لنجدته، وطرد الفاطميِّين من بلاد الشَّام، واسترجع مدينة القُدس من أيديهم. وبعد هذا الانتصار غدر تتشى بن ألب أرسلان بحليفه إتسز الخوارزمي، وقام بقتله واستولى على الحُكم في دمشق. عين تتشى بن ألب أرسلان القائد السلجوقي أرتق بن أكسيك التركماني حاكماً عاماً لمدينة القُدس وتوابعها، ولما توفي أرتق عام 1091 تولى الحُكم ولداه "أيلغازي وسقمان"، وبقيا في الحُكم حتى احتلال الفاطميِّين للمدينة مرة أُخرى عام 1096. وفي دمشق قُتل القائد تتشى بن ألب أرسلان، فتولى الحُكم من بعده ولداه "رضوان ودقاق"،

وآلت فلسطين ومدينة القُدس للحكم المباشر لدقاق بن تتشى ألب أرسلان. كان العصر الذَّهبي للدولة السلجوقيَّة في عهد ملك شاه بن ألب أرسلان؛ حيثُ بلغت أوج مجدها وقوتها واتِّساعها. وبوفاة السُّلطان ملك شاه عام 1092 تفكَّكتْ الدَّولة السلجوقيَّة الشَّاسعة، ثم تفتتتْ وانقسمت إلى دويلات الأتابكة. ويبدو أن السَّلاجقة الأتراك لم يكونوا رجال دولة محنَّكين بقدر ما كانوا قادة عسكريين مهرة وشجعان، فقد عاملوا شعوبهم بالقسوة والعنف وبكثير من الغطرسة والاستعلاء، ولذلك فشلوا في كسب مودة الشُّعوب وكرههم الناس كرهاً شديداً، فعندما هزم القائد السلجوقي إتسز بن آوق الخوارزمي في مصر قام الشَّعب الفلسطينيّ في مدينة القُدس بانتهاز الفرصة وثار ضد السَّلاجقة بقيادة قاضي قضاة المدينة، فقام إتسز الخوارزمي بحصار المدينة ثم اقتحمها بالقُوَّة وسحق ثورتها ونكل تنكيلاً شديداً بسكانها.

5-2: القُدس تحت الحُكْم الفاطميِّ مرة أُخرى

انتهز القائد الفاطميُّ بدر الدين الجمالي - أمير الجيوش الفاطميَّة والحاكم الفعلي لمصر - فرصة النِّزاع على الحُكْم في دمشق بين أبناء القائد السلجوقيِّ تتش آلب أرسلان، وقام بالزحف نحو فلسطين، ثم استرجع مدينة القُدس من أيدي السَّلاجقة عام 1096. وقد بقيت المدينة في أيدي الفاطميين، حتى الاحتلال الصَّليبيّ لها عام 1099.

5-3: القُدس تحت حُكْم الصَّليبيّين

أولاً: الحُرُوب الصَّليبيّة

الحروب الصَّليبيّة عبارة عن سلسلة طويلة من الحملات العسكريّة، قادها الغرب المسيحي ضد المشرق العربيّ المسلم، خلال القرون الوسطى، بهدفٍ معلن، هو احتلال الأراضي المُقدَّسة، وإنقاذ قبر المسيح من أيدي المسلمين. والاحتلال الصَّليبيّ لفلسطين وأجزاء من بلاد الشَّام هو نوع من الاستعمار الاستيطانيّ الإحلالي، يشبه إلى حدٍّ كبير الكيان الصُّهيونيّ الغاصب في فلسطين العربيَّة الآن. وتعتبر الحروب الصَّليبيَّة أطول حروب ذات طابع دولي عرفها التَّاريخ، إذ اشتركتْ فيها جميع الدُّول الأوروبيَّة تقريباً، واستمرَّتْ حوالي قرنين من الزمن (1096 - 1294).

أوضاع العالم الإسلاميّ عشيَّة الحُرُوب الصَّليبيّة

خلال أربعة قرون من الحُكْم العربيّ الإسلاميّ، كانت فلسطين ومدينة القُدس، كغيرها من الولايات الإسلاميَّة، تتمتع بقدر وافر من الأمن والاستقرار، وتنعم بكثير من الرَّخاء والازدهار، فقد أولاها الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم عناية خاصَّة وأعطوها أهميَّة كبيرة. ولقد استمر هذا هو حالها في عهد الخلفاء الأمويِّين وخلفاء العصر العباسيِّ الأوَّل. وبحلول القرن الميلادي الحادي عشر، بدأتْ عوامل الانحطاط والتخلف تعصف بالدَّولة الإسلاميَّة الموحدة، ووصلتْ إلى حالة بائسة من الضُّعف، وفقدتْ هيبتها، وسادتها الفرقة والتناحر. ومن أهم هذه العوامل ما يلي:

1-تدهور الأوضاع السِّياسيَّة والعسكريّة والاقتصاديَّة في دولة الخلافة العباسيَّة في بغداد، فأصيبتْ بالضُّعف الشَّديد وفقدتْ المقدرة على السَّيطرة على أقاليمها المترامية الأطراف، مما أدى إلى ظهور الحركات الانفصالية في العالم الإسلامي، وأصبحت تتنازعه ثلاث خلافات متناحرة ومتصارعة ومختلفة الاتجاهات الدِّينيَّة والسِّياسيَّة. ففي الأندلس ظلَّت الخلافة الأمويَّة تغرِّد خارج السِّرب العباسي، ولم تكن يوماً خاضعة لها. وفي بغداد كانت الخلافة العباسيَّة

تعاني من سكرات الموت. وفي القاهرة كانت الخلافة الفاطميَّة مشغولة بنزعاتها التَّوسعيَّة على حساب الدَّولة العباسيَّة. وظهر أيضاً العديد من الدويلات المستقلة مثل الدَّولة الطُّولونيَّة والإخشيديَّة في مصر، والدَّولة الحمدانيَّة في حلب والموصل، ودولة بني بويه في فارس، إضافة إلى دويلات الأتابكة التي يحكمها قادة العساكر في آسيا الصُّغرى والوسطى*.

2-غياب العنصر العربيّ بتسامحه وعدله وتواضعه عن الحكومة المركزيَّة في بغداد، فبالرغم من وجود خليفة عربي في مقر الخلاقة العباسيَّة، إلا أنه كان خليفة صوريَّاً ليس بيده شيء، وآلت أمور الحكومة للماليك والسَّلاجقة، بما عرف عنهم من غطرسة وصلف، وما اشتهروا به من بطش وقسوة. وانصرف الخلفاء العباسيُّون إلى حياة الترف وبناء القصور، وانغمسوا في الفسق والفجور، وحذا حذوهم السَّلاطين السَّلاجقة وكبار رجال الدَّولة وقادة الجيوش "الأتابكة". وفي القاهرة لم يكن حال دولة الخلافة الفاطميَّة أحسن حالاً من الخلافة العباسيَّة، فقد سادت فيها الفوضى السِّياسيَّة والضُّعف، وسيطر المماليك والخصيان على زمام الأمور فيها.

3-تخاذل القوى العربيَّة والإسلاميَّة، نتيجة فقدانها للحس الديني والوعي القومي والوطني، ففي الوقت الذي كانت أوروبا المسيحيَّة تحشد جميع إمكانياتها السِّياسيَّة والعسكريّة والاقتصاديَّة وتعبئ شعوبها تعبئة روحية ومعنوية قوية للحرب ضد المسلمين، لم يتَّخذ العرب والمسلمون إجراءات مشابهة، وانشغلوا

---

* الأتابكة: الأتابكة كلمة مأخوذة من كلمة "أتابك" وأصلها في التركية كلمة "أطابك"، ومعناها مربي الملك أو الأمير، وأول من أطلق عليه هذا اللقب هو: نظام الدين الوزير الأول في بلاط السُّلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان. ولكن كلمة أتابك اشتهرت بعد استخدامها للدلالة على قادة العسكر أي قادة الجيوش. والأتابكية هي الإمارة التي يحكمها الأتابك، وبعض الأتابكيات كانت صغيرة جداً لا تتجاوز مساحتها حدود قرية صغيرة، أو أسوار قلعة من القلاع، وبعضها كانت كبيرة جداً وقوية تفوق مساحتها مساحة كثير من الدُّول المجاورة مثل أتابكية خوارزم التي أسسها محمد بن أنوشتيكن لذي عرف تاريخياً باسم خوارزم شاه. وأتابكية دمشق ومؤسسها هو ظهير الدين طغتكن، وأتابكية الموصل التي أسسها عماد الدين زنكي عام 1127، وهو أول مجاهد يقوم بقيادة حروب التحرير ضد الصُّليبيّين.

بشؤونهم الدَّاخليَّة وبحروبهم ضد بعضهم البعض، غير مُكترثين بالخطر الدَّاهم القادم إليهم من الغرب.

أسباب الحُرُوب الصَّليبيّة

لم يكن الدِّين وحده هو السبب الحقيقي للحروب الصَّليبيّة، وإنما انبثقت هذه الحروب عن مجموع التَّكوين الدِّينيِّ والفكريِّ والاجتماعيِّ والسِّياسيِّ والاقتصاديِّ، الذي كان سائداً في أوروبا خلال القرن الحادي عشر للميلاد، واتَّخذتْ هذه الحروب من الأوضاع الشَّاذة في مدينة القُدس، زمن حكم السَّلاجقة، ذريعة ومبرراً دينياً زائفاً لإشعال نيران الحروب الصَّليبيّة، والقيام بغزو ديار المسلمين. ومن أهم الأسباب التي أدت إلى الحروب الصَّليبيّة ما يلي:

1-يعتقد كثير من المؤرِّخين أن جذور الحروب الصَّليبيّة ترجع إلى الحقد القديم الذي يكنُّه الغرب المسيحيُّ للمسلمين منذ القرن السَّابع للميلاد، عندما تمكَّن العرب المسلمون من تحرير فلسطين وبيت المقدس من الاستعمار الرُّومانيّ، ورفعوا رايات الإسلام على كل شبر فيها. أما لماذا تأخَّرت هذه الحروب حتى القرن الحادي عشر الميلادي؟ فإن ذلك يرجع إلى قُوَّة المسلمين وذراعهم الطَّائلة التي أطبقتْ على الشَّرق والغرب. فانتظرتْ أوروبا حتى حلَّ الضُّعف والانقسام بالدَّولة الإسلاميَّة، ثم قاموا بالانقضاض على ديار المسلمين، للأخذ بثأرهم القديم منهم.

2-تشير معظم الدِّراسات التَّاريخيَّة، إلى أن السَّبب الحقيقيَّ للحروب الصَّليبيّة، يرجع إلى رغبة بابا الفاتيكان وقتئذ "أوربانوس الثَّاني" في الحدِّ من أطماع الأمراء والنُّبلاء وأولادهم في أموال الكنيسة وأملاكها وإقطاعياتها، وإبعاد أنظارهم كلية عنها، بدفعهم باسم الدِّين إلى خوض غمار حروب طاحنة في ديار المسلمين ذات الثَّروة الهائلة.

3-أما السَّبب المباشر للحروب الصَّليبيّة فكان الاستنفار العاجل الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومينوس للبابا أوربانوس الثَّاني عام 1095 يحثه فيه على تحريض الجماهير الأوروبيَّة وإلهاب حماسها للقتال ضد المسلمين بعد اجتياح السَّلاجقة الأتراك لآسيا الصُّغرى وتهديدهم المباشر

للقسطنطينية عاصمة بيزنطة الشَّرقية، التي تمثل ميراث أوروبا المسيحيَّة في الشَّرق، وذلك بعد انتصار السلطان السلجوقي المسلم "ألب أرسلان" على الروم عام 1071 في معركة ملاذكرد التَّاريخية بآسيا الوسطى وأسره للإمبراطور "رومانوس ديوجينس" ومعظم قادته.

وفي عام 1095 ألقى البابا أوربانوس الثَّاني خطبة حماسية في مدينة كليرمونت الفرنسيَّة حرض فيها المؤمنين المسيحيين على الاستعداد للزحف إلى فلسطين "الديار المُقدَّسة" وانتزاع قبر المسيح بمدينة القُدس من أيدي المسلمين الأشرار على حد قوله!! وصاح صيحته المشهورة "فلينطلق المسيحيون في الغرب لنجدة الشَّرق". فردَّت عليه جموع الغوغاء والرُّعاع بالموافقة، وصاحت قائلة: "دايوس فولت" أي أنها إرادة الله. استجابت لدعوة البابا جموع غفيرة من مختلف أنحاء أوروبا، وقد ساعد على ذلك قيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القيامة عام 1008، إضافة إلى الصُّورة القاتمة جداً التي قام بنقلها الرَّاهب الكاثوليكي الفرنسي الحاقد، الذي عرف تاريخياً باسم "بطرس الناسك" عن أوضاع المسيحيين في مدينة القُدس، لقد كرَّس هذا الرَّاهب حياته في تحريض الشُّعوب والحكام في أوروبا، لإعلان الحرب المُقدَّسة ضد المسلمين، بهدف إنقاذ قبر المسيح من يد المسلمين، وتأمين طريق الحجاج إلى القُدس. وقد سرت دعوة الرَّاهب الحاقد بطرس الناسك كالنار في الهشيم بين الجماهير. ولما رأى الزعماء السِّياسيُّون والدينيُّون في أوروبا نجاح هذه الدعوة، سارعوا إلى تبنيها ووضع الخطط السِّياسيَّة والعسكريّة لتنفيذها. والصُّورة التي نقلها بطرس الناسك، لم تكن صادقة على الإطلاق، لأن السَّلاجقة الأتراك حكام مدينة القُدس في ذلك الوقت، كانوا يعاملون المسلمين والمسيحيين، على حد سواء، معاملة قاسية ومستبدة.

الحملة الصَّليبيّة الأولى

في عام 1096 تحرَّكت الحملة الصَّليبيّة الأولى نحو بيت المقدس، وتكونت جيوشها من حوالي 70 ألف مقاتل، من جميع الممالك والإمارات الأوروبيَّة، وبخاصَّة من فرنسا وإيطاليا، واتفق الصَّليبيّون على وضع إشارة الصَّليب على

صدر ردائهم الخارجي وعلى الرَّايات التي يحملونها، ولهذا عُرفت هذه الحروب باسم الحروب الصَّليبيّة.

ضمت الحروب الصَّليبيّة الأولى في صفوفها كافة أصناف وألوان البشر، فمنهم رجال الدين والأمراء والنُّبلاء، ومنهم المغامرون والتُّجار من البندقيَّة وبيزا وجنوا، ولكن جل رجال الحملة الصَّليبيّة الأولى كانوا من الفقراء والفلاحين والعاطلين عن العمل، إضافة إلى اللُّصوص والمجرمين والعُصاة، الذين اعتقدوا أنهم بالمشاركة في غزو ديار المسلمين يكفِّرون عن ذنوبهم، وهذا ما يفسِّر مولد جيل جديد فاسد من الصَّليبيّين في فلسطين.

يقول الأب جاك دوفيتري - أسقف عكا - في تاريخه عن القُدس ما يلي: «.. كان هؤلاء الأبناء يختصمون لأتفه الأسباب، حتى إن بعضهم كان يستعين على بعض بأعداء النَّصارى في الغالب. وكان لا يرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان الدعار والراهبات العواهر».

انقسمت الحملة الصَّليبيّة إلى قسمين: ضمَّ القسم الأول عامَّة النَّاس وعرف باسم الحملة الشَّعبيَّة، وقادها الرَّاهب الحاقد بطرس الناسك والقائد "ألتر"، أما القسم الثَّاني فضمَّ الأمراء والنبلاء ورجالهم، بقيادة ثلاثة من كبار الأمراء هم: الأمير البلجيكي غودفري كونت بويون على رأس فرسان اللورين، والأمير الإيطالي بوهميند وابن أخته الأمير تانكرد على رأس الفرسان النورماند، والأمير ريموند سنجيل دي تولوز على رأس الفرسان الفرنسيين، وعين البابا أوربانوس الثَّاني الأسقف أدهيمار مفوضاً بابوياً للحملة.

سارت الحملة الصَّليبيّة الأولى عبر أوروبا ثم أوروبا الشَّرقيَّة وبلاد اليونان، حتى وصلت إلى القسطنطينيَّة عاصمة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة الشَّرقيَّة، وهناك توقَّفت الحملة الصَّليبيّة الأولى لبعض الوقت، حيث حاول الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينوس احتواءها واستغلالها في تحقيق أطماعه التقليديَّة القديمة في المشرق العربي، ولكنه فشل في مساعيه، فواصلت الحملة زحفها إلى إمارة الرُّها (أورفه) واستولوا عليها عام 1098، وأسَّسوا فيها أول إمارة صليبيَّة، وتولَّى حكمها الأمير بلودين شقيق الأمير غودفري. سار الصَّليبيّون جنوباً نحو أنطاكية

وأسوا الإمارة الصَّليبيّة الثَّانية فيها، ونصبوا القائد بوهميند أميراً لها. واصل الصَّليبيّون زحفهم في بلاد الشَّام وأسَّسوا الإمارة الثَّالثة في طرابلس، ثم احتلوا بيروت وصيدا. وفور وصولهم إلى فلسطين، استولوا على مدن عكا وأرسوف وقيسارية، ومنها إلى بيت المقدس. وفي الوقت الذي كانت فيه أساطيل التَّحالف الصَّليبيّ تهاجم وتحتل الموانئ الفلسطينيّة، مثل حيفا ويافا وناقلة العتاد والرجال والمؤونة للقوات الصَّليبيّة، اقتحم حوالي 12 ألف مقاتل صليبي مدينة القُدس في الخامس عشر من تموز/ يوليو عام 1099، بعد القضاء على حاميتها الفاطميَّة المكوَّنة من ألفين من الجنود المصريِّين والسُّودانيِّين بقيادة القائد الفاطمي افتخار الدَّولة. وفور دخولهم المدينة المُقدَّسة أفرغ الصَّليبيّون كل حقدهم القديم على السُّكَّان المدنيِّين العُزَّل، وارتكبوا بحقهم مذبحة بربريَّة بشعة، ذهب ضحيتها 70 ألف مسلم وأعداد كبيرة من المسيحيين العرب، وأُحرق اليهود داخل معبدهم. يقول شحادة طوطح وخليل بولس ما يلي:

«وأما ما عمله الصَّليبيّون من الفظائع والمنكرات وما أجروه من التوحُّش والهمجيَّة في المكان الذي صلب فيه سيدهم وقبر ودفن، لما يندى له جبين العالم المسيحي اليوم خجلاً وحياءً، ولكن الصَّليبيّين الذين كان شعارهم الصَّليب المقدَّس لم يبقوا على امرأة ولا طفل ولا شيخ. وكان قد هرب كثير من المسلمين إلى الحرم الشَّريف فتبعهم الفاتحون وذبحوهم هناك»[1].

ويقول غوستاف لوبون:

«كان سلوك الصَّليبيّين، حين دخلوا القُدس، غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النَّصارى، حين دخلها منذ بضعة قرون. فقد حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القُدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون لرمي أنفسهم من على الأسوار وحرق بعضهم بالنار، وكان لا يُرى في شوارع القُدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على قتلاهم. ولكن لم يكن هذا سوى قليل جداً مما أصابهم»[2].

---

[1] شحادة طوطح وخليل بولس: تاريخ القُدس ودليلها.
[2] غوستاف لوبون: حضارة العرب.

اقتحم الصَّليبيّون الحرم القُدسي الشَّريف وقتلوا من به من المدنيِّين، ونهبوا ما به من تحف ثمينة مثل القناديل الذهبيَّة المعلقة بالسَّلاسل، والأعمدة الفضيَّة القائمة في مختلف أرجاء المسجد الأقصى. ثم أعلنوا قيام مملكة أورشليم الصَّليبيّة في بيت المقدس، واختير القائد الصَّليبيّ غودفري دي بويون ملكاً لها، إلا أنه رفض لقب الملك وفضل بأن يعرف باسم حامي القبر المقدس!!، ونظراً لموت الأسقف أدهيمار، عيَّن البابا أوربانوس الثَّاني الأسقف دايمرت نائباً له في القُدس، رغم ما عرف عنه من سوء سلوك.

بعد احتلال مدينة القُدس بعشرين يوماً تقريباً، وصل إلى فلسطين الجيش الفاطمي الذي جهز للدفاع عنها، بقيادة الوزير بدر الدين الجمالي، وعسكر في بلدة عسقلان الفلسطينيّة، ولكن هذا الجيش مُني بهزيمة كبيرة على يد الصَّليبيّين، وفرَّ قائده بحراً إلى مصر. ومن الجدير بالذكر أن وفداً شامياً برئاسة قاضي قضاة مدينة دمشق زين الدين أبو سعد الهروي، وضمَّ بعض النَّاجين من مذابح القُدس سافر إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسيَّة وقدم عرضاً مُفصَّلاً عن مذابح القُدس في المساجد والأسواق والمنتديات، فتعاطف الناس تعاطفاً شديداً مع الوفد، ولكن الخليفة العباسي لم يحرِّك ساكناً.

بعد موت الأمير غودفري حامي القبر المقدس خلفه شقيقه الأمير بلدوين - أمير الرها - كأول ملك رسمي لمملكة أورشليم الصَّليبيّة، باسم الملك بلدوين الأول. عمرت مملكة أورشليم لمدة 88 عاماً، وتناوب على عرشها عشرة ملوك كان أولهم غودفري دي بويون (1099 - 1100)، أما آخرهم فكان الملك غي دي لوزنيان _1187 - 1188).

ثانياً: التَّحرير

بعد سقوط مدينة القُدس في أيدي الصَّليبيّين، كان الضُّعف والتَّخاذل قد وصل حداً مزرياً بالعالم العربيّ والإسلاميّ جعل الصَّليبيّون يضعون حامية عسكريَّة صغيرة جداً في مدينة القُدس مكونة من 300 جندي فقط دون أن تجرؤ أي من القوى العربيَّة أو الإسلاميَّة على مهاجمة المدينة وتحريرها من أيدي الصَّليبيّين. ولقد دأب المؤرِّخون الغربيُّون، المهتمُّون بكتابة تاريخ الحروب

الصَّليبيّة، التي استمرت لحوالي قرنين من الزمن (1096 - 194)، إلى تقسيم موازين القوى في هذه الحروب، إلى أربعة أقسام:

1-الخمسون سنة الأولى: وتمثل فترة التفوُّق الصَّليبيّ المطلق في الصِّراع الإسلاميّ - الصَّليبيّ.

2-الخمسون سنة الثَّانية: وتمثل فترة التوازن في القوى بين الفريقين المتصارعين.

3-الخمسون سنة الثَّالثة: وتمثل التفوق الإسلاميّ المطلق في هذا الصِّراع.

4-الخمسون سنة الرَّابعة: وتمثل انحلال القوى الصَّليبيّة في بلاد الشَّام ثم زوالها.

وقد يكون هذا التَّقسيم صحيحاً، ولكن من الناحية الزمنيَّة فقط، فالخمسون سنة الأولى من عمر الصِّراع الإسلاميّ الصَّليبيّ لم تمثل التفوُّق الصَّليبيّ المطلق، كما يزعم المؤرِّخون الغربيُّون، إذ إن الصَّليبيّين خلال هذه الفترة لم يحققوا نصراً عسكرياً واحداً بعد معركة القُدس، بل وفقدوا بعض إماراتهم مثل إمارة الرُّها (أورفه) وإمارة أنطاكية. والاحتلال الصَّليبيّ لبعض أجزاء بلاد الشَّام لم يكن مجرد احتلال عسكري فقط، وإنما كان نوعاً من الاستعمار الاستيطانيّ الإحلالي الخطير جداً من شأنه أن يؤدي للتالي:

1-زعزعة أمن واستقرار المشرق العربيّ بأسره، ويهدِّد مناطق إسلاميَّة جديدة للوقوع بين براثن الاستعمار الصَّليبيّ.

2-يمنع التواصل الجغرافي بين ولايات بلاد الشَّام المختلفة ويعرقل محاولات اتحادها أو وحدتها.

3-يقطع طرق المواصلات في المشرق العربيّ ويهدد مصالحه التجاريَّة والاقتصاديَّة.

4-يهدد بشكل خطير قوافل الحجاج المسلمين إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

5-يبدِّل من الواقع الديموغرافي واللُّغوي والديني والحضاري لبلاد الشَّام.

إستيقظ المسلمون على هذا الواقع المؤلم والمرير، المتمثل في العديد من المستوطنات الصَّليبيّة المنتشرة في بلادهم (خارطة رقم 3). ولكن لم تمضِ سوى

سنوات قليلة حتى كان العالم الإسلاميّ يموج بدعوات الجهاد العاتية المطالبة بتحرير الأرض العربيَّة من براثن الاستعمار الصَّليبيّ البغيض. وعلى عكس ما كان متوقعاً، لم تنطلق الصَّحوة الإسلاميَّة من بغداد عاصمة الخلافة العباسيَّة، قائدة العالم الإسلاميّ في ذلك الوقت، ولا من القاهرة عاصمة الخلافة الفاطميَّة، التي انتزع الصَّليبيّون بيت المقدس من بين أيديها، وإنما جاءت الصَّحوة الإسلاميَّة من العمق الإسلاميّ البعيد، وتحديداً من الولايات الإسلاميَّة التي يحكمها السَّلاجقة الأتراك في آسية الصُّغرى. والسَّلاجقة الأتراك جاؤوا أصلاً، وكما هو معروف، من بادية القرغيز في تركستان بآسية الوسطى، ثم تمكنوا من اجتياح العالم الإسلاميّ بجيوشهم المكونة من خليط عجيب من الترك والفرس والديلم والمغول أيضاً. ولأسباب عديدة استطاع السَّلاجقة الأتراك القبض على زمام الأمور في دولة الخلافة العباسيَّة وأصبحوا حكامها الفعليين في حين أن الخليفة العباسي كان مجرد رمز للحكم، وقد أدى ذلك إلى تقهقر دولة الخلافة العباسيَّة وانهيارها، مما أتاح الفرصة للصليبيين احتلال بيت المقدس. وبالرَّغم مما عرف عن القادة السَّلاجقة من غطرسة وتعسف في الحُكْم، وغدرهم وتنازعهم الدائم على الحُكْم، إلا أنه، وكما يبدو، قد أثارتهم النتائج المروعة التي تمخضت عنها الحملة الصَّليبيّة الأولى، وأحيت فيهم الحسَّ الدينيَّ والقوميَّ، وسرعان ما بدؤوا في العمل على توحيد الإمارات المتنازعة، واتفقوا مع الخليفة العباسي في بغداد على التَّحرك عسكريّاً باسم الشَّرعيَّة العباسيَّة للتَّصدي للقواعد الصَّليبيّة في الشَّمال، والتي تشكِّل مراكز الاتصال بين الدَّولة البيزنطيَّة والإمارات الصَّليبيّة الممتدة بين أنطاكية شمالاً ويافا وبيت المقدس جنوباً، ولقد برز في هذا المجال الأمير سقمان أمير ماردين والأمير جكرمش أمير الموصل، اللذان تمكنا من توجيه ضربات ساحقة للصليبيين في مرسيفان وحران. ولكن المقاومة الحقيقيَّة للوجود الصَّليبيّ والتي أدت إلى بدايات التَّحرير، وفتحت الطَّريق لتحرير بيت المقدس، بدأت بظهور القيادات الزنكيَّة في شمال العراق، فقد قام الأتابك مودود - عميد العائلة الزنكيَّة ووالي السُّلطان السلجوقي محمد شاه على شمال العراق - بشن عدة غارات ناجحة على إمارة الرُّها. ثم استدرج القائد الصَّليبيّ بوهيمند - أمير أنطاكية - إلى

معركة في العمق الإسلاميّ وهزمه هزيمة ساحقة عام 1101، وألقى القبض عليه؛ حيثُ ظلَّ أسيراً إلى أن فداه الصَّليبيّون بعد عامين. وبعد وفاة الأمير الزنكي مودود تولى الحُكْم في الموصل الأتابك عماد الدين زنكي (1127 - 1146)، لقد وضع هذا القائد الفذ يده على السَّبب الحقيقي للحالة المزرية التي وصل إليها المسلمون، فبذل الكثير من الجهد والوقت في توحيد الإمارات الإسلاميَّة المجاورة حتى أصبح هو السَّيِّد المطلق للموصل وسنجار وما حولهما وأعلن نفسه سُلطاناً عليهما، وبذلك ولدت الدَّولة الزنكيَّة. وفي عام 1144 تمكن المجاهد الكبير عماد الدين الزنكي من تحرير إمارة الرُّها "أورفه" من أيدي الصَّليبيّين. ثم زحف إلى إمارة أنطاكية ولكنه لم يتمكَّن من تحريرها. فعاد إلى الموصل وقضى أيامه في توحيد الإمارات الإسلاميَّة، فضم مدينة حلب وما حولها إلى سُلطانه. وقد أصبحتْ الدَّولة الزنكيَّة في عهد عماد الدين زنكي تمثل نواة الدَّولة الإسلاميَّة الموحدة والقُوَّة العسكريّة الإسلاميَّة الرئيسيَّة التي تقف في مواجهة الصَّليبيّين. وإزاء هذه التَّطوُّرات على السَّاحة الإسلاميَّة شعر الصَّليبيّون بقلق بالغ وخوف حقيقي على وجودهم ومستقبلهم كله في الشَّرق، فقاموا بشنٍّ غارات مُتتالية على مدن دمشق وحمص وحماه، بقصد احتلالها، ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل.

الحملة الصَّليبيّة الثَّانية

بعد تحرير إمارة الرها (أورفه) من الصَّليبيّين، وفشل الغارات الصَّليبيّة على دمشق وحمص وحماه ، خشي الصَّليبيّون أن يكون هذا مقدمة لضياع بقية الإمارات الصَّليبيّة في المشرق العربي، فاستنجدوا بالغرب المسيحي الذي جهز لهم الحملة الصَّليبيّة الثَّانية. توجهت الحملة الصَّليبيّة الثَّانية عام 1147 عن طريق البرِّ إلى الشَّرق. وقادها ملك ألمانيا "كونراد الثَّالث" وملك فرنسا لويس السَّابع، ثم انضمَّ إليهم في بلاد الشَّام فرسان الداوية والاسبتارية* . لم تتمكَّن

---

* فرسان الداوية والاسبتارية: عبارة عن هيئتين تأسَّستا في مدينة القُدس للقيام بأعمال خيرية وإنسانية، ولكنهما تحولتا فيما بعد إلى قوات عسكريَّة ضاربة، شاركت في جميع

هذه الحملة من استعادة إمارة الرُّها، ودمَّر السَّلاجقة الجيش الألماني في آسية الصُّغرى وفشل الجيش الفرنسي في احتلال مدينة دمشق، وبذلك تكون الحملة الصَّليبيّة الثَّانية قد فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق أهدافها.

في عام 1146 استشهد المجاهد الكبير عماد الدين الزنكي، إثر طعنة غادرة من أحد غلمانه، بعد أن وضع الأسس الكفيلة بتطوير الصِّراع الإسلاميّ - الصَّليبيّ لصالح المسلمين. خلف عماد الدين الزنكي في الحُكْم ابنه المجاهد الكبير نور الدين محمود بن أقسنقر، الذي سار على خطى والده، فاهتمَّ اهتماماً بالغاً بتوحيد بلاد المسلمين لأن فرقتهم وتناحرهم كانت السَّبب الرئيسيَّ في نجاح الحملة الصَّليبيّة الأولى، وبمساعدة القائد الفذّ أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي ووالي مدينة حلب، استطاع السُّلطان نور الدين محمود دخول مدينة دمشق، وانتزاعها من خلفاء الأتابك ظهير الدين طغتكين. وقد تمكَّن القائد أسد الدين شيركوه من ضمٍّ مصر فيما بعد للسُّلطان نور الدين محمود، وبذلك أصبحت مملكة أورشليم الصَّليبيّة محاطة بالقوات الإسلاميَّة من الشَّمال الشَّرقي ومن الجنوب الغربي. وبعد سيطرة نور الدين محمود على دمشق جهز الصَّليبيّون حملة عسكريَّة محلية لاستعادة إمارة الرها، فتمكَّن السُّلطان نور الدين محمود من إلحاق هزيمة ساحقة بهم، وأسر جوسلين الثَّالث أمير الرُّها وحليفه ريموند الثَّالث أمير طرابلس، ثم زحف نحو إمارة أنطاكية، واستطاع تحريرها وأسر أميرها بوهيميند الثَّالث. وهكذا أعادت الانتصارات العظيمة التي حققها السُّلطان عماد الدين الزنكي وابنه السُّلطان نور الدين محمود الثقة إلى نفوس المسلمين ورفعت من روحهم المعنوية، فتخلصوا من عقدة الخوف من

الحروب التي خاضتها القوات الصَّليبيّة ضد المسلمين. وقد اشتهر هؤلاء الفرسان بحسن تدريبهم وقوتهم، وأيضاً ببطشهم وتنكيلهم بالمسلمين.

1-قوات الداوية: تأسَّست هذه الهيئة في مدينة القُدس عام 1118 زمن الملك بلدوين الثَّاني على يد الفارس الفرنسي (هيو دي باينز) واتَّخذت من المسجد الأقصى مقراً لها. وقد كانت مهمتهم في البداية حماية وإرشاد الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس.

2-فرسان الاسبتارية أو فرسان يوحنا المعمدان: تأسَّست هذه الهيئة في مدينة القُدس أيضاً عام 1070 - أي قبل الحروب الصَّليبيّة - وقد أقام هؤلاء مستشفى بالقرب من كنيسة القيامة لرعاية وعلاج الحجاج المسيحيين الفقراء.

الصَّليبيّين وباتوا أشد إصراراً على تحرير بيت المقدس. ويبدو أن نور الدين محمود كان واثقاً جداً من قدرته على تحرير بيت المقدس، ولهذا السبب أمر الصُّنَّاع المهرة بإعداد منبر خشبي فخم ليضعه في المسجد الأقصى بعد تحريره من دنس الصَّليبيّين، وقد عرف هذا المنبر تاريخياً باسم منبر صلاح الدين الأيوبي، ولكن الصَّهاينة أحرقوا هذا المنبر التَّاريخي في عام 1969.

ثالثاً: ظهور صلاح الدين الأيوبي

القائد صلاح الدين الأيوبي واسمه الكامل هو: يوسف بن أيوب بن مروان بن شاذي، ولد عام 1138 في مدينة تكريت العراقية. وقد اختلف المؤرِّخون في أصله، فيقول ابن الأثير في الكامل في التَّاريخ أنه كردي الأصل، وينسبه أبو شامة في تاريخ الروضتين، وكذلك ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة إلى بني أمية، ومن الأرجح أنه من الأكراد الروادية، الذين كانت بلادهم تقع بين شروان وأذربيجان.

قضى صلاح الدين الأيوبي طفولته في مدينة بعلبك اللبنانية؛ حيثُ كان والده نجم الدين أيوب يعمل والياً للسلطان عماد الدين زنكي على المدينة بعد تحريرها من أيدي الصَّليبيّين. وبعد مقتل عماد الدين زنكي، رحل صلاح الدين مع أسرته إلى مدينة دمشق، بعد استيلاء السُّلطان نور الدين محمود عليها. وفي دمشق نشأ صلاح الدين الأيوبي نشأة دينيَّة، فحفظ القرآن الكريم ودرس علوم الفقه والحديث. وعندما أصبح صلاح الدين شاباً يافعاً التحق بجيش السُّلطان نور الدين محمود تحت إمرة عمه القائد الشُّجاع أسد الدين شيركوه، الذي لعب دوراً رئيسيَّاً في ضمِّ مدينة دمشق ومصر لنور الدين محمود. وفي ذلك الوقت كان الخليفة الفاطمي في القاهرة العاضد لدين الله العلوي خليفة مستضعفاً، يتحكَّم فيه وزراؤه المتنافسون على الحُكم. وفي عام 1163 تمكن القائد الفاطمي ضرغام من التغلُّب على الوزير الأول الفاطمي "شاور"، وطرده من مصر، فاستنجد الوزير شاور بالسُّلطان نور الدين محمود الذي أرسل حملة عسكريَّة إلى مصر، بقيادة أسد الدين شيركوه. وفي مصر استطاع أسد الدين شيركوه القضاء على القائد الفاطمي "ضرغام"، وأعاد الوزير شاور إلى الوزارة الفاطميَّة.

بعد عودة الوزير شاور للإمارة الفاطميَّة، نقض وعوده لأسد الدين شيركوه، التي تقضي بأن يدفع له ثلث دخل مصر، إضافة إلى مرتبات الجنود نظير مساعدته له بالعودة إلى الوزارة، فقام أسد الدين شيركوه باحتلال البلاد المصريَّة الشَّرقيَّة وعسكر بجيشه في بلدة بلبيس المصريَّة، وأخذ يطالب الوزير شاور بالوفاء بوعوده. سارع الوزير شاور بالاستعانة بملك أورشليم الصَّليبيّ "أماريك"، الذي وصل بجيشه إلى مصر، واشترك مع قوات الوزير شاور في حصار قوات أسد الدين شيركوه في بلدة بلبيس، ولكنَّه لم يتمكَّن من النيل منه. ولما وصلت إلى مصر أخبار انتصارات السُّلطان نور الدين محمود على الصَّليبيّين في بلاد الشَّام، اضطر الملك أماريك للعودة إلى القُدس، بعد أن اتفق مع شيركوه على جلاء قواته والقوات الصَّليبيّة من مصر. وفي عام 1166 أرسل السُّلطان نور الدين محمود حملة عسكريَّة ثانية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، لمحاربة قوات الفرنج المتحالفة مع قوات الوزير الفاطمي شاور، واصطحب معه ابن أخيه "صلاح الدين الأيوبي"، الذي تولى قيادة قوات القلب في جيش شيركوه، وأبدى كفاءة قتالية عالية المستوى وبطولة نادرة في المعارك. مما دفع عمه أسد الدين شيركوه إلى تعيينه قائداً لحامية الإسكندريَّة العسكريّة، وهكذا برز اسم صلاح الدين الأيوبي لأول مرة كقائد عسكري مُحنَّك وشجاع ينبئ بمستقبل عسكري باهر وغير عادي. تعرَّضت مدينة الإسكندريَّة لحصار صليبي طويل، تمكَّن خلاله صلاح الدين الأيوبي من الحفاظ على المدينة وعلى قواته أيضاً. وفي النهاية تمَّ الاتفاق على جلاء قوات شيركوه والقوات الصَّليبيّة من مصر، ولكن الوزير شاور اتفق سراً مع الفرنج على إبقاء حامية عسكريَّة لهم في القاهرة لمنع نور الدين محمود من إرسال المزيد من الحملات العسكريّة إلى مصر. وفي عام 1168 اندلعت ثورة شعبيَّة ضد الحامية الصَّليبيّة في القاهرة، وبطلب من الوزير الفاطمي شاور جاء إلى مصر الملك أموري الأول ملك القُدس على رأس قوات ضخمة لقمع الثَّورة، فاضطر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله إلى الاستغاثة بالسُّلطان نور الدين محمود في دمشق. فسارع نور الدين محمود بإرسال حملة عسكريَّة ضخمة هذه المرة بقيادة أسد الدين شيركوه أيضاً، الذي تمكَّن من قتل الوزير شاور وهزيمة الملك أموري الأول. وبعد الانتصارات التي حقَّقها أسد

الدين شيركوه في مصر، عيَّنه الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله على رأس وزارته، ولكنَّه لم يعمِّر طويلاً، وتوفي في مصر. فقام الخليفة الفاطمي باختيار صلاح الدين الأيوبي خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه، وبذلك تقلَّد صلاح الدين الأيوبي أعلى منصب وزاري في مصر، التي أصبحت تابعة لسُلطة السُّلطان نور الدين محمود، بالرَّغم من وجود الخليفة الفاطمي على رأس هيكل الحُكْم فيها. استطاع صلاح الدين الأيوبي، خلال فترة وجيزة، كسب ثقة وتقدير الخليفة الفاطمي العاضد والشَّعب المصري أيضاً. وفي عهد الخليفة العاضد سادت الفوضى السِّياسيَّة مصر، وضعفت جيوشها، وغدا الفرنج يتحينون الفرص لاحتلالها، تعويضاً عن هزائمهم المتتالية في بلاد الشَّام. ولكن صلاح الدين الأيوبي كان يقظاً لمؤامراتهم، وعمل على إحباطها بشتَّى الوسائل، لأنها كانت من الممكن أن تُعرقل أو تلغي خططه الرَّامية إلى تحقيق ثلاثة أهداف، نذر حياته من أجلها، وهي:

الأول: إلغاء الخلافة الفاطميَّة في القاهرة.

والثَّاني: توحيد مصر وبلاد الشَّام تحت راية نور الدين محمود.

والثَّالث: تحرير بيت المقدس من الصَّليبيّين.

أولاً: إلغاء الخلافة الفاطميَّة الشِّيعية في مصر

بعد توليه الوزارة الفاطميَّة في القاهرة، سعى صلاح الدين الأيوبي إلى القضاء على الخلافة الفاطميَّة الشِّيعيَّة فيها، ولكن دون التعرُّض بأذى للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله العلوي أو المساس بمشاعره وكرامته، تقديراً منه لمواقفه النبيلة من عم صلاح الدين الأيوبي أسد الدين شيركوه ومنه شخصياً، بمنحه أعلى منصب وزاري في البلاد، بعد وفاة شيركوه وإطلاق لقب "الملك الناصر" عليه. بدأ صلاح الدين الأيوبي خططه، الرامية إلى تقويض الخلافة الفاطميَّة، باتخاذ عدة إجراءات، قام بتنفيذها بهدوء تام وبالتدريج، ومن هذه الإجراءات ما يلي:

1-التقرُّب الشَّديد من الشَّعب المصري، وإلغاء الضَّرائب الباهظة، التي أرهقت كاهله في العهد الفاطمي.

2-عزل القُضاة الشِّيعة من مناصبهم، واستبدالهم بقضاة من السُّنَّة على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه.

3-عزل قادة العساكر الشِّيعة من مناصبهم في الجيش.

4-أصدر أمراً إلى أئمة المساجد بإلغاء النداء الثَّالث في الأذان "حي على خير العمل"، الذي يضيفه أتباع المذهب الشِّيعي للأذان.

5-بدأ يشكِّك بين طوائف الشَّعب المصري بصحة انتماء الفاطميين إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم.

6-كان يشرف على قصر الخليفة العاضد لدين الله العلوي في القاهرة رجل خصيٌّ يدعى "مؤتمن الخلافة". كان مؤتمن الخلافة يراقب بقلق بالغ إجراءات صلاح الدين الأيوبي وأدرك مدى خطورتها على وجود ومستقبل الدَّولة الفاطميَّة، فقرر التَّحالف مع الصَّليبيّين للقضاء على صلاح الدين الأيوبي. كان صلاح الدين الأيوبي يقظاً لمؤامرات مؤتمن الخلافة، فقام بالدخول في قتال معه وهزمه هزيمة قاضية ثم قتله. وفي نفس الوقت كانت وحدات خاصَّة من قوات صلاح الدين الأيوبي تقبض على جميع الأمراء الفاطميِّين، وتُصادر ممتلكاتهم، وتستولي على أموالهم ومجوهراتهم، فبادر رجل أعجمي يدعى "الخبوشاني" بالإعلان عن سقوط الخلافة الفاطميَّة في مصر، وقام بإلقاء أول خطبة في أحد مساجد الفسطاط باسم الخليفة العباسي "المستضيء بنور الله".

وقد ساعد على هذا الانقلاب السِّياسي والدِّيني مرض الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله العلوي، الذي كان في النَّزع الأخير، وأخفى عنه صلاح الدين الأيوبي أخبار القضاء على الدَّولة الفاطميَّة. وفي عام 1171 أعلن صلاح الدين الأيوبي إلغاء الخلافة الفاطميَّة في القاهرة، وعودة مصر للخلافة العباسيَّة في بغداد. وبعد ثلاثة أيام من هذا الإعلان توفي الخليفة العاضد لدين الله العلوي آخر خليفة فاطمي دون أن يدري بما حدث في مصر. تقدَّم صلاح الدين الأيوبي جنازة الخليفة العاضد وعلامات الحزن ظاهرة على وجهه، وبعد دفن الخليفة الفاطمي تسلَّم صلاح الدين الأيوبي قصوره ودواوينه وخزائن ملكه. وعندما علم الخليفة العباسي في بغداد بقضاء صلاح الدين الأيوبي على الخلافة الفاطميَّة في القاهرة، أمر بإقامة الأفراح الضَّخمة، وأرسل الهدايا الثمينة لنور الدين

محمود ولصلاح الدين الأيوبي. وبإلغاء الخلافة الفاطميَّة في القاهرة، عادت للعالم الإسلاميّ وحدته في ظلِّ الخلافة العباسيَّة، وأصبحتْ تُقام الخطبة في مصر وبلاد الشَّام باسم السُّلطان نور الدين محمود والخليفة المستضيء بنور الله.

ثانياً: توحيد مصر وبلاد الشَّام

كان حُلم صلاح الدين الأيوبي، بعد القضاء على الخلافة الفاطميَّة في مصر، هو توحيد مصر وبلاد الشَّام تحت راية السُّلطان نور الدين محمود بن أقسنقر، تمهيداً لتحرير بيت المقدس من الصَّليبيّين. أصبح صلاح الدين الأيوبي بعد قضائه على الدَّولة الفاطميَّة رجل مصر الأول بلا منازع، ولكن العلاقات بينه وبين السُّلطان نور الدين محمود الذي يحكم مصر باسمه توترت إلى درجة خطيرة بعد حصار صلاح الدين الأيوبي لحصن الشوبك، ثم انسحابه إلى مصر ثانية، دون أن يحتلَّها لأسباب لم يقتنع بها نور الدين محمود، ولم يقبلها، فقرر السُّلطان نور الدين محمود غزو مصر وإخضاع صلاح الدين الأيوبي لسلطته، لكن المنيَّة وافته وهو يتأهب للزَّحف بجيوشه نحو مصر عام 1174. لم يكن للمجاهد الكبير نور الدين محمود وريثاً للعرش سوى ابنه الصَّغير الصَّالح إسماعيل، الذي تقلَّد مهام الحُكْم بوصاية الأمراء الزنكيُّون. استغلَّ أموري الأول ملك أورشليم فرصة وفاة السُّلطان نور الدين محمود، وقام بغزو بعض الأراضي الإسلاميَّة، وحاصر مدينة بانياس حصاراً مُحكماً، فاضطرَّ قائد العساكر الزنكي "ابن المقدم" للموافقة على هدنة مع الصَّليبيّين، ودفع أموال ضخمة لهم، وأفرج عن أسراهم. وعندما علم صلاح الدين الأيوبي في مصر بأمر هذه الهدنة، غضب غضباً شديداً، وأرسل للأمراء الزنكيِّين، يطلب منهم إلغاءها، فلم يوافق أمراء آل زنكي على نقض هدنتهم مع الصَّليبيّين، وتمسَّكوا بها. فاستخلف صلاح الدين الأيوبي شقيقه العادل محمد في حكم مصر، ثم توجه بجيوشه إلى بلاد الشَّام بموافقة الخليفة العباسي المستضيء بنور الله، وتمكن من احتلال دمشق وحمص وحماه وحلب، وانتزعهم من أيدي خلفاء عماد الدين زنكي ونور الدين محمود. وبعد هدوء الأحوال في بلاد الشَّام، عاد صلاح الدين الأيوبي إلى مصر،

ولكنه اضطرَّ للعودة إلى دمشق، لإخماد ثورة الأمراء الزنكيين، لاستعادة حكمهم. وبعد إخماد هذه الثَّورة، قام صلاح الدين الأيوبي بخلع السُّلطان الزنكي الطِّفل الصَّالح إسماعيل، وعيَّن نفسه حاكماً لبلاد الشَّام ومصر. وفي نفس الوقت تمكَّن شقيق صلاح الدين الأيوبي الأكبر "توران شاه" من إخضاع بلاد اليمن لسلطة صلاح الدين الأيوبي، وبناءً على رغبة صلاح الدين الأيوبي، وافق الخليفة العباسي المستضيء بنور الله على تعيينه سلطاناً على مصر وبلاد الشَّام وبلاد النوبة والحجاز واليمن والمغرب العربي. وبذلك استطاع صلاح الدين الأيوبي توحيد البلاد تحت قيادته في وجه الصَّليبيّين والإحاطة بهم من جميع الجهات كفكَّي كماشة.

وفي الفترة التي سبقت توحيد بلاد الشَّام تحت راية القيادات الأيوبية، كان صلاح الدين الأيوبي يتجنَّب الدخول في مواجهات عسكريَّة واسعة ضد الصَّليبيّين، موفِّراً جهده وإمكانياته للمعركة الفاصلة القادمة لا محالة. وكان يكتفي بالتَّصدي للهجمات الصَّليبيّة والإغارة على حصونهم وقلاعهم النائية. وفي عام 1177 استطاع صلاح الدين الأيوبي إلحاق هزيمة قاسية بالصَّليبيّين في عسقلان، فشجعه هذا الانتصار للزحف نحو بيت المقدس، ولكنه اضطرَّ للتقهقر بجيشه، نظراً للمقاومة الصَّليبيّة الشَّديدة. وفي عام 1180 قام أسطول صلاح الدين الأيوبي بشنِّ غارة بحُرِّيَّة ناجحة على ميناء عكا، أتبعها بغارة برِّيَّة عنيفة على الجليل شمالي فلسطين. فبادر بلدوين الرَّابع ملك أورشليم بطلب هدنة لمدة سنتين، وافق عليها صلاح الدين الأيوبي. ولكن القائد الصَّليبيّ رينالدو دي شاتيون أمير الكرك، الذي تذكره المصادر العربيَّة باسم "أرناط"، قام بخرق الهدنة، عندما هاجم عام 1181 قافلة للمسلمين في واحة تيماء، وأسر جميع أفرادها، واستولى على ممتلكاتها، فأرسل صلاح الدين الأيوبي للملك بلدوين الرَّابع يذكِّره بالهدنة المبرمة بينهما، ويطلب منه ضرورة العمل على الإفراج عن القافلة، وفكِّ أسر أفرادها، إلا أن رينالد دي شاتيون رفض رفضاً قاطعاً الإفراج عن القافلة. وحدث بعد بضعة أشهر أن تمكَّنتْ قوات صلاح الدين الأيوبي البحُرِّيَّة من أسر قافلة من السُّفن الصَّليبيّة تقلُّ 1500 حاج مسيحي إلى بيت المقدس، فأرسل صلاح الدين الأيوبي للملك بلدوين الرَّابع يعلمه أنه على

استعداد لإطلاق سراح القافلة الصَّليبيّة إذا أفرج رينالد دي شاتيون عن قافلة المسلمين، فرفض رينالد هذا العرض وتمسَّك بموقفه السَّابق. وهذا في الحقيقة إعلان الحرب من جانب رينالد دي شاتيون، الذي استمرَّ في الإغارة على قوافل المسلمين، وحاول غزو الحرمين الشَّريفين في مكة المكرمة، والمدينة المنورة. فأخذ صلاح الدين الأيوبي عهداً على نفسه بأن يقتله بنفسه إذا ظفر به، وقام بمحاصرة إمارة الكرك ودكَّها بمنجنيقاته التِّسعة، ولكنَّه لم يتمكَّن من اقتحامها، نظراً لمناعة تحصيناتها. أعلن صلاح الدين الأيوبي الجهاد، وأرسل لحكام الولايات التَّابعة له بتجهيز جيوشهم وإرسالها لبلاد الشَّام، تمهيداً للمعركة الفاصلة.

معركة حطِّين

بعد تكرُّر خرق رينالد دي شاتيون أمير الكرك للهدنة المبرمة مع صلاح الدين الأيوبي، خشي الصَّليبيّون من انتقام صلاح الدين الأيوبي، وبدا الارتباك الشَّديد والتَّناقض واضحاً على تصرفاتهم. ففي الوقت الذي أسرع بوهيميند أمير أنطاكية بتجديد الهدنة مع صلاح الدين الأيوبي، وحذا حذوه ريموند أمير طرابلس وجعلها سارية على إمارة زوجته في الجليل، كان بعض القادة الصَّليبيّين، وعلى رأسهم جيرار مقدم فرسان الداوية، يُحاولون إقناع الملك غي دي لوزنيان بالزَّحف نحو الجليل، وانتزاعه بالقُوَّة من يد الأمير ريموند، قبل أن يقع في يد صلاح الدين الأيوبي. وبالفعل زحف جيرار بفرسان الداوية إلى الجليل للاستيلاء عليه، ولكن جيرار تعرض لكارثة كبرى هناك، إذ إن قوات صلاح الدين الأيوبي تمكَّنتْ من القضاء قضاء مبرماً على فرسان الداوية، ولم ينجُ منهم سوى مقدمهم جيرار واثنين من فرسانه. وبعد هذه الكارثة العسكريّة التي حلَّت بالقوات الضاربة من فرسان الداوية، ألغى الأمراء الصَّليبيّون الهدنة المبرمة مع صلاح الدين الأيوبي، ودقُّوا طبول الحرب، التي طالما انتظرها المسلمون.

تجمعت الجيوش الصَّليبيّة من جميع الإمارات في بلدة صفورية. بينما عبر صلاح الدين الأيوبي بجيوشه نهر الأردن واتجه غرباً نحو بلدة طبرية التي تقع داخل النطاق الصَّليبيّ وقام بتدميرها وإحراقها، وبعد أن وضع قوات خاصَّة كبيرة على ضفاف بحيرة طبرية لمنع الصَّليبيّين من الوصول إلى المياه العذبة

الضرورية جداً في جو تموز/ يوليو الحارق، سار نحو بلدة حطِّين حيث التقى بالقوات الصَّليبيّة بقيادة الملك غي دي لوزنيان ملك أورشليم لقوات القلب، والأمير ريموند أمير طرابلس لقوات المقدمة والأمير رينالد دي شاتيون أمير الكرك ومعه "باليان" شقيق الأمير ريموند لقوات المؤخرة. احتل الصَّليبيّون الهضبة المطلة على بلدة حطِّين. ونظراً لحرارة الجو نفد الماء بسرعة من الصَّليبيّين، فخرجت وحدة عسكريَّة منهم لإحضاره من بحيرة طبرية، فوقعوا جميعاً في يد قوات صلاح الدين الأيوبي المرابطة على ضفاف البحيرة وتمَّ إعدامهم. ومما زاد من معاناة القوات الصَّليبيّة، قيام صلاح الدين الأيوبي بحنكته ودهائه العسكريّ، بإحراق الأعشاب والشجيرات الجافة، مُحاصراً الفوات الصَّليبيّة بين النيران وجيوشه. وفي الرَّابع من تموز/ يوليو عام 1187 أطبق صلاح الدين الأيوبي على الجيوش الصَّليبيّة في حطِّين وألحق بهم هزيمة ساحقة وقاضية، وأسر جميع ملوكهم وأمرائهم وقادتهم، وعلى رأسهم الملك دي غي لوزنيان ملك أورشليم، والأمير همفري والأمير ريموند ورينالد دي شاتيون أمير الكرك، وجيرار مقدم فرسان الداوية إضافة إلى مقدم فرسان يوحنا المعمدان "الاسبتارية". ولما أحضر الأسرى إلى صيوان صلاح الدين الأيوبي، لاحظ عليهم التعب والإعياء والظَّمأ الشَّديد، فقام بتقديم ماء حرمون المثلج لهم ليشربوا منه علامة على إعطائهم الأمان على حياتهم حسب عادات العرب، فشرب الملك غي دي لوزنيان من الماء حتى ارتوى ثم ناول الماء لرينالد دي شاتيون "أرناط" ليشرب هو الآخر، وهنا صاح صلاح الدين الأيوبي قائلاً:

-أنت الذي قدَّمت له الماء وليس أنا، لذلك فهو لم يحصل مني على الأمان.

ثم ذهب صلاح الدين الأيوبي إلى أرناط وجرَّه إلى وسط الصيوان، وأطاح برأسه في الهواء بضربة سيف واحدة. ولما رأى الملك غي دي لوزنيان رأس رينالد دي شاتيون "أرناط" تطير في الهواء ثم تتدحرج على الأرض، ارتعدت فرائصه من الخوف وخشي على حياته، إلا أن صلاح الدين الأيوبي طمأنه وهدأ من روعه، عندما قال له: إن من عاداتنا الحفاظ على الأسرى، والملك لا يقتل الملك، ولكن صاحبكم رينالد دي شاتيون ارتكب مجازر بربريَّة ضدَّ المسلمين، وخرق اتفاقيات الهدنة معنا، وحاول بوقاحة غزو أرض الحرمين الشَّريفين، فنال ما

يستحق من جزاء. ثم أمر صلاح الدين الأيوبي بإعدام جميع فرسان الداوية والاسبتارية أمام الحضور لاشتراكهم مع رينالد دي شاتيون في أعماله البربريّة ضد المسلمين.

ثالثاً: تحرير بيت المقدس

بعد انتصار صلاح الدين الأيوبي العظيم في حطّين، انهارت الجيوش الصّليبيّة وبات الطّريق ممهداً نحو بيت المقدس، فزحف صلاح الدين الأيوبي نحوها، وضرب الحصار المُحكم عليها. وعندما كان يهمُّ باقتحام القُدس، قررت الحامية الصّليبيّة في المدينة الاستسلام للجيش الإسلاميّ وتسليمها لصلاح الدين دون قتال. وفي الثّاني من تشرين الأول/ أكتوبر عام 1187 الموافق ليوم الجمعة، المُصادف لليلة الإسراء والمعراج، دخل صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس، وسط تكبير وتهليل الجنود وحمدهم لله تعالى، وقاموا بإنزال الصّليب من فوق قبة مسجد الصّخرة المشرفة، وأمر صلاح الدين الأيوبي بتطهير المسجد الأقصى المبارك من القاذورات، ثم ارتفع صوت الأذان من المسجد الأقصى منادياً لصلاة الجمعة لأول مرة منذ 88 عاماً. واعتلى المنبر الإمام محي الدين بن زكي الدين واستهل خطبته بقوله: «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين». أمر القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي بإحضار المنبر الذي أشرف على صنعه السُّلطان نور الدين محمود قبل 20 عاماً، ووضعه في المسجد الأقصى. انشغل صلاح الدين الأيوبي بعد تحريره لبيت المقدس في إعادة تنظيم المدينة المُقدّسة وتدبير شؤونها واسترجاع وجهها العربيّ -الإسلاميّ الأصيل بعد 88 عاماً من الاحتلال الأجنبي.

الحملة الصّليبيّة الثّالثة

بعد سقوط مدينة القُدس في أيدي المسلمين، ثارت ثائرة الغرب المسيحي، وانخلعت قلوبهم في صدورهم، وتعالت صرخات الانتقام من المسلمين في ربوع أوروبا، فنسوا خلافاتهم وعداواتهم القديمة، وقاموا بتجهيز حملة عسكريّة بريّة وبحرية ضخمة وقويّة، هي الحملة الصّليبيّة الثّالثة. توجّهت هذه الحملة نحو الشّرق العربيّ بهدف استرجاع بيت المقدس من أيدي المسلمين، وقاد الحملة

ثلاثة من أعظم ملوك أوروبا، هم: ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، والملك الألماني فريدريك باربروسا. وفي عام 1191 تمكن الصَّليبيّون من احتلال مدينة عكا بعد نقضهم لاتفاقية الهدنة الموقّعة مع أهلها. ثم اتجهوا جنوباً واحتلُّوا مدينتي حيفا وأرسوف. ومن هناك طلب ريتشارد قلب الأسد من صلاح الدين الأيوبي الدخول في المفاوضات. أوكل صلاح الدين لشقيقه الأصغر العادل محمد للقيام بالتفاوض مع ريتشارد قلب الأسد، وعاد إلى بيت المقدس للإشراف على تقوية دفاعاتها وتحصيناتها استعداداً لصدِّ أي هجوم صليبي مُحتمل عليها. انتهت المفاوضات بتوقيع صلح الرملة عام 1192 التي أبقت السَّاحل الفلسطينيّ من عكا إلى عسقلان في أيدي الصَّليبيّين، الذين لم يجرؤوا على مهاجمة بيت المقدس. وبذلك فشلت الحملة في تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله. وفي التَّاسع من تشرين الأول/ أكتوبر عام 1192 غادر ريتشارد قلب الأسد فلسطين، عائداً إلى بلاده يجرُّ وراءه أذيال الخيبة والفشل. أما صلاح الدين الأيوبي، فعاد إلى دمشق، وبقي فيها إلى أن توفاه الله تعالى عام 1193، ودُفن في قلعة دمشق، ثم نقل جثمانه إلى المسجد الأموي. وعندما توفي صلاح الدين الأيوبي، وُجدَ في خزانته مبلغ 47 درهماً هي كل ما يملك. وبالرَّغم من أن مدينة القُدس لم تَعُدْ تحت الحُكم الصَّليبيّ، إلا أنَّهم استمرُّوا في اعتبارها مملكة أورشليم الصَّليبيّة، وينصبون لها ملكاً باسم ملوك مملكة أورشليم الصَّليبيّة، ويتحينون الفرص للانقضاض على بيت المقدس من جديد، وإعادته للسَّيطرة الصَّليبيّة مرَّة ثانية.

رابعاً: بقية الحملات الصَّليبيّة

بلغت الحملات الصَّليبيّة على ديار المسلمين ثماني حملات، كان أقواها الحملة الصَّليبيّة الأولى والثَّانية والثَّالثة. أما بقيَّة الحملات الصَّليبيَّة، فكانت حملات متواضعة، كان آخرها الحملة الصَّليبيّة الثَّامنة بقيادة الملك الفرنسي لويس التَّاسع:

الحملة الصَّليبيَّة الرَّابعة:

توجهت الحملة الصَّليبيّة الرَّابعة إلى بيت المقدس عام 1202، ولكنَّها لم تصل إلى فلسطين، وانتهت بإقامة دولة لاتينيَّة في القسطنطينيَّة.

-الحملة الصَّليبيَّة الخامسة:

في عام 1218 قام يوحنا دي بريين ملك أورشليم الغير متوج - لأن القُدس لم تعد مملكة صليبيَّة - بقيادة حملة صليبيَّة جديدة، توجَّه بها إلى مصر، بهدف احتلالها، ثم الالتفاف منها لاحتلال فلسطين وبيت المقدس. إلا أن الحملة الصَّليبيّة الخامسة فشلت في تحقيق أهدافها، وقضى عليها الملك الكامل ملك مصر الأيوبي، بمساعدة شقيقه الملك المعظَّم ملك دمشق.

-الحملة الصَّليبيَّة السَّادسة:

سارعت أوروبا إلى نجدة الجيوش الصَّليبيّة التي يقودها يوحنا دي بريين في مصر، فأرسلت الحملة الصَّليبيّة السَّادسة، وقد تمَّ تدمير هذه الحملة على يد الأخوة الثلاثة: الملك الكامل ملك مصر، والملك المعظَّم ملك دمشق، والملك الأشرف ملك حلب.

-الحملة الصَّليبيَّة السَّابعة:

قاد هذه الحملة عام 1250 الملك الفرنسي لويس التَّاسع، وتوجَّه بها من أجل احتلالها، ثم الزحف نحو فلسطين لاسترداد بيت المقدس. وقد مُني لويس التَّاسع بهزيمة في مدينة المنصورة المصريَّة، وتمَّ أسره على يد الملك الصَّالح نجم الدين أيوب.

-الحملة الصَّليبيَّة الثَّامنة والأخيرة:

هُزم الملك الفرنسي لويس التَّاسع في مصر، وأُسر هناك ثم افتُدي، إلا أنَّه حاول الكرة مرة أُخرى عام 1270، ولكنه مات في تونس أثناء زحفه بجيوشه نحو مصر، وعادت قواته إلى فرنسا. وبذلك انتهت الحملات الصَّليبيّة على المشرق العربي. إلا أن الوجود الصَّليبيّ في بلاد العرب لم ينته، إلا في عام 1294 عندما استطاع المماليك القضاء على آخر الجيوب الصَّليبيّة في بلاد الشَّام.

4-5: القُدس تحت حكم الأيوبيِّين

لم يكن صلاح الدين الأيوبي فقط قائداً عسكريّاً عملاقاً، تمكَّن من تحرير بيت المقدس من الصَّليبيّين، ونال محبة الأصدقاء وتقدير الأعداء معاً، وإنما كان قائداً سياسيّاً مُحنكاً قضى على الخلافة الفاطميَّة في مصر، واستطاع خلال فترة وجيزة تأسيس إمبراطوريَّة قويَّة امتدت من النيل إلى الفرات. وبوفاة صلاح الدين الأيوبي عام 1193، تقاسم أبناؤه إمبراطوريته الشَّاسعة، فتولَّى ابنه الأكبر الأفضل نور الدين على حكم فلسطين وبيت المقدس، إضافة إلى بعلبك وصلخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وحتى الداروم جنوباً عند الحدود الفلسطينيّة المصريَّة. وتولَّى ابنه الثَّاني العزيز عماد الدين عثمان حكم مصر وبلاد النوبة، وتولَّى ابنه الثَّالث الظاهر غازي حكم حلب وشمال بلاد الشَّام، أما شقيقه الأصغر وأمين أسراره العادل محمد بن أيوب فقد تولَّى حكم الكرك وشرق الأردن والجزيرة وديار بكر.

وليس من الممكن التسليم بسهولة أن هؤلاء الملوك هم فعلاً ورثة القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، فباستثناء شقيقه العادل محمد بن أيوب، لم يكن أحد منهم في ذكاء وحنكة ودهاء صلاح الدين الأيوبي، ولا على غيرته على الإسلام وحرصه الشَّديد على وحده صفه، إذ إن الأوضاع في العالم الإسلاميّ قد تدهورت في عهدهم، وفقد الإسلام هيبته وسطوته وذراعه الطُّولى التي صنعها صلاح الدين الأيوبي. فتمكَّن الصَّليبيّون من استعادة معظم المدن المحرَّرة مثل عسقلان وصفد وطبرية وبيروت، بل وحدثت تطورات خطيرة في البيت الأيوبي أدت إلى احتلال الإمبراطور الرُّومانيّ فريدريك الثَّاني لبيت المقدس دون قتال عام 1229، وبقي فيها لمدة عشر سنوات، ثم وقعت القُدس عام 1242 للمرة الثَّالثة في أيدي الصَّليبيّين لمدة عام واحد، ولولا الصِّراعات الدَّاخليَّة والفُرقة والتناحر بين الصَّليبيّين أنفسهم، لسقطت معظم ديار المسلمين في قبضتهم.

بدأ الخلاف والصِّراع مبكراً في البيت الأيوبي، عندما تنازل الملك الأفضل نور الدين علي ملك فلسطين عن بيت المقدس لصالح شقيقه العزيز عماد الدين عثمان ملك مصر، لاعتقاده أنه كان عاجزاً عن حمايتها والدفاع عنها، ولكن الملك الأفضل تراجع عن قراره وتمسَّك بمدينة القُدس، فغضب شقيقه العزيز عثمان

غضباً شديداً، وزحف بجيشه من مصر إلى بيت المقدس لانتزاعها بالقُوَّة من يد الملك الأفضل نور الدين علي. سارع الملك الأفضل بالاستعانة بعمه الملك العادل محمد الذي استطاع توحيد أمراء بلاد الشَّام الأيوبيين، فآثر العزيز عثمان الانسحاب والعودة إلى مصر، لعدم مقدرته على الدخول في حرب مع تحالف بلاد الشَّام الأيوبي. ثم اتَّفقت الأطراف المتصارعة على بقاء مدينة القُدس تحت حكم العزيز عثمان في مصر، وبقيت في حوزته حتى وفاته عام 1198. خلف العزيز عثمان في حكم مصر ابنه الطفل المنصور ناصر الدين محمد، بوصاية الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، ثم اتفق الأمراء الأيوبيُّون في مصر على استدعاء الملك العادل محمد - شقيق صلاح الدين الأيوبي - من دمشق للإشراف على بلاط الملك الطفل المنصور ناصر الدين محمد والوصاية عليه، ولكن الملك الأفضل نور الدين علي غضب من هذا الإجراء وقام بالزحف نحو مصر واحتلها وأصبح حاكمها الفعلي. ولما وصل الملك العادل محمد من دمشق إلى مصر تمكَّن من الإطاحة بالملك الأفضل والسُّلطان الطفل المنصور ناصر الدين محمد. وبعد توليه الحُكْم في مصر سعى الملك العادل محمد بن أيوب إلى توحيد مصر وبلاد الشَّام ثانية. وإعادة القُوَّة والهيبة للدولة الأيوبيَّة، كما كانت في عهد شقيقه صلاح الدين الأيوبي. ثم قام الملك العادل محمد بتعيين أولاده حكاماً لولايات الدَّولة المترامية الأطراف، فتولَّى ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمد علي إدارة شؤون مصر، وتولَّى ابنه الملك المعظَّم شرف الدين عيسى إدارة شؤون دمشق، وابنه الملك الأشرف مظفر الدين موسى شؤون حلب، وتولَّى ابنه الرَّابع الأوحد نجم الدين إدارة شؤون ميافارين. وقد ظلت الدَّولة الأيوبيَّة موحدة بجميع أقاليمها حتى وفاة الملك العادل محمد بن أيوب عام 1218. وبوفاته عادت الفُرقة للبيت الأيوبي ودبَّ الخلاف والنِّزاع داخله، فاستقلَّ الملك الكامل بحكم مصر، وانفصل الملك المعظَّم عيسى ببلاد الشَّام وبيت المقدس. أولى الملك المعظَّم شرف الدين اهتماماً بالغاً لمدينة القُدس، واهتمَّ بالعلم والعلماء وأنشأ فيها العديد من المعاهد والمدارس، وأنفق أموالاً طائلة في تطوير القُدس وتجميلها.

عاد البيت الأيوبي إلى الاتحاد والتماسك في مواجهة الحملة الصَّليبيّة الخامسة، التي قادها عام 1218 ملك القُدس غير المتوج "يوحنا دي بريين".

ولتخفيف الضَّغط العسكريّ على أخيه الكامل في مصر، قام الملك المعظَّم عيسى بتشديد ضرباته العسكريّة للصليبيين في بلاد الشَّام، ولكن المعظَّم عيسى كان يخشى من نجاح الحملة الصَّليبيّة الخامسة في مصر، ثم التفافهم من هناك لاحتلال بيت المقدس، فقام بتخريب مدينة القُدس وتدمير حصونها وقلاعها وأسوارها والمباني التي أنشأها فيها، حتى لا تستفيد منها القوات الصَّليبيّة في حالة احتلالها للمدينة، كما كانت عادة القدماء عندما يتوقعون سقوط مدنهم في أيدي الأعداء. ويبدو أن مخاوف المعظَّم عيسى كانت في محلها، فقد عرض شقيقه الملك الكامل ملك مصر على الصَّليبيّين إعطاءهم فلسطين وبيت المقدس كما كانت قبل معركة حطِّين التَّاريخية في مقابل إنهاء حملتهم على مصر، ولكن الصَّليبيّين رفضوا عرضه وطالبوه بإعطائهم مصر أيضاً بالإضافة إلى فلسطين. ولحسن حظِّ فلسطين وبيت المقدس، دبَّ النزاع والخلاف بين الصَّليبيّين أنفسهم، فلحقت بهم هزائم متتالية في مصر، واضطروا لعقد هدنة لمدة ثمانية سنوات مع الملك الكامل، ثم جلت قواتهم عن مصر دون أن تحقق أهدافها.

وفور زوال الخطر الصَّليبيّ عن مصر، عاد الخلاف والنزاع للبيت الأيوبي وبدأ الاستعداد للحرب بين الأخوة، فاستعان الملك المعظَّم عيسى بالفرسان الخوارزمية الذين طردهم القائد المغولي جنكيز خان من ديارهم في آسية الوسطى، وتحالف الملك الكامل مع إمبراطور الروم فريدريك الثَّاني في صقلية. وقبل اندلاع الحرب بين الأخوين توفي الملك المعظَّم عيسى، وخلفه ابنه الطفل الملك الناصر صلاح الدين داود. ونظراً لصغر سنه، سُلبت منه أملاك والده، وأعطي أراضي شرق الأردن فقط، وخضعت مدينة القُدس للملك الكامل في مصر. وفي عام 1229 عقد الملك الكامل صلحاً شائناً ومهيناً مع صديقه الإمبراطور فريدريك الثَّاني، وافق فيه على تسليم مدينة القُدس للفرنج، دون حرب أو قتال، على أن يساعده في حروبه مع أعدائه وجلُّهم من الأمراء الأيوبيين. وقد ظلت مدينة القُدس في أيدي الصَّليبيّين لمدة عشر سنوات إلى أن تمكَّن الناصر داود من تحريرها عام 1239. بعد وفاة الملك الكامل الأيوبي خلفه ابنه الملك الصَّالح نجم الدين بن أيوب، ونكاية بالملك الصَّالح قام الناصر داود وحليفه الصَّالح إسماعيل في بلاد الشَّام بتسليم مدينة القُدس ثانية للصليبيين

عام 1242. وبقيت المدينة في أيديهم إلى أن حررها الملك الصَّالح نجم الدين بن أيوب بعد عام واحد بواسطة جيش مكوَّن من فرسان الخوارزمية السَّلاجقة الأتراك، وبقيت تحت حكمه إلى حين وفاته عام 1249. وفي أواخر حكم الملك الصَّالح نجم الدين بن أيوب غزا مصر الملك الفرنسي لويس التَّاسع وتمكن من احتلال بلدة دمياط. ولكن الملك الصَّالح تمكن من توجيه ضربة ساحقة له في المنصورة، وتمَّ أسره في إحدى المعارك. توفي الملك الصَّالح عام 1249 وهو يحارب الجيوش الفرنسيَّة الغازية، فأخفت أرملته "شجرة الدر" نبأ وفاته إلى حين وصول نجله الملك المعظَّم غياث الدين توران شاه، الذي وصل إلى مصر قادماً من بغداد بعد ثلاثة أشهر من وفاة والده، وتولَّى مقاليد الحُكْم في مصر، وقاد جيوش والده، وأكمل انتصاراته على الصَّليبيّين في المنصورة. ولكن الملك المعظَّم توران شاه حكم مصر لفترة قصيرة جداً، فقد تآمرت عليه شجرة الدر مع مماليك والده لأنه أساء معاملتهم وأقصاهم من مناصبهم الحساسة ولم يحسن إدارة شؤون الدَّولة، بالإضافة إلى أنه بدأ يطالب شجرة الدر بأموال ومجوهرات والده. وفي عام 1250 قام بيبرس البندقداري بقتل توران شاه بطريقة وحشية.
بعد قتل الملك المعظَّم غياث الدين توران شاه تولى حكم مصر مناصفة كل من شجرة الدر باسم "الملكة المستعصمة الصَّالحية ملكة المسلمين شجرة الدر"، والمملوك عز الدين أيبك. تزوج عز الدين أيبك من شجرة الدر وأدارا شؤون البلاد سوياً، ولإضفاء الشَّرعية الأيوبيَّة على حكمهما، قاما بإحضار الملك الأشرف بن الظاهر غازي من دمشق، وهو طفل لم يتجاوز التَّاسعة من العمر، ونصباه ملكاً رمزياً على مصر تحت وصايتهما، وبقي الحُكْم الفعلي لمصر بيد الملكة شجرة الدر والسُّلطان عز الدين أيبك. وبذلك ابتدأ حكم المماليك في مصر، وأفل نجم الدَّولة الأيوبيَّة ذات الملوك أصحاب الألقاب الضَّخمة الرنانة، والتي لم تعمِّر سوى 57 عاماً مرت على وفاة القائد العظيم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رضي الله عنه.

5-5: القُدس تحت حُكْم المماليك

المماليك، كما يدل اسمهم، عبارة عن رقيق، كانوا يُباعون ويُشتَرون، ويتناقلون بين الحين والحين من سيد إلى آخر. والمماليك ينتمون أصلاً لأجناس وقوميّات مُتباينة، فمنهم الأتراك ومنهم الشّراكسة، وكانوا أحياناً من المغول. وتاريخ المماليك في العالم الإسلاميّ يرجع إلى ما قبل قيام دولتهم في مصر بوقت طويل، فأول من استخدمهم في التّاريخ الإسلاميّ هو الخليفة العباسي "المأمون"، ثم كون منهم الخليفة العباسي "المعتصم بالله" العديد من الفرق العسكريّة وألحقها بجيوشه، وحذا حذوهم سلاطين مصر الطولونيّون والإخشيديّون، والخلفاء الفاطميّون والملوك الأيوبيّون والقادة والسّلاطين المماليك أنفسهم. وبمرور الوقت تبدّل حال المماليك، وتحوّلوا من أرقاء إلى قادة جيوش وأمراء وسلاطين، وهذا بالطبع نادر الحدوث في التّاريخ. وبسبب خلفيات المماليك المرتبطة بالرِّقّ والعبوديّة وأصلهم غير الحُرّ، وعدم ولائهم لأحد إلا لمصالحهم ومنافعهم الشّخصية، وظهورهم في التّاريخ الإسلاميّ بمظهر الخونة الذين تمردوا على أسيادهم العباسيين والأيوبيين، وتغلغلهم بطرق غير شرعية في أجهزة الدّولة الإسلاميّة ثم استيلاؤهم بالخيانة والتآمر والغدر وسفك الدماء على الحُكْم في مصر، فقد سعى المماليك بشتى الوسائل إلى محو هذه الصورة لقاتمة التي التصقت بهم، وإزالة جميع ما علق بأذهان الناس عنهم بأن اتبعوا سياسة ذكية ثلاثية الأبعاد عند توليهم الحُكْم في مصر تتلخص في التالي:

1-لإضفاء الشّرعية الإسلاميّة على حكمهم، قام المماليك بإحياء التبعية للخلافة العباسية في بغداد، واعتبروا أنفسهم مجرد سلاطين تابعين لها.

2-اتخذ المماليك من الجهاد في سبيل الله سياسة عامّة لحكمهم.

3-أنفق المماليك أموالاً طائلة من أموالهم الخاصّة على العناية بالمقدسات الإسلاميّة وحمايتها، وبخاصّة في مدينة القُدس التي أصبحت في عهدهم من المدن الإسلاميّة الأولى. ومن الممكن تقسيم المماليك الذين حكموا مصر وبلاد الشّام إلى قسمين:

1-المماليك البحريّة (الأتراك).

2-المماليك البرجية (الشراكسة).

1-المماليك البحريَّة (الأتراك)

المماليك البحريَّة، هم المماليك الذين كان يملكهم الملك الأيوبي الصَّالح نجم الدين أيوب، وكان معظمهم من الأتراك التركمان وليس من الأتراك العثمانيين، وكان قليل منهم من المغول. وقد أطلق عليهم اسم المماليك البحريَّة لأن الملك الصَّالح نجم الدين أيوب أسكنهم في ثكنات عسكريَّة أنشأها لهم في جزيرة الروضة وسط نهر النيل بالقاهرة. لم يتعظ نجم الدين أيوب من تجربة الخلفاء العباسيين مع المماليك، وإنما وثق بهم وأسند إليهم حراساته الخاصَّة وسلمهم قيادة جيوشه مثل الأتابكة: عز الدين أيبك وبيبرس البندقداري وقطز المعزي، وهؤلاء القادة المماليك هم الذين قوضوا أركان الدَّولة الأيوبيَّة، ثم قضوا عليها كما فعل السَّلاجقة الأتراك بدولة الخلافة العباسية من قبل. كان أول سلاطين المماليك البحريَّة هو المملوك عز الدين أيبك (1250- 1258)، وآخرهم السُّلطان الصَّالح حاجي بن شعبان.

2-المماليك البرجية (الشَّراكسة)

المماليك البرجية، هم المماليك الذين اشتراهم السُّلطان المملوكي المنصور سيف الدين قلاوون الملقب باسم "الصَّالحي الألفي". جاء المماليك البرجية إلى مصر بعد المماليك البحريَّة، وكانوا جميعهم من الشَّراكسة القادمين من بلاد القفقاس "قفقاسيا". كان المماليك البرجية يقيمون في أبراج قلعة القاهرة، ولهذا السبب أطلق عليهم اسم المماليك البرجية. تولى المماليك البرجية الحُكم بعد المماليك البحريَّة وكان أول ملوكهم هو السُّلطان الظاهر سيف الدين برقوق (1382 - 1398)، وآخرهم السُّلطان طومان باي الذي أعدم في القاهرة عام 1517 على يد السُّلطان العثماني سليم الأول.

حكم المماليك في الفترة الواقعة بين عام 1250 وعام 1517، وشمل حكمهم مصر والنوبة وبلاد الشَّام والحجاز، والجزيرة العربيَّة حتى عسير إضافة إلى مناطق كيليكيا وجبال طوروس الوسطى. وبصفة عامَّة تميزت فترة حكم المماليك بالأمن والاستقرار وبالرخاء والازدهار، واستطاعوا أن يعيدوا للدولة الإسلاميَّة وحدتها وقوتها وهيبتها. وتطبيقاً لسياسة الجهاد في سبيل الله التي اتبعوها

واتخذوها عنواناً لحكمهم، استطاع المماليك تحقيق بعض الانتصارات الكبرى في التَّاريخ الإسلامي، إذ كان لهم الفضل الأول في التالي:

أولاً: إلحاق هزيمة نكراء بجحافل المغول في معركة عين جالوت بفلسطين عام 1260، وأوقفوا زحفهم البربري على العالم الإسلاميّ بأسره ثم طردوهم نهائياً من بلاد الشَّام.

ثانياً: قام المماليك بتطهير بلاد الشَّام من بقايا الجيوب الصَّليبيّة التي كانت لا تزال فيها.

أولاً: المغول:

في بداية القرن الميلادي الثَّاني عشر كان المغول مجرد قبائل متفرقة تقطن على ضفاف أعالي نهر "آمور" شرقي شمال آسيا، وكانوا في حروب دائمة مع قبائل التتار التي تسكن إلى الشَّرق منهم. وقد حاول القائد المغولي "كابل خان" توحيد القبائل المغولية في حلف سياسي، وبوفاة كابل خان انهار هذا الحلف، وعادت القبائل المغولية إلى الفرقة والتناحر. خلف كابل خان في قيادة المغول حفيده "يسوكاي" الذي تمكَّن من إنزال عدة هزائم متلاحقة بقبائل التتار، ولكن يسوكاي مات مسموماً، فخلفه ابنه "تيموجن" الذي أصبح عام 1194 خاناً أعظماً للمغول، وأطلق على نفسه لقب "جنكيز خان" أي القوي. تمكَّن جنكيز خان من ضمِّ قبائل التتار إليه، وكذلك الكرايث، واتفق على أن يعرفوا جميعاً باسم المغول. كان جنكيز خان قائداً همجياً بربرياً دمويَّ الطباع، لا تعرف الشَّفقة ولا الرَّحمة طريقاً إلى قلبه، ولا يأبه بآلام ومعاناة البشر ولا بالأهوال والويلات التي ألمت بهم بسببه. فقد انطلقت جيوشه لتجتاح العالم القديم بأسرع من النار في الهشيم. وسحقت أمامها الجيوش الجرارة وحصدت أرواح الملايين من البشر. وقد تميزت حروب جنكيز خان بالبربريَّة والوحشيَّة الفائقة التي دمَّرت المدن والقرى وأحرقتها، وأتلفت المزارع والبساتين ومحت مظاهر الحياة المدنية وأزالتْ معالمها الحضاريَّة في كل مكان وطأته أقدامهم.

تمكَّن جنكيز خان من احتلال الصِّين ومنشورية وكورية، ثم زحف غرباً ليكتسح بخارى وسمرقند وأفغانستان، ثم توجَّه إلى القفقاس واحتل روسية،

وعندما توفي جنكيز خان عام 1227 خلف وراءه إمبراطوريَّة عملاقة تمتدُّ من كورية شرقاً إلى فارس غرباً، ومن سهول سيبيريا شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً. بعد وفاة جنكيز خان خلفه في قيادة المغول القائد "أوكيتاي" الذي قام باجتياح أذربيجان وخراسان وكرواتية وأكرانية والمجر وبولندة. واجتاز القائد المغولي "هولاكو" نهر جيحون في آسيا، بهدف القضاء على الحشاشين. ولكنه لم يتوقف عند هذا الحدِّ، بل تابع سيره نحو عاصمة الخلافة العباسيَّة. كانت بغداد في ذلك الوقت مشهورة بقُوَّة دفاعاتها ومناعة تحصيناتها، وكان بإمكان الخليفة العباسي "المستنصر" أن يحشد مئات الآلاف من المقاتلين داخلها للدفاع عنها وبل إلحاق هزيمة كبيرة بالمغول، ولكنه تقاعس وتخاذل عن فعل ذلك بعد أن أقنعه وزيره "مؤيد الدين بن العلقمي" - الذي كان عميلاً وجاسوساً للمغول في البلاط العباسي - بعدم جدوى مقاومة المغول والدخول في حروب معهم، ونصحه أن يخفض من أعداد جنوده ويوفر أمواله ليقدمها كفدية لهولاكو حتى لا يقوم بمهاجمة المدينة. ولكن هولاكو طلب من الخليفة العباسي الاعتراف له بالسِّيادة على جميع أراضي الخلافة العباسيَّة، وعندما رفض الخليفة المستنصر طلب هولاكو، اقتحم المغول مدينة بغداد في الأول من شهر شباط/ فبراير عام 1258، وارتكبوا مذبحة بربريَّة ذهب ضحيتها 80 ألفاً من السُّكَّان العُزَّل، وقام هولاكو بقتل الخليفة العباسي "المستنصر" وأفراد أسرته وأعضاء بلاطه، ثم عاث المغول تدميراً وسلباً ونهباً بالمدينة. واستولى هولاكو على كنوز العباسيين وأموالهم التي جمعوها على مدى عدة قرون. ثم أمر هولاكو بإلقاء جميع كتب مكتبة بغداد في نهر دجلة، الذي تحولت مياهه إلى اللون الأسود من حبر الكتب. ولما تعفنت جثث القتلى في الشَّوارع والميادين وتحت الأنقاض وفاحت الروائح الكريهة في أجواء بغداد، خشي هولاكو على جنوده من انتشار الأوبئة، فاضطر إلى الرحيل عن المدينة على مضض، لاعتقاده أنه ما زال فيها الكثير من الكنوز الممكن الاستيلاء عليها. وفي عام 1260 زحف هولاكو بجيوشه نحو مدن حلب وحمص ودمشق، وفعل بهم كما فعل بمدينة بغداد. وبسقوط بغداد وحلب ودمشق في أيدي المغول، اعتقد الناس أنه قد قضي على الإسلام نهائياً في عقر داره. قام القائد المغولي في بلاد الشَّام "كتبغا" باجتياح فلسطين في نفس العام، ووصلت طلائع جيشه

إلى مدينة غزة، ولكنَّه لم يتمكَّن من احتلال مدينة القُدس، وبقيت خارج دائرة سيطرة المغول.

معركة عين جالوت وهزيمة المغول

بعد مقتل الملك المعظَّم غياث الدين توران شاه عام 1250، تولَّى حكم مصر المملوك عز الدين أيبك بتزكية من القادة المماليك أنفسهم، وأول ما قام به عز الدين أيبك، بعد توليه الحُكْم، هو تمزيق المماليك وبعثرة شملهم، ففرَّ معظم قادتهم إلى بلاد الشَّام هرباً من بطش السُّلطان عز الدين أيبك. ولإضفاء الشَّرعيَّة على حكمه تزوج من شجرة الدر أرملة الملك الصَّالح نجم الدين أيوب، ولكن السُّلطان عز الدين أيبك قُتل بمؤامرة دبَّرتها شجرة الدر، فعين ابنه الطفل نور الدين علي خلفاً له بوصاية شجرة الدر، وسرعان ما لقيت شجرة الدر مصرعها على يد خدم "أم علي" زوجة عز الدين أيبك الأولى، فاستغل القائد المملوكي قطز بن عبد الله المعزي فرصة الفراغ السياسي الناجم عن مقتل شجرة الدر وقام بعزل السُّلطان الطفل نور الدين علي، وتولى حكم مصر كثاني سلطان من المماليك باسم السُّلطان سيف الدين قطز. وبعد تولي سيف الدين قطز الحُكْم في مصر، عاد إليها القادة المماليك وجنودهم الذين فروا إلى بلاد الشَّام وعلى رأسهم بيبرس البندقداري والتحقوا بخدمة السُّلطان سيف الدين قطز.

في بداية عام 1260 أرسل القائد المغولي هولاكو رسلاً للسلطان سيف الدين قطز في القاهرة يطلب منه الاستسلام لجيوشه والخضوع لسلطانه، فغضب قطز غضباً شديداً، وأمر بقتل رسل هولاكو، ودقَّ طبول الحرب بإعلانه الجهاد في سبيل الله ضد المغول. وأمر السُّلطان سيف الدين قطز بتجميع جيوش المماليك وتجهيزها للقتال، ومما زاد من قوتها وتعدادها ما يلي:

1-انخراط أعداد كبيرة من المجاهدين من مصر وبلاد الشَّام إلى صفوفها.

2-انضمام الجيوش الأيوبية التي انسحبت من حلب ودمشق إلى جيوش المماليك.

3-وصول الجيوش الخوارزمية التي اضطرت للجلاء عن آسيا الوسطى، بعد الاجتياح المغولي لها، وانضمامها إلى جيوش المماليك.

4-عند وصول الجيوش الإسلاميَّة إلى فلسطين انضمَّ إليها جيش رابع هو الجيش الفلسطينيّ.

سارت الجيوش الإسلاميَّة بمحاذاة السَّاحل الفلسطينيّ، ثم انحرفت في شماله إلى الشَّرق باتجاه بلدة عين جالوت الفلسطينيّة، واحتلَّت المرتفعات والتلال والجبال المحيطة بها، حيثُ تمَّ إخفاء الآلاف من الجنود فيها على شكل دائرة مُحكمة لتشكيل كمين قاتل لكلٍّ من يدخله. وفي تلك الأثناء، عبرت قوات المغول نهر الأردن بقيادة القائد المغولي "كتبغا"، واتجهت أيضاً نحو بلدة عين جالوت، دون أن تدري بالكمين الذي أُعدَّ لها هناك. ولإيقاع المغول في كمين القوات الإسلاميَّة، خرجت في أيلول/ سبتمبر عام 1260 مقدمة الجيش الإسلاميّ بقيادة القائد المملوكي بيبرس البندقداري إلى مواقع المغول، فقام الجيش المغولي بأكمله بمطاردتهم للقضاء عليهم. فما أن وصل الجيش المغولي إلى منتصف الكمين، حتى أطبقت عليه الجيوش الإسلاميَّة من كل جانب، ثم دمرته وتمَّ أسر القائد كتبغا، واقتيد مُكبَّلاً بالأغلال إلى خيمة السُّلطان سيف الدين قطز، الذي سخر منه وتهكَّم على جيشه الذي لا يُقهر، فردَّ عليه كتبغا قائلاً: «إني لست كالمماليك الأرقاء، وسوف أبقى دائماً موالياً لسيدي هولاكو»، فسارع الجنود بدقِّ عنقه والإطاحة برأسه في الهواء. بعد الهزيمة السَّاحقة للمغول في معركة عين جالوت فتحت الطَّريق أمام الجيوش الإسلاميَّة لتحرير بلاد الشَّام من المغول، فزحف السُّلطان المظفر سيف الدين قطز نحو مدينة دمشق واحتلها بعد خمسة أيام فقط من معركة عين جالوت. وبعد شهر واحد احتلَّ السُّلطان قطز مدينة حلب، ثم طرد المغول من جميع بلاد الشَّام. وبذلك توحدت مصر وبلاد الشَّام مرَّة ثانية تحت حكم المماليك، وخضعت فلسطين ومدينة القُدس لسلطانهم. وبهذه الانتصارات التَّاريخيَّة، قضى المماليك على المغول وأوقفوا زحفهم البربري على العالم، وخلَّصوه من شرورهم إلى الأبد، ومن الجدير بالذكر أن بعض القادة المغول اعتنقوا الدِّيانة الإسلاميَّة مثل القائد خان بركة، ثم أسس المغول المسلمون إمبراطوريَّة إسلاميَّة عظمى في الهند.

بعد معركة عين جالوت العظيمة، عاد المماليك إلى غدرهم القديم وخيانتهم التي طبعوا عليها، وتحقق فيهم قول القائد المغولي كتبغا، إذ أن القائد

المملوكي بيبرس البندقداري الذي قتل الملك المعظَّم توران شاه من قبل، قام بقتل سيده السُّلطان المظفر سيف الدين قطز، بطعنة سيف من الخلف أثناء رحلة صيد عند أطراف دلتا نهر النيل بينما كان الجيش المملوكي عائداً من فلسطين إلى مصر. وبعد مقتل السُّلطان المظفر سيف الدين قطز سارع القادة والأمراء المماليك بزعامَّة الأتابك أقطاي بمبايعة الظاهر بيبرس البندقداري سلطاناً على مصر.

ثانياً: تطهير بلاد الشَّام من بقايا الصَّليبيَين

كان للمماليك دوراً بارزاً ومهماً في تطهير بلاد الشَّام من بقايا الجيوب الصَّليبيّة، وقد برز في هذا المجال السُّلطان الظاهر بيبرس البندقداري (1260 - 1277) ثالث سلاطين المماليك وبطل معركة عين جالوت وفارسها المغوار بلا منازع. كان بيبرس أعظم سلاطين المماليك والمؤسس الحقيقي لدولتهم وسلطانهم. تمكن السُّلطان الظاهر بيبرس من تحرير إمارة أنطاكية من الصَّليبيّين، وحرَّر أيضاً مدن الرملة وصفد وقيسارية وهونين وتبنين وقلعة الشقيف، وهاجم مدينة صور عدة مرات، مما دفع الصَّليبيّين إلى توقيع معاهدة صلح مع بيبرس لمدة عشر سنوات. ثم جاء السُّلطان الأشرف المنصور قلاوون (1280 - 1290) وابنه الأشرف صلاح الدين خليل، وقاما بتوجيه الضربات الأخيرة للصليبيين.

اهتمَّ جميع سلاطين المماليك، اهتماماً بالغاً، بمدينة القُدس، وما من سُلطان منهم إلا وترك فيها العديد من الآثار العمرانيَّة، مُتمثلة في المدارس والخانات والأربطة والدكك والأسبلة والمساجد. وقام معظم السَّلاطين المماليك بزيارات خاصَّة لمدينة القُدس وكان أكثرهم زيارة لها هو السُّلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي زارها في أربع مناسبات كان آخرها عام 1272. وقد حظي المسجد الأقصى المبارك ومسجد قبة الصَّخرة المشرفة بعناية خاصَّة في العهد المملوكي، فأعيد إعمارهم وترميمهم وألحقت بهم العديد من المباني والمنشآت. وفي عهد الظاهر بيبرس أعيد بناء قبة مسجد الصَّخرة بعد أن كان على وشك السُّقوط. استمرت مدينة القُدس في حوزة المماليك حتى عام 1516 عندما تمكن السُّلطان العثماني سليم الأول من انتزاعها من أيديهم.

6-5: القُدس تحت حُكْم الأتراك العثمانيِّين

بعد وفاة الملك السَّلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان، ضعُفَتْ الدَّولة السَّلجوقيَّة الكبرى، ثم تفكَّكت وانقسمتْ إلى عدة دويلات وإمارات مُتناحرة، فاستغلَّ القائد التركي "أرطغرل" فرصة الضُّعف الذي حلَّ بأبناء عمومته السَّلاجقة، وأعلن انفصاله بإحدى الإمارات السَّلجوقيَّة في آسيا الصُّغرى، وحكمها بصفة مستقلة عن الدَّولة السَّلجوقية. توفي أرطغرل عام 1288 فخلفه على عرش الإمارة ابنه عثمان الذي استهلَّ حكمه بالتوسُّع الإقليمي في آسيا الصُّغرى على أنقاض الدَّولة السَّلجوقيَّة المنهارة وعلى حساب الإمارات البيزنطيَّة المجاورة أيضاً، ونظراً لجهود عثمان العظيمة في توسيع ملكه وامتداده عرفت دولته باسم الدَّولة العثمانيَّة نسبة إليه. وفي عام 1326 توفي عثمان بن أرطغرل بينما كانت قوات ابنه أورخان تستولي على مدينة بروسيا البيزنطيَّة. خلف عثمان في حكم الدَّولة العثمانيَّة ابنه أورخان الذي اتبع سياسة والده في التوسُّع الجغرافي، فاستولى على إقليم بيثينيا ونيقة "أسنك" عام 1329 ثم على نيقوميديا "أزمت" عام 1337. اهتمَّ أورخان بالجانب العمراني والحضاري في الدَّولة العثمانيَّة، فبنى المساجد والمدارس والمشافي والخانات وصكَّ عملات معدنيَّة منقوش على أحد وجهيها شهادة "لا إله إلا الله"، وعلى الجانب الآخر اسم أورخان. ولكن أهم أعمال أورخان كانت تأسيسه للجيش العثمانيّ الذي حقَّق انتصارات باهرة فيما بعد. تشكل الجيش العثماني في عهد أورخان من الفيالق التالية:

1-فيالق الحرس السُّلطاني.

2-فيالق الفرسان الإقطاعيين.

3-فيالق الإنكجية، أي قوات المناوشة الخفيفة.

4-فيالق اليني تشرية أو الإنكشارية*.

---

* الينى تشرية: أو ما عرف تاريخياً باسم الانكشارية بمعنى الجنود الجدد، هم عبارة عن فرق عسكرية من المشاة مكونة من جنود أقوياء عرفوا بالصرامة والبطش والبأس الشّديد، وقد زرعوا الخوف والرعب والموت والدمار في كل مكان وطأته أقدامهم. تولى بعض قادة الإنكشارية مناصب إدارية ومدنية في كثير من الولايات العثمانيَّة. والإنكشارية في الأصل

انتهز أورخان فرصة النزاع الدائر على العرش في الدَّولة البيزنطيَّة فأرسل ابنه الأكبر "سليمان" ليعبر مضيق الدردنيل إلى أوروبا، وقام باحتلال إقليم تراقيا، ثم وضع جالية تركية مكونة من 30 ألف6 نسمة في جزيرة غاليبولي. وبعد أن فتح سليمان بن أورخان الطَّريق إلى القارَّة الأوروبيَّة لحق به شقيقه الأصغر مراد بقواته وتمكن عام 1357 من احتلال مدينة أدرنة البيزنطيَّة وعدد من المدن الأُخرى. توفي السُّلطان أورخان عام 1359 بعد أن وضع الأسس الكفيلة بتكوين إمبراطوريَّة عثمانية عظمى، فخلفه ابنه الأصغر مراد الأول بدلاً من شقيقه الأكبر سليمان الذي لقي مصرعه في حادث سقوط عن جواده. نقل مراد الأول عاصمته إلى مدينة أدرنة، واتخذ منها مركزاً لعملياته التوسعية في أوروبا، فزحف بجيوشه غرباًواحتل مدينة تسالونيكي عام 1359 وبدأ يفكر جدياً في اجتياح البلقان. وهنا أدركت الدول الأوروبيَّة خطورة السُّلطان مراد الأول على وجودها، فشكلت حلفاً عسكرياً مكوناً من صربيا وبلغاريا والمجر وبولندا، وزحفت جيوش التَّحالف الأوروبي بقيادة الملك الصربي "لازارس" لمقابلة الجيوش العثمانيَّة بقيادة مراد الأول في معركة قوصوه الأولى. تمكن السُّلطان مراد الأول من إلحاق هزيمة ساحقة بجيوش التَّحالف وأسر الملك الصربي لازارس وتم إعدامه، ولكن مراد الأول قتل أيضاً في نهاية المعركة، فخلفه ابنه بايزيد الأول (1389- 1402) الذي اجتاح بلاد البلقان بعد هزيمته لجيوش عدة دول أوروبيَّة بعد معركة نيقوبولس.

تعرَّضت الدَّولة العثمانيَّة عام 1402 لإعصار الغزو المغوالي بقيادة تيمورلنك، وقد اكتسحت الجيوش المغولية أراضي الدَّولة العثمانيَّة وسحقت جيوشها، وأسر السُّلطان بايزيد الأول، واقتاده تيمورلنك مكبلاً بالحديد إلى عاصمته سمرقند. ويبدو أن أوروبا، وقتئذ، كانت في حالة بالغة في الضُّعف، فلم تحاول إطلاقاً الانقضاض على بقايا الجيش العثماني وتخليص نفسها من

أطفال أحضروا من العالم المسيحي أثناء الحروب العثمانيَّة - الأوروبيَّة، ثم تم تدريبهم تدريباً إسلامياً عسكرياً صارماً ثم ألحقوا بالوحدات المقاتلة عند كبرهم. وجنود الإنكشارية قساة لا تعرف الشفقة والرحمة طريقاً إلى قلوبهم وممنوع عليهم الزواج وتكوين الأسرة، فالثكنة العسكريّة هي كل حياتهم، مهنتهم الحرب والقتال وهدفهم حماية السلطان العثماني والقضاء على أعدائه.

قبضته. بعد أسر تيمورلنك للسلطان بايزيد الأول تولى حكم الدَّولة العثمانيَّة ابنه محمد الأول ثم حفيده مراد الثَّاني، الذي أعاد بناء الجيش العثمانيّ، وأعاد له قوته وهيبته، وتمكَّن من إلحاق هزيمة كبيرة بقوات التَّحالف الأوروبي في معركة قوصوه الثَّانية. وبوفاة السُّلطان مراد الثَّاني تولى ابنه السُّلطان محمد الثَّاني الملقب بالفاتح (1451- 1481)، الذي تمكن عام 1453 من الاستيلاء على مدينة القسطنطينيَّة عاصمة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة الشَّرقية وجعلها عاصمة لدولته. وفي عهد السُّلطان العثماني سليم الأول (1512- 1520) بدأت أنظار الأتراك العثمانيين تتجه نحو العالم الإسلاميّ وتتطلع إلى السِّيادة والهيمنة عليه، وانتقاماً من الشَّاه إسماعيل الصفوي شاه إيران، لتحريضه الدائم لأمراء الولايات العثمانيَّة المجاورة لإيران، بالخروج على سلطة الحكومة المركزية في القسطنطينيَّة، ولاحتضانه لأبناء البيت العثماني المعادين لنظام الحُكْم، قام السُّلطان سليم الأول بتجهيز جيش خاص، قاده بنفسه، وغزا الأراضي الإيرانية عام 1515، وهزم الشَّاه إسماعيل الصفوي في معركة تشالديران بالقرب من مدينة تبريز، ثم عاد إلى بلاده بعد أن ضمَّ كردستان وديار بكر لإمبراطوريته. وفي القاهرة أدرك السُّلطان المملوكي قنسوه الغوري أن حركة سليم الأول الثَّانية سوف تكون باتجاه أراضي مملكته انتقاماً من المماليك لهزيمتهم الجيش العثماني داخل الأراضي العثمانيَّة في عهد السُّلطان الأشرف قايتباي، إضافة إلى تحالف المماليك مع الشَّاه إسماعيل أحمد شقيق سليم الأول وأحد المطالبين بالعرش العثماني. ولتفويت فرصة مهاجمة سليم الأول لمصر والقبض على زمام المبادرة قام السُّلطان المملوكي قنسوه الغوري بالزحف بجيشه نحو الأطراف الشَّمالية لبلاد الشَّام، والتقى بالجيش العثماني في معركة مرج دابق الواقعة شمالي مدينة حلب عام 1516. وفي هذه المعركة انضمَّت ميسرة جيش قنسوه الغوري بقيادة الأمير المملوكي (خايربك) للجيش العثماني، مما أدى إلى هزيمة ساحقة للمماليك ومقتل السُّلطان قنسوه الغوري. بعد مقتل قنسوه الغوري تولى حكم مصر السُّلطان المملوكي الأشرف طومان باي، أرسل السُّلطان طومان باي حملة عسكريَّة عام 1516 إلى بلاد الشَّام بقيادة الأمير المملوكي جان بردي الغزالي لملاقاة الجيش العثماني في منطقة غزة، ولكن الأمير جان بردي الغزالي خان

سيده طومان باي تماماً مثلما خان الأمير المملوكي خاير بك سيده قنسوه الغوري، وقد ترتَّب على هذه الخيانة استسلام جيش المماليك للعثمانيين دون قتال. ومع اقتراب الجيش العثماني من الحدود المصريَّة، اضطرَّ السُّلطان طومان باي إلى إعداد جيش جديد على عجل، وزحف به من مدينة القاهرة إلى "الريدانية" الواقعة الآن بين منطقتي العباسيَّة ومصر الجديدة بالقاهرة. ثم خطط طومان باي لمواصلة السير إلى بلدة الصَّالحية بمحافظة الشَّرقية المصريَّة لمنازلة الجيش العثماني بعيداً عن القاهرة، إلا أن قادة جنده نصحوه بالبقاء في الريدانية انتظاراً لوصول الجيش العثماني. وفي عام 1517 أنزل السُّلطان سليم الأول ضربة ساحقة وقاضية بالمماليك في معركة الريدانية، أدَّت إلى زوال دولتهم نهائياً. وبعد بضعة أيام، تَّم القبض على السُّلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك، وأمر سليم الأول بإعدامه، وقد تمَّ تنفيذ الحُكم على قنطرة باب زويلة بالقاهرة. وباحتلال الأتراك العثمانيِّين لمصر وفلسطين وبلاد الشَّام، فُتِحت أبواب العالم العربيّ أمامهم، فاستولوا على العراق والحجاز واليمن وشمال أفريقية ما عدا مراكش. وفي عهد السُّلطان سليمان القانوني بن سليم الأول (1520– 1566) أصبحت الدَّولة العثمانيَّة إمبراطوريَّة مترامية الأطراف تحتل أراضي شاسعة في ثلاث قارات وتمتدُّ من بغداد شرقاً إلى بودابست غرباً، ومن القرم شمالاً إلى شلال نهر النيل الأول جنوباً. ومن الجدير بالذكر أن السُّلطان سليمان القانوني قد حاصر مدينة فيينا النمساوية، ولكنه لم يتمكَّن من الاستيلاء عليها، ويبدو أنه من حظِّ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة أنها بعيدة عن متناول الجيش العثماني، وإلا لتمكَّن الأتراك العثمانيُّون من احتلالها وتحويلها إلى أرض إسلاميَّة. وفي جميع مساجد الولايات العثمانيَّة الشَّاسعة، باختلاف أعراقها وأجناسها وقومياتها ولغاتها، كانت تقام الخطبة باسم السُّلطان العثماني باعتباره «ملك البرين وخاقان البحرين وقاهر الجيشين وملك العراقين وحامي الحرمين الشَّريفين».

فور سيطرة الأتراك العثمانيين على فلسطين، قام السُّلطان سليم الأول في الثَّامن والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر عام 1516 بزيارة خاصَّة لمدينة القُدس استغرقت يومين. وعندما وصل الموكب السُّلطاني مشارف القُدس وجد

في استقباله بحفاوة بالغة وترحيب شديد جمع غفير من علماء الدين والأعيان والوجهاء والأهالي، وقدَّم له الشُّيوخ مفاتيح المسجد الأقصى ومسجد قبة الصَّخرة وملحقاتها، فقام السُّلطان سليم الأول بتقديم الهدايا الثمينة لهم، وثبت الأعيان في مناصبهم، ورفع عن الأهالي الضَّرائب الباهظة، التي كانت مفروضة عليهم في العهد المملوكي. وبناءً على طلب من ملك إسبانيا سمح السُّلطان سليم الأول للحجاج المسيحيين بزيارة مدينة القُدس في مقابل الرسوم المالية التي كانوا يدفعونها للماليك. وفي عهد السُّلطان سليمان الأول الملقب بالقانوني لأنه سنَّ كثيراً من الشَّرائع والقوانين بلغت الدَّولة العثمانيَّة العليَّة ذروة مجدها واتِّساعها وأوج قوتها السِّياسيَّة والعسكريّة. وبالنسبة لمدينة القُدس أولاها سليمان القانوني عناية فائقة فأصدر أوامره بترميم الحرم القُدسي الشَّريف وأسوار المدينة، وأيضاً قناة السَّبيل التي تمد المدينة بالمياه العذبة من البرك والينابيع الواقعة بين مدينتي بيت لحم والخليل، ثم رمم البرك التي تصب فيها قناة السَّبيل، داخل مدينة القُدس وأصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم برك سليمان أو برك السُّلطان. وقد ظل الاهتمام بالقُدس ومقدساتها الإسلاميَّة سياسة عامَّة للسلاطين العثمانيين حتى نهاية حكمهم للمدينة عام 1917.

ومن الناحية التَّنظيميَّة والإداريَّة كانت فلسطين حتى عام 1847 مقسمة إلى قسمين: قسم شمالي تابع لولاية الشَّام الكبرى، وقسم جنوبي تابع لمتصرفية القُدس المستقلة. ثم أجريت بعض التعديلات الإداريَّة أصبح بموجبها سنجق القُدس والأقضيَّة التابعة له وهي: الخليل وبيت لحم وأريحا وبئر السبع وغزة وقراهم تحت السلطة المباشرة للسلطان العثماني ووزارة داخليته، بينما ألحق كل من سنجق نابلس وأقضيته (جنين، طولكرم، بيسان، طوباس) وسنجق عكا وأقضيته (حيفا، الناصرة، صفد، طبريا) بولاية بيروت الجديدة. وكان يحكم السنجق حاكم يسمى أمير اللواء أو سنجق بك، وهو غالباً ما يكون تركي الأصل ويساعده نائب له يسمى "الكخيا". كان حاكم اللواء يتولى حفظ الأمن والنِّظام في منطقته ويشرف على الشؤون الإداريَّة ويقوم بجباية الضَّرائب من الأهالي ويقود القوات المُسلَّحة التابعة للسنجق. ومن الجدير بالذكر أن حاكم اللواء كان

يحكم لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد، وغالباً ما كان يقتل بعد انتهاء مدة خدمته!!

كانت مدينة عكا هي العاصمة الإداريَّة للسلطات العثمانيَّة في فلسطين وليس مدينة القُدس كما هو متوقع. ومن الناحية العسكريّة كانت فلسطين حتى عام 1908 تابعة لقيادة الجيش العثماني الثَّامن الذي كان يتخذ من مدينة دمشق مقراً لقيادته، ويقوده ضابط تركي برتبة مشير. ثم أسندت مهمة الإشراف العسكريّ على فلسطين للجيش العثماني الرَّابع، وفي سنجق القُدس كانت القوات المُسلَّحة يقودها ضابط تركي برتبة فريق، أما في سنجقي نابلس وعكا، فيتولى قيادة العساكر ضباط برتبة أميرالاي.

في النصف الأول من القرن الثَّامن عشر بدأ الضُّعف والتقهقر يظهر بوضوح على الدَّولة العثمانيَّة، فأصيبت بعدة نكسات سياسيَّة وهزائم عسكريَّة أدت إلى توقيع صلح بلغراد بينها وبين الدول الأوروبيَّة عام 1839 بوساطة فرنسية. وقد استعادت الدَّولة العثمانيَّة بموجب هذا الصلح بعض أراضيها التي خسرتها في معاهدة "بساروفيتش". في النصف الثَّاني من القرن الثَّامن عشر أصبحت روسيا القيصرية هي العدو الأول للدولة العثمانيَّة، وإرضاء روسيا تنازلت لها الدَّولة العثمانيَّة عن مساحات شاسعة من أراضيها في منطقة البحر الأسود، بموجب اتفاقية "كاتشوك كاينرجيه" المبرمة بين الطرفين، وأخطر ما في هذه الاتفاقية أن روسيا القيصريَّة غدت هي الحامية والوصيَّة المباشرة على الكنيسة الأرثوذكسيَّة في مدينة القُدس. وفي نهاية القرن الثَّامن عشر، تعرَّضت فلسطين وهي لا تزال من أملاك الدَّولة العثمانيَّة لغزو فرنسي فاشل بقيادة الجنرال نابليون بونابرت، ثم تعرَّضت فلسطين في العقد الرَّابع من القرن التَّاسع عشر، وهي ولاية عثمانية أيضاً، إلى اجتياح جيوش محمد علي باشا والي مصر بقيادة ابنه إبراهيم باشا، الذي حكمها لمدة عشر سنوات.

أولاً: نابليون بونابرت

في عهد السُّلطان العثماني سليم الثَّالث (1788 - 1807) بلغ الضُّعف بالدَّولة العثمانيَّة حداً بالغاً، أغرى القائد الفرنسي نابليون بونابرت بالدخول في

مغامرة عسكريَّة في المشرق العربيّ، هدفها الرئيسي احتلال مصر وبلاد الشَّام، وانتزاعهما بالقُوَّة من يد الدَّولة العثمانيَّة المريضة، ثم توجيه ضربة قاضية للإمبراطوريَّة البريطانيَّة، بقطع طريق مواصلاتها في الشَّرق، وحرمانها من وراثة أملاك الدَّولة العثمانيَّة المنهارة "الرجل المريض". في عام 1798 جهز نابليون بونابرت حملة عسكريَّة ضخمة، توجهت بحراً إلى مصر. وفي شهر تموز/ يوليو من نفس العام احتل الجيش الفرنسي مدينة الإسكندريَّة المصريَّة. وفور احتلاله للمدينة، قام نابليون بونابرت بتوزيع منشور باللُّغة العربيَّة الفُصحى، قال فيه: إنه صديق السُّلطان العثماني الحريص عليه من مكائد المماليك في الداخل ومؤامرات الملوك المسيحيين في أوروبا، وإنه ما جاء إلى مصر إلا لتخليص الشَّعب المصري من ظلم المماليك وصلفهم وغطرستهم. وبعد استتباب الأوضاع لنابليون بونابرت في مدينة الإسكندريَّة زحف بجيشه نحو مدينة القاهرة وتمكن من احتلالها بعد هزيمته لجيش المماليك بقيادة مراد بك في معركتي إمبابة وشبراخيت. وفي القاهرة استطاع نابليون بونابرت بحنكته ودهائه خداع الشَّعب المصري وعلماء الجامع الأزهر وكسب ثقتهم ومودتهم بتظاهره اعتناق الدِّيانة الإسلاميَّة وقيام علماء الحملة الفرنسيَّة بتنفيذ بعض المشروعات العمرانيَّة والحضاريّة في مصر، ولكن سرعان ما انكشف أمره وظهر بوجهه الشيطاني البغيض فهبت الثورات الشَّعبية ضده في القاهرة.

عندما وصلت أخبار الحملة العسكريّة الفرنسيَّة على مصر إلى فلسطين، شعر الشَّعب الفلسطينيّ بقلق بالغ لأنه اعتبرها حملة صليبية جديدة على غرار الحملات الصَّليبيّة الأولى في مطلع الألفيَّة الثَّانية للميلاد، فسارع ممثلي الشَّعب الفلسطينيّ بالطلب من الوالي العثماني في دمشق أن يعمل على تزويد الشَّعب الفلسطينيّ بالسِّلاح، لكي يتمكَّن من الدفاع عن بيت المقدس وفلسطين بأسرها في حال إذا فكر نابليون بونابرت بغزوها. تظاهر الوالي العثماني بالموافقة على مطالب الشَّعب الفلسطينيّ، ولكنه عاد بعد أسبوعين وأخبر قادة الشَّعب الفلسطينيّ بأنه قد تقرر تعيين القائد أحمد باشا الجزار قائداً عاماً للقوات العثمانيَّة في فلسطين، وهو الذي سيتولى بنفسه الدفاع عن فلسطين، وبالتالي لا حاجة أو ضرورة لتسليح الشَّعب الفلسطينيّ. وفي تلك الأثناء، أرسل القاضي

الفلسطينيّ موسى الخالدي قاضي قضاة عسكر الأناضول استنفاراً للشعب الفلسطينيّ، يطلب منه الاستعداد لقتال قوات نابليون بونابرت، فثارت ثائرة الشّعب الفلسطينيّ، وانتفض في الشّوارع، وقامت مجموعات منه بمهاجمة بعض الأديرة والكنائس، واحتجزوا رهبانها كرهائن، ولكنّ الوالي العثماني في دمشق أمرهم بالتريُّث والتّروّي، وقام بوضع حراسات مشدّدة على الأماكن المسيحيّة في فلسطين.

بعد هدوء الأحوال نوعاً ما في مصر، زحف نابليون بونابرت بجيشه نحو فلسطين عام 1899، وسار بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط واحتل مدن: رفح وخان يونس وغزة ويافا، ثم انحرف شرقاً واحتلّ مدينتي اللِّد والرّملة. بعد احتلال مدينة الرّملة توقع الشّعب الفلسطينيّ أن حركة نابليون بونابرت التالية سوف تكون موجهة ضد مدينة القُدس، فتوافد إلى المدينة عشرات الآلاف من المجاهدين للدفاع عنها، وصد الهجوم النابليوني. ولكن القوات الفرنسيّة لم تهاجم مدينة القُدس وإنما توجهت إلى مدينة عكا السّاحليّة عاصمة الإدارة العثمانيّة في فلسطين، وقامت بفرض حصار برِّي وبحري مُحكم لمدة شهرين، وبالرَّغم من جميع المحاولات، لم يتمكّن نابليون من احتلال مدينة عكا لثلاثة أسباب:

الأول: مقاومة الشّعب الفلسطينيّ العنيفة في المدينة وصمودها البطولي في وجه القوات الفرنسيّة بقيادة واليها أحمد باشا الجزار.

والثّاني: قيام وحدات من الأسطول البريطاني بقيادة السير سيدني سميث بالمساعدة في فكِّ الحصار البحري المضروب على مدينة عكا، مما كان له كبير الأثر في وصول الإمدادات والأسلحة والذخائر للمدينة واستمرار صمودها ومقاومتها.

وثالثاً: تفشي وباء الطاعون في القوات الفرنسيّة مما أدى إلى مقتل الآلاف منهم.

تعثّرت الحملة الفرنسيّة في فلسطين تعثُّراً شديداً، فاضطر نابليون إلى الانسحاب منها بمن تبقى من جنوده، وعاد إلى مصر وتخلّى نهائياً عن فكرة غزو فلسطين وبلاد الشّام. وفي مصر لم تكن أوضاع الحملة الفرنسيّة تسير على ما

يرام، فغادرها نابليون بونابرت سراً عائداً إلى بلاده، ثم اضطرَّت القوات الفرنسيَّة للجلاء عن مصر عام 1802 قبل انقضاء أربع سنوات على وصولها للشواطئ المصريَّة. وهكذا تحطَّمت أحلام وآمال جنرال الثَّورة الفرنسيَّة اللامع أمام أسوار مدينة عكا الفلسطينيّة، وفشل مشروعه الاستعماري في مصر وبلاد الشَّام. ولكن نابليون بونابرت نجح إلى حدٍّ كبير في زرع البذرة الأولى للمشروع الاستعماري الاستيطانيّ اليهودي في فلسطين قبل ميلاد الحركة الصُّهيونيّة الحديثة بقرن من الزمن. فمن خارج أسوار مدينة عكا وجه نابليون بونابرت نداءً إلى يهود العالم، تمَّ نشره في الجريدة الرسميَّة الفرنسيَّة، يدعوهم للإسراع بالانضمام إلى قواته المتواجدة في فلسطين، من أجل استعادة مجدهم الغابر فيها أيام داود وسليمان عليهم السَّلام. لم يكن هذا النداء وليد الصُّدفة، أو بسبب ظروف طارئة وحرجة واجهتها القوات الفرنسيَّة في فلسطين، فمن المؤكد أن نابليون بونابرت قد درس مثل هذا المشروع قبل خروجه من فرنسا على رأس حملته العسكريّة إلى المشرق العربيّ بوقت طويل. كانت خطة نابليون بونابرت تتلخص في احتلال مصر وبلاد الشَّام، ثم وضع كيان بشري غريب من اليهود في فلسطين التي تشكل زاوية الاتصال الرئيسية بين عرب آسيا وعرب أفريقيا، على أن يكون هذا الكيان تحت السَّيطرة والهيمنة الفرنسيَّة المطلقة ليكون بمثابة مركز فرنسي متقدم في المشرق العربي، يمنع أي شكل من أشكال وحدة العرب ويضمن لفرنسا فرصة التفرغ لوراثة أراضي الدَّولة العثمانيَّة.

ثانياً: محمَّد علي باشا

محمَّد علي باشا: مؤسس مصر الحديثة، هو ألباني الأصل من جزيرة قولة، وكان قبل التحاقه بالجيش العثماني يعمل هو وعائلته في تجارة التمباك. كان محمد علي ضابطاً في الفرقة العسكريّة الألبانيَّة التي أرسلها السُّلطان العثماني سليم الثَّالث مع قوات أُخرى إلى مصر لإعادة الأمن والنِّظام إليها بعد رحيل قوات الحملة الفرنسيَّة. تولى محمد علي قيادة الفرقة الألبانيَّة بعد مقتل قائدها في حركة تمرد على لسلطان العثماني، وفور توليه قيادة الفرقة العسكريّة الألبانية في مصر، أعلن محمد علي ولاءه للسُّلطان العثماني وعداءه للمماليك،

وبدأ يتقرب من علماء الجامع الأزهر والشَّعب المصري بصفة عامَّة. وبعد أحداث الثَّورة الشَّعبية في القاهرة عام 1805 ضد الوالي العثماني خورشيد باشا، اختار الشَّعب المصري وعلماء الأزهر محمد علي والياً لمصر، فلم يجد السُّلطان سليم الثَّالث بداً من تعيينه رسمياً في هذا المنصب، وقام بمنحه رتبة باشا. ويبدو أن طموح محمد علي باشا جعله يفكر جدياً في لعب دور كبير خارج حدود مصر، فانفصل عن الدَّولة العثمانيَّة وقضى على المماليك في مصر قضاءً مبرماً، وأسس جيشاً حديثاً وأسطولاً بحرياً قوياً. انطلقت جيوش محمد علي خارج الحدود المصريَّة لتجتاح السودان وتصل إلى جنوبه بقيادة ابنه الأمير عمر طوسون، وتوجه ابنه الأكبر إبراهيم باشا شمالاً واحتل فلسطين عام 1831 متذرعاً بحجة القبض على ستة آلاف فلاح مصري فروا من الخدمة العسكريّة في مصر والتجؤوا إلى عبد الله باشا والي عكا. ولكن إبراهيم باشا لم يتوقف عند احتلال فلسطين، وإنما تابع سيره شمالاً واجتاح بلاد الشَّام جميعها، ثم اجتاز جبال طوروس إلى أضنة وهزم الجيش العثماني في معركة قونية، ووصل بقواته إلى بلدة نصيبين، مهدداً بذلك الدَّولة العثمانيَّة في عقر دارها. وفي نفس الوقت تمكَّن الأسطول المصري من تدمير الأسطول العثماني في موقعة بحريَّة كبرى. وإزاء تهديد دولة الخلافة العثمانيَّة من قبل جيوش محمد علي باشا، استنجد السُّلطان العثماني محمود الثَّاني بقيصر روسيا، الذي أبدى استعداده لإعلان الحرب على محمد علي باشا، وبدأت قواته البرية والبحريَّة تتدفق بالفعل على البسفور، إلا أن هذه الأزمة انتهت بتوقيع معاهدة "كوتاهية"، التي أعطت لمحمد علي باشا ولايات أضنة والشَّام وفلسطين، دون أن يحق له توريثها لأولاده من بعده.

وفي أقصى الغرب الأوروبي، كان رئيس الوزراء البريطاني "اللورد بالمرستون" يراقب بقلق بالغ انتصارات جيوش محمد علي باشا على الجيوش العثمانيَّة في عقر دارها، وأشد ما كان يخشاه ويشغل باله هو أن يتمكَّن محمد علي باشا من تحقيق أمرين، من شأنهما أن يطيحا بأحلام بريطانيا ويحرمانها من الاستيلاء على تركة الرجل المريض "الدَّولة العثمانيَّة".

الأمر الأول: هو أن يتمكَّن محمد علي باشا من الاستيلاء على عاصمة الخلافة العثمانيَّة وإقصاء آل عثمان عن الحُكْم، ثم يقوم بحنكته ودهائه وذكائه بتجديد شباب الدَّولة العثمانيَّة والعودة بها إلى مصاف الدول العظمى في العالم كما كانت من قبل مما يؤدي إلى انحسار وربما توقف دور بريطانيا الاستعماري الذي تحلم بلعبه على حساب ولايات الدَّولة العثمانيَّة المنهارة.

والأمر الثَّاني: خشية بريطانيا من ازدياد نفوذ روسيا القيصريَّة في المنطقة ولدى السُّلطان العثماني، وما يحمله ذلك من إمكانيَّة سيطرة روسيا على بعض الولايات العثمانيَّة وحرمان بريطانيا منها.

عكف اللورد بالمرستون - رئيس الوزراء البريطاني - على التفكير في وسائل كبح جموح محمد علي باشا وانسحاب جيوشه من أراضي الدَّولة العثمانيَّة وبلاد الشام، وتقييده بالمعاهدات الدولية التي تلزمه بالتقوقع داخل الحدود المصريَّة. وفي نهاية المطاف عرض اللورد بالمرستون على محمد علي باشا أن تعطى له فلسطين فقط طيلة حياته، دون أن يكون له الحق في توريثها لأولاده من بعده، بينما يكون حكم مصر وراثياً في عائلته، وأمهله عشرة أعوام للردِّ على عرضه. لم يوافق محمد علي باشا على عرض رئيس الوزراء الريطاني، فقامت بريطانيا بعد انتهاء المهلة التي أعدتها لمحمد علي بقيادة جيوش تحالف عسكري مكوَّن من عدة دول أوروبيَّة. وفي البداية دمرت أساطيل التَّحالف الأسطول المصريَّ في خليج نافارينو، ثم دكَّت مواقع جيوش محمد علي باشا في بلاد الشَّام، وقطعت طرق مواصلاتها، ثم هاجمت فرق مشاة التَّحالف بلاد الشَّام، وتوغلت وحدات عسكريَّة بريطانيَّة داخل فلسطين واحتلت مدن القُدس ونابلس ويافا، فاضطر محمد غلي للانسحاب بجيوشه عام 1841 إلى داخل الحدود المصريَّة.

كان الحُكْم المصري لفلسطين زمن محمد علي باشا مقبولاً في بادئ الأمر، إذ قام إبراهيم باشا - نجل محمد علي وساري عسكر عكا ووالي جدة - بما يلي:

1-أجرى إبراهيم باشا إصلاحات إدارية واسعة في أجهزة الدَّولة.

2-استبدل القوانين العثمانيَّة القديمة بقوانين حديثة.

3-شكل مجالس للشورى في القرى والمدن.

4-أنعش إبراهيم باشا الاقتصاد الفلسطينيّ بشكل ملحوظ.

5-قضى قضاءً مبرماً على غارات البدو على المناطق الريفية فعم الأمن والاستقرار ربوع فلسطين وانتعشت الحياة الزِّراعية.

ولكن لم تمضِ سوى فترة قصيرة على استتباب الأوضاع في فلسطين، حتى جاءت الأوامر لإبراهيم باشا من والده في القاهرة بفرض الضَّرائب الباهظة على الشَّعب الفلسطينيّ ونزع سلاحه وتطبيق قانون التجنيد الإجباري عليه. وإزاء هذه الأوامر الصَّارمة، اجتمع زعماء الشَّعب الفلسطينيّ في مدن القدس والخليل ونابلس، واتفقوا على رفضها، وقاموا بنقل رغبتهم لإبراهيم باشا الذي أصر على تطبيقها بحذافيرها. ومن هنا بدأت القطيعة بينه وبين الشَّعب الفلسطينيّ، ولم تمضِ سوى أيام قليلة حتى عمَّت القلاقل والاضطرابات طول البلاد وعرضها، ثم اندلعت الثَّورة الفلسطينيّة ضد الحُكْم المصري. ويبدو أنه قد خطَّط جيداً لهذه الثَّورة، إذ إن الثوار حاصروا مدينة القُدس، ثم استولوا عليها، وقاموا بطرد الجيش المصري منها، إلا أن إبراهيم باشا تمكَّن من استرجاع المدينة بعد مهاجمتها بقوات كثيفة جداً. وقد ظلَّت حالة العداء بين الشَّعب الفلسطينيّ والسُّلطات المصريَّة قائمة، طيلة احتلال محمد علي باشا لفلسطين.

ثالثاً: عودة القُدس للسِّيادة العُثمانيَّة

في عام 1841 تمكَّن السُّلطان العثماني عبد المجيد (1839- 1861) بمساعدة أساطيل التَّحالف الأوروبي من إجبار جيوش محمد علي باشا على الجلاء من بلاد الشَّام وفلسطين، بعد عشر سنوات من احتلالهما. وبذلك عادت مدينة القُدس للسِّيادة العثمانيَّة، وبقيت في حوزتهم إلى حين انتزاعها منهم عام 1917 على بد القوات البريطانيَّة أثناء الحرب العالميَّة الأولى.

وبحلول القرن الميلادي التَّاسع عشر شاخت الإمبراطوريَّة العثمانيَّة العملاقة ونخرت الأمراض جسدها الهزيل، وغدت فريسة سهلة للقوى الاستعماريَّة الأُخرى. ومن أهم العوامل التي أدت إلى انحطاط وتقهقر الدَّولة العثمانيَّة ما يلي:

1-كان نظام الحُكْم في الدَّولة العثمانيَّة نظاماً وراثياً وحكراً على آل عثمان طيلة سبعة قرون، ولم تدخل إليه دماء جديدة إلا من ناحية الحريم والجواري الأجنبيات غير المسلمات. وقد جاء هذا النِّظام بسلاطين فاقدي الأهلية والحنكة السِّياسيَّة الكافية لإدارة شؤون البلاد بحكمة ومقدرة، بالإضافة إلى أن تعدد الزوجات والجواري لدى السلاطين العثمانيين أدى إلى صراعات خطيرة بين الأخوة في البيت الواحد للفوز بالسلطة، وقد وصلت هذه الصِّراعات حداً جنونياً كان يدفع أحد الأخوة إلى قتل جميع أخوته في بعض الأحيان، ليستولي على الحُكْم وينفرد به. وقد عصفت حمى النزاع والتنافس على الحُكْم بأفراد البيت العثماني، فعزل الابن والده والأخ أخاه وابن الأخ عمه، كما حدث على سبيل المثال مع سليم الأول عندما عزله ابنه سليمان القانوني، وعزل مراد الخامس عمه السُّلطان عبد المجيد.

2-تحكم قادة الإنكشارية بالسلاطين العثمانيين، يقومون بعزلهم أو قتلهم متى شاؤوا، ويعينون من شاؤوا ويملون عليهم شروطهم ويطلبون منهم تنفيذ رغباتهم وطلباتهم التي لا تنتهي، تماماً كما كان يفعل السَّلاجقة الأتراك أبناء غمومة الأتراك العثمانيين بالخلفاء العباسيين من قبل.

3-تبديد أموال الدَّولة العثمانيَّة في الإنفاق الخيالي على رفاهية السَّلاطين الشَّخصية وملذاتهم لخاصَّة، فاضطر السَّلاطين العثمانيون إلى فرض ضرائب باهظة على شعوبهم، من أجل تعويض العجز الخطير في ميزانية الدَّولة، فساءت الأحوال الاقتصاديَّة في الولايات والأقاليم العثمانيَّة، وتفشى فيها الفقر والجهل والمرض، مما أدى إلى اندلاع ثورات شعبية مُسلَّحة ضد السُّلطة المركزيَّة في استانبول، التي فقدت القدرة على السَّيطرة على الولايات الشَّاسعة، فعمت الفوضى، وفُقِدَ الأمن في كل مكان من الإمبراطوريَّة العثمانيَّة.

4-الحروب الكثيرة التي خاضتها الدَّولة العثمانيَّة في الشَّرق والغرب، فهي في واقع الأمر دولة وضع نظامها الأساسي لأغراض حربيَّة هدفها التَّوسُّع والامتداد الجغرافي بالدَّرجة الأولى. وقد اعتمدت الدَّولة العثمانيَّة على مبدأ استخدام القُوَّة المفرطة لإخضاع الشُّعوب دون الالتفات لمصالح تلك الشُّعوب

ودون مراعاة لخصوصياتها القوميَّة والثقافية والحضاريّة واللُّغوية والاجتماعية. ولم يحاول الأتراك الاستفادة من تجربة العرب في إدارة شؤون إمبراطوريتهم الإسلاميَّة المترامية الأطراف من منطلق إسلامي بحت غلبت عليه الحُكْمة التسامح واللاعنصريَّة. وقد زادت الهوة بين الأتراك العثمانيين والقوميات الأُخرى داخل الإمبراطوريَّة العثمانيَّة مع ظهور القوميَّة الطَّورانيَّة في تركيا التي كانت تنادي بإلغاء جميع القوميات لصالح القوميَّة الطورانيَّة وفرض اللُّغة التركية على جميع شعوب الدَّولة العثمانيَّة. وما كان يحمله ذلك من إمكانية مسح الهويَّة الثقافيَّة والحضاريّة والتَّاريخيَّة واللُّغويَّة لتلك الشُّعوب. وكردٍّ فعل طبيعي ومشروع لحركة القوميَّة الطَّورانيَّة، ظهرت عدة قوميات معادية لها تطالب بالانفصال والاستقلال عن الدَّولة العثمانيَّة، كما حدث في البلقان واليونان وأرمينيا وبلاد العرب. وبدلاً من أن تسعى الحكومة العثمانيَّة إلى حلٍّ جذور المُشكلة حلاً عقلانياً مُنصفاً يُرضي جميع الأطراف، لجأت إلى قمع تلك الحركات بالحديد والنار، وأرسلت قادتها فوجاً بعد فوج إلى أعواد المشانق في الآستانة، مما أدَّى إلى كره الشُّعوب للأتراك العثمانيين كرهاً لا مثيل له، وفقدت ولاءها وانتماءها للدولة العثمانيَّة.

5-تفشي الفساد والرشوة والمحسوبية في أجهزة الدَّولة العثمانيَّة، وسيطرة يهود الدونمة والحركة الماسونيَّة ممثلة في أعضاء حزب الاتحاد والتَّرقِّي على المناصب السِّياسيَّة والعسكريَّة الحسَّاسة في الدَّولة.

وعندما وصل السُّلطان عبد الحميد الثَّاني إلى الحُكْم (1876 - 1909) كانت الأوضاع السِّياسيَّة والعسكريّة والاقتصاديَّة في الدَّولة العثمانيَّة قد ساءت إلى درجة خطيرة تهدد كيان الدَّولة ووجودها، فحاول السُّلطان عبد الحميد الثَّاني إجراء إصلاحات جذريَّة واسعة في النِّظام الأساسي للدولة وأجهزتها المختلفة، وأعلن عن صياغة الدستور العثماني لأول مرة عام 1876 الذي كفل لجميع المواطنين داخل الإمبراطوريَّة العثمانيَّة حُرِّيَّة الفكر والقول والعمل وأعطاهم حقوق مدنية واسعة، ولكن السُّلطان عبد الحميد الثَّاني عطل العمل بالدستور العثماني الوليد عام 1877 متذرعاً بإعلان روسيا القيصرية الحرب

على الدَّولـة العثمانيَّـة. ويبـدو أن جـهود السُّـلطان عبـد الحميـد الثَّـاني جـاءت متأخرة جداً، فقد كان حزب الاتحاد والترقي الماسوني ويهود الدونمة قد تغلغلوا في معظم أجهزة الدَّولة وتقلدوا المناصب الحساسة في الحكومة والجيش. وكان الموقف البطولي للسلطان عبد الحميد الثاني ورفضه المطلق لبيع أرض فلسطين للصَّهاينـة سبباً رئيسياً لإقصائه عن الحُكْم عام 1909، وفي عام 1914 دخلت الدَّولة العثمانيَّة الحرب العالميَّة الأولى إلى جانب دول المحور وهي في حالة اقتصاديَّة وعسكريَّة بائسة، ودون أن يكون لها أي هدف استراتيجي منها. وقد انتهت الحرب العالميَّة الأولى بهزيمة دول المحور، وفقدت تركيا جميع أراضيها في آسيا وأوروبا وأفريقيا الواقعة خارج حدودها، وخضعت فلسطين ومدينة القُدس للاحتلال البريطاني.

7-5: القُدس تحت الحُكْم البريطاني

في العاشر من حزيران/ يونيو عام 1916 قام الشَّريف حسين بن علي أمير مكة المكرمة بإعلان انطلاقة الثَّورة العربيَّة الكبرى ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة، بهدف انتزاع المشرق العربيّ من قبضتها وإقامة دولة عربيَّة كبرى يجلس هو على عرشها. وحدود هذه الدَّولة كما تصورها الشَّريف حسين في أولى رسائله للمعتمد البريطاني في مصر "هنري مكماهون" تمتد من خليج البصرة وجبال بختيار شرقاً إلى البحر الأبيض المُتوسِّط غرباً، ومن سفوح الأناضول شمالاً وحتى المحيط الهندي جنوباً. ويستفاد من المراسلات المتبادلة بين الشَّريف حسين وكل من هنري مكماهون واللورد كتشنر في مصر، أن الحكومة البريطانيَّة كانت تمالق الشَّريف حسين وتداهنه وتجاريه في مطامعه وأحلامه دون أن تلزم نفسها بوعد مكتوب قابل للتنفيذ، وكانت تشجعه على القيام بثورته ضد الدَّولة العثمانيَّة، وتأمل في دخول قواته "الجيش العربي" الحرب إلى جانبها لإضعاف الموقف العسكريّ العثماني القوي جداً على جبهة قناة السويس. ففي النصف الأول من الحرب العالميَّة الأولى، لم تكن موازين القوى تميل إطلاقاً لصالح الحلفاء على جميع الجبهات، فعلى جبهة قناة السويس تمكنت القوات العثمانيَّة - الألمانية المشتركة من اكتساح دفاعات الجيش البريطاني في صحراء سيناء واتخذت لها مواقع هجومية على مسافة كيلومترات قليلة شرقي قناة السويس، وفي الوقت الذي كانت القيادة العليا لقوات الحلفاء تفكر جدياً بالانسحاب والتخلي نهائياً عن جبهة قناة السويس، بدأت تلوح في الأفق المظلم بوادر الانفراج العسكريّ لقوات الحلفاء على الجبهة الشَّرقية، بدخول الجيش العربيّ المعركة إلى جانبها، وبذلك يكون الشَّريف حسين قد تحالف دون أن يدري مع صليبية القرن العشرين كما جاء على لسان رئيس الوزراء البريطاني "لويد جورج" غداة احتلال مدينة القُدس. وعلى إثر دخول الجيش العربيّ المعركة إلى جانب الحلفاء، تمكن اللورد اللنبي "ألقائد العام لقوات الحلفاء في الشَّرق الأوسط" من اجتياح صحراء سيناء مرة أُخرى وعسكر بقواته قرب الحدود الفلسطينيّة. كانت مدينة غزة كبرى مدن الجنوب الفلسطينيّ تشكل خط الدفاع الأول للقوات العثمانيَّة في بلاد الشَّام. وكانت القوات العثمانيَّة الألمانيَّة المُشتركة بقيادة القائد

الألماني الجنرال "فون كريس" تنتشر بكثافة على طول خط يبلغ طوله عدة كيلومترات، ويمتد من البحر الأبيض المُتوسِّط غرباً إلى جبل المنطار الواقع في الجنوب الشَّرقي لمدينة غزة، التي تقع في قلب هذا الخط الدفاعي. وبمساعدة الجيش العربيّ أيضاً تمكن اللورد اللنبي من تدمير الخط الدفاعي العثماني الأول، وكسب معركة غزة بتاريخ الثَّاني من تشرين الثَّاني/ نوفمبر عام 1917. ويعتبر المؤرخون والباحثون العسكريّون معركة غزة من كبريات معارك الحرب العالميَّة الأولى وأهمها، لأنها فتحت الطَّريق لاحتلال مدينة القُدس، بل بلاد الشَّام بأسرها. وبعد معركة غزة لم يضع اللورد اللنبي وقته في مطاردة فلول القوات العثمانيَّة الألمانية المنسحبة شمالاً بطريقة عشوائية، وإنما زحف مباشرة إلى مدينة يافا، وتمكَّن من احتلالها، ثم اتجه شرقاً نحو مدينة القُدس، وحاول احتلالها. كانت القيادة العثمانيَّة تعلم مدى الأهميَّة البالغة لمدينة القُدس، فأرسلت إليها الجيش العثماني السَّابع والثَّامن لحمايتها، والدفاع عنها. ويقول القائد العسكريّ البريطاني الجنرال "ويفل" إن القوات العثمانيَّة أبدت بطولة منقطعة النظير في معارك القُدس، واستماتت في الدفاع عن المدينة، ولما أدرك اللورد اللنبي استحالة احتلال مدينة القُدس بما يتوفر لديه من قوات وعتاد، أرسل إلى وزارة الحرب البريطانيَّة يطلب منها الإسراع بموافاته بقوات إضافية، فتدفق عشرات الآلاف من الجنود البريطانيين إلى فلسطين، ثم قامت قوات الحلفاء بمحاصرة مدينة القُدس بقوات كثيفة جداً، شكَّل الجيش العربيّ جناحها الأيمن. أدركت القيادة العثمانيَّة أن اقتحام مدينة القُدس عسكرياً سوف يؤدي بالضرورة إلى تدمير المقدسات الإسلاميَّة والمسيحيَّة فيها، فقررت انسحاب جيوشها من المدينة وإعادة تمركزها في شمال فلسطين. وفي الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر عام 1917 دخل اللورد اللنبي مدينة القُدس محاطاً بكبار قادته والممثلين السياسيين لدول الحلفاء، والكولونيل لورانس ممثلاً للجيش العربيّ بصفته ضابط الارتباط فيه، ثم دخلت إلى القُدس وحدات عسكريَّة رمزية تمثل جيوش الحلفاء من إنجلترا واسكوتلندا وإيرلندا وأستراليا ونيوزيلاندا إضافة إلى وحدة عسكريَّة هندية من الجنود المسلمين لحماية المقدسات الإسلاميَّة في المدينة. وفور دخوله المدينة قال اللورد اللنبي قولته

المشهورة: «الآن.. انتهت الحروب الصَّليبيّة». وبعد احتلال مدينة القدس، وقف رئيس الوزراء البريطاني "لويد جورج" في برلمان بلاده، يزفُّ إليه نبأ احتلال مدينة القُدس، كاشفاً عن وجهه الصَّليبيّ بقوله:

1-«سيبقى اسم الجنرال اللنبي مشهوراً إلى الأبد بوصفه القائد العبقري الذي حارب وانتصر. إنه أعظم قادة الصَّليبيّة الذي وضع نهاية مجيدة لمشروع استنفد الفروسيَّة الأوروبيَّة لعدة قرون».

2-«لقد نسينا الآن كيف حشدت قوى أوروبا العسكريَّة عبثاً في سبيل بلوغ هذا الهدف، وها هو ذا جيش إنجليزي بقيادة الجنرال اللنبي يتمكَّن في النهاية من بلوغه».

ولكن لويد جورج بهذا الخطاب أنكر تماماً أنه لولا جهود الجيش العربيّ لما عرف اسم اللنبي ولظلَّ قائداً مغموراً، ثم دُفن على ضفاف قناة السويس، قبل أن يجتازها إلى سيناء، ويحقق النصر في معارك غزة والقُدس. ومن الجدير بالذكر أن أجراس كنائس العاصمة الألمانيَّة برلين قد دقَّت ابتهاجاً بدخول قوات الحلفاء إلى مدينة القُدس، رغم حالة العداء المعلنة بين ألمانيا وبريطانيا والحرب الدائرة بينهما، كما وأن بابا الفاتيكان في روما دعا أتباعه في العالم إلى تقديم صلوات الشُّكر للرب، بمناسبة سقوط القُدس في قبضة الصَّليبيّة الجديدة.

وبينما كان اللورد اللنبي مشغولاً في معاركه ضدَّ القوات العثمانيَّة في شمال فلسطين ولم يتمكَّن من السَّيطرة على جميع الأراضي الفلسطينيّة إلا في شهر أيلول/ سبتمبر عام 1918، كان الجيش العربيّ بقيادة الأمير فيصل بن الشَّريف حسين بن علي يكمل سيطرته على أراضي شرق الأردن، ثم توجه إلى سورية، واحتل مدينة دمشق بمساعدة قوات القائد العربيّ سلطان باشا الأطرش، ثم أحكم سيطرته على جميع بلاد الشَّام. وإذا ما استعرضنا معارك الحرب العالميَّة الأولى على الجبهة الشَّرقية، والتي وقعت في الفترة الممتدة من منتصف عام 1916 وحتى نهاية الحرب التي انتهت لصالح الحلفاء في أواخر عام 1918 نجد أنها تنقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: وتمتدُّ من مُنتصف عام 1916 وحتى أواخر عام 1917، وأبرز معاركها: اكتساح صحراء سيناء ومعارك غزة ومعارك احتلال مدينة

القُدس. وقد كان الجيش العربيُّ هو السَّاعد الأيمن لقوات الحلفاء في تلك المعارك، والعامل الرئيسيُّ الذي رجح ميزان القوى لصالحها.

والمرحلة الثَّانية: التي تمتدُّ من أواخر عام 1917 وحتى نهاية الحرب في أواخر عام 1918، نجد أن الجيش العربيّ بمفرده وبصفة مستقلَّة عن قوات الحلفاء تمكَّن من تحرير الأرض العربيَّة من خليج العقبة جنوباً وحتى مدينة حلب شمالاً أي شرقي الأردن وسورية. والحقيقة أن اللورد اللنبي كان يشعر بقلق بالغ من ازدياد نفوذ وقُوَّة الجيش العربيّ وبخاصَّة بعد انضمام عشرات الآلاف من المقاتلين العرب إليه بصفته الجيش المُنقذ الذي حرَّر الأرض العربيَّة من الأتراك ويشكِّل نواة جيش الدَّولة العربيَّة الكبرى.

ولكن..

هل كانت بريطانيا وفيَّة لأصدقائها العرب، وكافأت الشَّريف حسين بن علي بما يستحق؟

وهل حققت له ما وعدته به بشأن إقامة الدَّولة العربيَّة الكبرى الموحَّدة؟

في الحقيقة، لم تكن بريطانيا وفية للشَّريف حسين، ولم تحقق له أحلامه في إقامة دولة عربيَّة كبرى يجلس هو على عرشها!! وإنما قامت والعالم العربيّ لا يزال تابعاً للدولة العثمانيَّة بتوجيه صفعة عنيفة لحلفائها العرب عندما قسمت بلادهم بينها وبين فرنسا بموجب اتفاقية سايكس - بيكو المبرمة عام 1916، ثم تبعتها بلكمة أشد وأعنف وأكثر إيلاماً ومهانة من سابقتها، بإصدارها في الثَّاني من تشرين الثَّاني عام 1917 لوعد بلفور الذي أخذت بريطانيا على عاتقها إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين العربيَّة. ولا يعرف على وجه الدقة متى بدأت بريطانيا في التفكير بإصدار وعدها للصَّهاينة، ولا متى كان الوعد جاهزاً للإصدار بصيغته المعروفة، ولكن الحقيقة التي يهملها المؤرخون العرب دائماً هي أن الوعد صدر بتاريخ الثَّاني من تشرين الثَّاني/ نوفمبر عام 1917 وهو نفس تاريخ احتلال الجنرال اللنبي لمدينة غزة الفلسطينيّة. لم يكن تاريخ إصدار وعد بلفور للصَّهاينة متزامناً بطريق الصُّدفة البحتة مع انتصار الحلفاء في أولى معاركهم في فلسطين، إذ إن بريطانيا أجلت إصدار وعد بلفور إلى حين حصول قواتها على موطئ قدم في فلسطين لشعورها أن معركة غزة حسمت الموقف

العسكريّ لصالحها، وأن احتلال فلسطين بأسرها أصبح مجرد مُشكلة وقت، وبالتالي تيقنت أن فلسطين غدت من أملاكها، ويحقُّ لها التَّصرف بأرضها كما تشاء. وفور صدور وعد بلفور سعت الصُّهيونيّة العالميَّة إلى الحصول على موافقة دولية عليه، وتكلَّلت جهودها بالنجاح بموافقة الحكومة الفرنسيَّة والإيطاليَّة على وعد بلفور ثم حكومات الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة وروسيا واليابان، وبذلك حصل الصَّهاينة على وثيقة البراءة التي سعوا إليها سنين طويلة.

في أعقاب انتهاء الحرب العالميَّة الأولى أواخر عام 1918، عقد مؤتمر فرساي بفرنسا في التَّاسع عشر من كانون الثَّاني/ يناير عام 1919 لرسم خارطة سياسيَّة وجغرافيَّة للعالم حسب إملاءات دول الحلفاء المنتصرة في الحرب وحضره من الجانب العربيّ الأمير فيصل بن الشَّريف حسين نيابة عن والده. وقد أصيب الجانب العربيّ في المؤتمر بخيبة أمل شديدة وإحباط بالغ من مقررات المؤتمر فيما يتعلق بالمنطقة العربيَّة لأنه فهم منها ما يلي:

1-تنكر الحلفاء لجميع الإنجازات العسكريّة التي حققها الجيش العربيّ في معاركه على الجبهة الشَّرقية، واعتبر الأراضي التي احتلها الجيش العربيّ بمثابة أرضي العدو المحتلة بدلاً من تسميتها بأراضي الأصدقاء المحررة. ومن الجدير بالذكر أن فرنسا الحليفة الأولى لبريطانيا في الحرب العالميَّة الأولى لم تكن تعترف بالجيش العربيّ كطرف مشارك في الحرب إلى جانب الحلفاء!!

2-تنكر بريطانيا لجميع وعودها للشَّريف حسين بشأن إقامة دولة عربيَّة مستقلة ذات سيادة كاملة على أراضيها.

3-اعتراف المؤتمر بحق الصَّهاينة في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين بموجب وعد بلفور.

وفي الخامس والعشرين من نيسان/ أبريل عام 1920 عقد في سويسرا مؤتمر سان ريمو الذي تنازلت فيه الدَّولة العثمانيَّة عن حقوقها السَّابقة في أقاليمها العربيَّة وقرر المؤتمر فرض الانتداب عليها. وفي عام 1922 وافقت عصبة الأمم على فرض الانتداب البريطاني على فلسطين، وبوشر العمل بقرار عصبة الأمم عام 1923.

بعد جلاء القوات العثمانيَّة عن فلسطين أواخر عام 1918 واحتلال القوات البريطانيَّة لها، وضعت فلسطين تحت إشراف الإدارة العسكريَّة التي أطلق عليها اسم: الإدارة الجنوبيَّة لأراضي العدو المحتلة ومقرها مدينة القُدس، وتتبع مباشرة للقائد العام لقوات الحلفاء في الشَّرق الأوسط في القاهرة باعتبار مصر الخديوية في ذلك الوقت كانت قاعدة لتنفيذ المخططات البريطانيَّة في آسيا وأفريقيا، ولكن سرعان ما ألغت بريطانيا إدارتها العسكريّة في فلسطين عام 1920 وحولتها إلى إدارة مدنية برئاسة اليهودي البريطاني هربرت صموئيل الذي عين أيضاً كأول مندوب سامي لبريطانيا في فلسطين بعد صدور قرار عصبة الأمم بانتدابها على فلسطين عام 1922. ومما لا شك فيه أن الظُّروف العالميَّة والإقليميَّة والمحليَّة كانت مواتية جداً لبريطانيا للمضي قدماً في تنفيذ وعد بلفور على أرض الوعد في فلسطين:

أولاً: عالمياً

عالميَّاً كانت بريطانيا خارجة للتوِّ مُنتصرة في الحرب العالميَّة الأولى، وتستعدُّ لرسم خارطة سياسيَّة وجغرافيَّة جديدة للمنطقة العربيَّة دون أن يجرؤ أي طرف من الأطراف على الاعتراض في غياب قُوَّة إسلاميَّة مؤثرة بعد هزيمة الدَّولة العثمانيَّة في الحرب العالميَّة الأولى، إضافة إلى أن بريطانيا بالاشتراك مع الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة قد هيأت الأجواء والعقول عالميَّاً لتقبُّل فكرة الوطن القوميِّ اليهوديِّ في فلسطين كحقيقة دينيَّة مُسلَّم بها عن طريق العشرات من الحركات الأصوليَّة الإنجيليَّة البروتستانتيَّة المتصهينة، وقد أدى ذلك إلى وقوف الرأي العام العالمي بقُوَّة إلى جانب الصَّهاينة ضد العرب.

ثانياً: إقليمياً

وإقليمياً كانت جميع الدول العربيَّة والإسلاميَّة ترزح تحت نير الاستعمار البريطانيِّ أو الفرنسيِّ أو الهولنديِّ، وليس بمقدور حكوماتها العميلة أن تعترض على بريطانيا أو تقف حائلاً دون تحقيق مخططاتها، ولم يكن باستطاعة هذه الحكومات تقديم أي نوع من العون والمساعدة للشعب الفلسطينيّ. بالإضافة إلى أن الرأي العام العربيّ والإسلاميّ كان ضعيفاً ومغلوباً على أمره، ولا يهتم بالقضايا القوميَّة قدر اهتمامه بالمشاكل الدَّاخليَّة.

ثالثاً: محلياً

أما محلياًّ فقد ترك الأتراك العثمانيُّون فلسطين، ورحلوا عنها وهي في حالة بائسة جداً ومحرومة تماماً من البنية التحتيَّة السِّياسيَّة والعسكريّة والاقتصاديَّة والإداريَّة الأساسيَّة، فلم يكن في فلسطين حكومة وطنية قادرة على إدارة شؤون البلاد، وليس لها جيش وطني يتكفَّل بالدفاع عنها ولا حتى قوات شرطة محليَّة عربيَّة تقوم بحفظ النِّظام والأمن وتمنع الاضطرابات والقلاقل بعد جلاء القوات العثمانيَّة عن فلسطين عام 1918. وفي المقابل وضعت بريطانيا فلسطين في ظروف إداريَّة وسياسيَّة واقتصاديَّة، تؤدي في النهاية إلى تهويد فلسطين وإقامة الوطن القوميِّ اليهوديِّ فيها ضاربة بعرض الحائط بالمصالح الوطنية المشروعة للشَّعب الفلسطينيّ على أرض آبائه وأجداده، ومُتجاهلة تماماً مبادئ حقوق الإنسان وحُرِّيَّة الشُّعوب في تقرير مصيرها التي نادى بها الرئيس الأمريكي "ويلسون" غداة انتهاء الحرب العالميَّة الأولى.

تهويد فلسطين

منذ اللحظة الأولى لاحتلالها لفلسطين، باشرت بريطانيا في اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتهويدها على مدى عدة سنوات ليصل اليهود إلى مرحلة يصبح بإمكانهم إدارة شؤون البلاد، وهنا تقوم القوات البريطانيَّة بالرحيل عن فلسطين، وتتركها للصهاينة. وفي سبيل تحقيق ذلك عمدت الحكومة البريطانيَّة إلى تعيين الصُّهيونيّ اليهودي البريطاني الجنسية "هربرت صموئيل" كأول رئيس للإدارة المدنية البريطانيَّة في فلسطين، وكأول مندوب سامٍ لها. وخلال خمس سنوات قضاها هربرت صموئيل في منصبه، قام هو ومساعدوه من عتاة الصُّهيونيّة بوضع النِّظام الأساسي لتهويد فلسطين، واتخذوا الإجراءات اللازمة لتطبيقه وإنجاحه. ومن أهم هذه الإجراءات ما يلي:

أولاً: فتحت بريطانيا أبواب فلسطين على مصاريعها لكي يتدفق إليها مئات الآلاف من اليهود الأجانب، وقامت بمنح الجنسيَّة الفلسطينيَّة لمن يرغب من يهود روسيا وألمانيا وبولندا والنمسا والمجر وليتوانيا ورومانيا وغيرها، في حين أنها حرمت الفلسطينيّين في المهجر من استرجاع جنسيتهم. وترسيخاً للأمر الواقع

عمدت السُّلطات البريطانيَّة إلى إضافة عبارة "أرض إسرائيل" باللُّغة العبريَّة على الطَّوابع البريديَّة الفلسطينيَّة وأوراق النقد والعملات المعدنيَّة إلى جانب اللُّغتين العربيَّة والإنجليزيَّة.

ثانياً: سمحت حكومة الانتداب البريطاني للمهاجرين اليهود بتملك مساحات شاسعة من الأراضي الزِّراعية الفلسطينيَّة، وحولت ملكية الأراضي المملوكة للدولة وتلك التي كان يملكها السُّلطان العثماني عبد الحميد الثَّاني في غور الأردن لليهود. وإمعاناً في سياسة إذلال الشَّعب الفلسطينيّ وإفقاره لجأت السُّلطات البريطانيَّة إلى انتزاع الأراضي الفلسطينيَّة من أصحابها، ثم قامت بنقل ملكيتها لليهود الأغراب، ومن هذه الأراضي على سبيل المثال: أراضي الغائبين عن البلاد، وتلك التي يعجز أصحابها عن تسديد القروض البنكية المتراكمة عليهم، والأراضي التي تقع في محيط المستعمرات اليهوديَّة، إضافة إلى تلك التي تنطلق منها عمليات حربيَّة جهاديَّة ضد الإنجليز واليهود. ومن الجدير بالذكر أن جميع الأراضي الزِّراعيَّة الفلسطينيَّة التي كانت مملوكة للإقطاعيين العرب كالسُّوريِّين واللُّبنانيِّين، نقلت ملكيتها لليهود عن طريق السَّماسرة والوسطاء المأجورين، وقد اضطر هؤلاء الملاك العرب إلى بيع أراضيهم والرحيل نهائياً عن فلسطين بسبب المتغيرات الخطيرة على ساحتها. وقد استغلت هذه الأراضي في إنشاء العديد من المستعمرات الزِّراعيَّة اليهوديَّة المُسلَّحة، وفي إقامة العشرات من المصانع المدنيَّة ومصانع الأسلحة والذخائر والمتفجرات والعتاد الحربي، وفي إنشاء مراكز التدريب العسكريّ للمهاجرين الجدد التي خرجت قوات الهاغاناه "الدفاع" وناطوريم "الشرطة" التي شكلت نواة الجيش الإسرائيلي الحالي.

ثالثاً: قامت حكومة الانتداب البريطانيٍّ بتوفير الحماية اللأَّزمة لقطعان المستوطنين اليهود، وساعدت في تدريبهم تدريباً عسكريَّاً عالي المستوى في معسكرات جيشها، وأمدتهم بالخبراء في حرب العصابات من أمثال الجنرال البريطاني "وينغيت" ليتمكَّنوا من مواجهة ثوار فلسطين. وقد ساعدت سُلطات الاحتلال البريطانيٍّ اليهود ماديَّاً وتكنولوجيَّاً في إنشاء قاعدة متقدمة للصِّناعات الحربيَّة.

رابعاً: سمحت سلطات الاحتلال البريطاني في فلسطين للوكالة اليهوديَّة أن تكون بمثابة حكومة داخل الحكومة تدير شؤون البلاد بالطَّريقة التي تخدم المصالح اليهوديَّة.

خامساً: سعت حكومة الانتداب البريطانيٍّ في فلسطين إلى تدعيم وتقوية الاقتصاد الصُّهيونيّ في مواجهة الاقتصاد الفلسطينيّ، فسمحت بدخول رؤوس الأموال الصُّهيونيّة إلى فلسطين لاستغلالها في تنفيذ المشروعات اليهوديَّة الضَّخمة، ومنحت اليهود قروض بنكية ميسرة السداد وأعفت الواردات الصُّهيونيّة كآلات المصانع وقطع الغيار والمواد الخام والأسمدة الكيماويَّة من الرسوم الجمركيَّة، وفرضت ضرائب رمزيَّة على المنتوجات الزِّراعيَّة والصِّناعة اليهوديَّة، حتى تُباع بأسعار رخيصة لا تستطيع المنتجات الفلسطينيّة منافستها. وقد أعطت بريطانيا امتياز المشاريع الصِّناعيَّة الضخمة في فلسطين للصَّهاينة مثل مشروع شركة توليد الكهرباء الفلسطينيّة ومشاريع استغلال مياه الأنهار والبحيرات في فلسطين.

سادساً: تغاضت سلطات الاحتلال البريطاني في فلسطين عن تجاوزات ومخالفات الصَّهاينة الجنائيَّة والقانونيَّة والإداريَّة والعسكريَّة، وكانت تفرض عليهم غرامات مالية تافهة ونادراً ما تقوم بتحصيلها.

سابعاً: قدمت الحكومة البريطانيَّة الدَّعم السِّياسي والمعنوي في جميع المحافل الدَّوليَّة.

أدرك الشَّعب الفلسطينيّ مبكراً أن خطط بريطانيا ترمي إلى إقامة الوطن القومي اليهودي على أنقاض الدَّولة الفلسطينيّة وشعبها، فهب عن بكرة أبيه لدفاع عن أرضه ووجوده ضد الاحتلال البريطاني والاستيطان الصُّهيونيّ بكافة الوسائل السِّياسيَّة والعسكريَّة المتاحة. فمن الناحية السِّياسيَّة عقدت القوى الوطنيَّة الفلسطينيَّة أول مؤتمر وطني فلسطيني عام 1919 أي مباشرة بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين، وقد ظلت المؤتمرات الوطنيَّة الفلسطينيَّة تعقد بصفة مُنتظمة حتى عام 1936 حينما قررت الأحزاب الفلسطينيَّة استبدالها باللجنة العربيَّة العليا لفلسطين التي قادت العمل السِّياسي الفلسطينيّ بصفة موحدة حتى عام 1948. وقد تمحور العمل السِّياسي الفلسطينيّ حول ثلاث قضايا رئيسية هي:

1-تشكيل حكومة نيابيَّة في فلسطين.

2-منع انتقال الأراضي الفلسطينيّة لليهود.

3-وقف الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين وقفاً تاماً.

أما من الناحية العسكريّة فقد اندلعت انتفاضات وثورات شعبية مُسلَّحة ضد الإنجليز واليهود معاً، كان من أهمها وأخطرها ما يلي:

1-انتفاضة موسم النبي موسى عام 1920.

2-ثورة مدينة يافا عام 1921.

3-ثورة البراق عام 1929.

4-انتفاضة عام 1933.

5-ثورة الشيخ عز الدين القسام عام 1936.

6-الثَّورة الفلسطينيّة الكبرى عام 1936.

7-عمليات قوات الجهاد المقدس الفلسطينيّة لتحرير فلسطين بعد صدور قرار الأمم المُتَّحدة بتقسيم فلسطين عام 1947.

ومن بين هذه الثورات تأتي الثَّورة الفلسطينيّة الكبرى عام 1936 في المقدمة، فقد استمرت ثلاث سنوات وكانت من القُوَّة والفاعليَّة، بحيثُ أنه كان بإمكانها تحرير فلسطين من الاحتلال البريطاني، وإجهاض المشروع الصُّهيونيّ برمته فيما لو أنها تلقت الدعم العسكريّ والمعنوي من الدول العربيَّة والإسلاميَّة، أسوة بالصَّهاينة، الذين كان يقف من خلفهم العالم الغربي بأسره، ويمدُّهم بالمال والسِّلاح والرجال، ويقدِّم لهم الدَّعم السِّياسي والمعنوي اللامحدود. ومن البديهي أن لا تعامل السُّلطات البريطانيَّة الشَّعب الفلسطينيّ مثلما عاملت الصَّهاينة، فمن البداية وضعت بريطانيا الخطط الكفيلة بكسر شوكة الشَّعب الفلسطينيّة والقضاء على روح المقاومة والجهاد فيه، وسعت بشتى الوسائل الممكنة لإضعاف الشَّعب الفلسطينيّ وإفقاره، وتصدت لجميع المحاولات الدوليَّة لإنصافه ووضع حل عادل لقضيته. ومن الإجراءات التي اتخذتها سلطات الاحتلال البريطاني لقمع الشَّعب الفلسطينيّ ما يلي:

أولاً: قامت القوات البريطانيَّة بالاشتراك مع العصابات الصُّهيونيّة المُسلَّحة بالقمع الوحشي لانتفاضات وثورات الشَّعب الفلسطينيّ، ونكلت تنكيلاً شديداً

بالمجاهدين والثُّوار الفلسطينيّين، وزجت بعشرات الآلاف في السُّجون والمعتقلات، وأصدرت أحكاماً بالإعدام والسجن مدى الحياة على أعداد كبيرة منهم، ونفت بعضهم إلى خارج فلسطين أو إلى الأماكن النائية من شرق الأردن. واتبعت بريطانيا سياسة نزع السِّلاح من أيدي الشَّعب الفلسطينيّ. وكانت محاكم الاحتلال البريطاني تصدر أحكاماً قاسية جداً قد تصل إلى الإعدام أو السجن المؤبد على كل فلسطيني يثبت أنه يمتلك سلاحاً أو ذخائر حتى ولو كانت فارغة، كما أن سلطات الاحتلال البريطاني لجأت إلى أسلوب فرض العقوبات الجماعية والغرامات المالية الفادحة على المدن والقرى الفلسطينيّة التي تندلع فيها اضطرابات ضد الإنجليز واليهود أو تنطلق منها عمليات عسكريَّة جهادية ضدهم.

ثانياً: عمدت السُّلطات البريطانيَّة إلى ضرب الاقتصاد الفلسطينيّ عن طريق منع تصدير المنتوجات الصِّناعيَّة والزِّراعيَّة الفلسطينيّة، وفرض رسوم جمركيَّة عالية على الواردات الفلسطينيّة وضرائب باهظة على البضائع الفلسطينيّة، حتى يرتفع ثمنها ولا تستطيع منافسة البضائع الإسرائيليَّة رخيصة الثمن نسبياً. وقد أدى ذلك إلى تكدس البضائع الفلسطينيّة في المخازن والمستودعات ثم تلفها وفسادها مع مرور الوقت. ومما لا شك فيه أن سياسة انتزاع الأراضي الفلسطينيّة من يد أصحابها خلقت طبقة واسعة من المزارعين الفلسطينيّين عاطلة عن العمل وليس لها أي مورد للرزق، مما ضاعف من معاناة الشَّعب الفلسطينيّ وزاد من مشاكله النَّفسيَّة والاجتماعيَّة.

ثالثاً: لجأت بريطانيا، خلال ثلاثين عاماً هي مدة حكمها لفلسطين، إلى التحايل على الشَّعب الفلسطينيّ وخداعه وتخدير مشاعره وامتصاص نقمته وغضبه، بالإعلان بين الحين والآخر عن تشكيل لجان التحقيق وتقصِّي الحقائق، ثم إرسالها إلى فلسطين، وقد جاءت النتائج النهائيَّة لهذه اللِّجان دائماً في مصلحة الشَّعب الفلسطينيّ. ولما أشبعت القضيَّة الفلسطينيّ لجاناً وتحقيقاً، أصدرت بريطانيا الكتب البيضاء تباعاً ثم دعت الدُّول العربيَّة لحضور المؤتمرات الدَّوليَّة الخاصَّة بالقضيَّة الفلسطينيَّة، ولم تنسَ بريطانيا أن تبذل الوعود السَّخيَّة للزعماء العرب وتمنيهم بمستقبل زاهر ينتظر الأمة العربيَّة. انخدع

الزعماء العرب بالوعود البريطانيَّة وصدَّقوها، فقاموا بالضغط على زعماء الحركة الوطنيَّة الفلسطينيّة لإيقاف ثوراتهم وعملياتهم الجهاديَّة ضد الإنجليز واليهود انطلاقاً من أن الحكومة البريطانيَّة ستنظر في الحقوق الوطنيَّة المشروعة للشَّعب الفلسطينيّ وتضع الحلول العادلة لقضيته.

رابعاً: تخلَّت بريطانيا عن جميع وعودها للعرب، وتنكَّرت للشَّعب الفلسطينيّ وتخلَّت عن قضيَّته التي كانت هي السَّبب الرئيسي فيها ولولاها ما عانى الشَّعب الفلسطينيّ وضاعت بلاده، إذ إن بريطانيا قامت بنقل القضيَّة الفلسطينيّة برمتها إلى الجمعية العامَّة للأمم المُتَّحدة. اجتمعت الجمعية العامَّة للأمم المُتَّحدة في دورة خاصَّة بتاريخ 29 من أيلول/ سبتمبر عام 1947 وقررت تقسيم فلسطين إلى دولتين: دولة عربيَّة وأُخرى يهوديَّة بأغلبية 33 دولة ومعارضة 13 دولة وامتناع عشر دول عن التصويت. وبالرغم من أن قرار الجمعية العامَّة للأمم المُتَّحدة هو مجرد توصية غير ملزمة، إلا أن الصَّهاينة هللوا له واستغلوه كوثيقة قانونية جديدة يبرزونها في المحافل الدوليَّة، في حين رفض العرب هذا القرار لأنه قائم على تقسيم فلسطين إلى دولتين ويكرس الاستيطان اليهودي على أرض فلسطين. وبعد صدور قرار التقسيم طالب الوفد الفلسطينيّ بنقل القضيَّة الفلسطينيّة إلى محكمة العدل الدوليَّة في لاهاي، ولكن قوبل هذا الطلب بالرَّفض التَّام. تعرض قرار تقسيم فلسطين لنقد دولي عنيف وهجوم شديد على المنظَّمة الدوليَّة، وقامت بعض الدول بسحب موافقتها السَّابقة على قرار التقسيم مثل كندا وبلجيكا ثم الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة. وبعد سحب الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لموافقتها على قرار التقسيم، تقدَّمت بمشروع قرار إلى مجلس الأمن الدولي، ينصُّ على أن تقسيم فلسطين، ليس هو الحلَّ المناسب للقضيَّة الفلسطينيّة، ولا يمكن تنفيذه بالطرق السلمية، وليس لدى مجلس الأمن الاستعداد لتنفيذه بالقُوَّة، فوافق مجلس الأمن الدولي على المشروع الأمريكي وأصدر القرارات التالية:

1-فرض الوصاية على فلسطين من قبل مجلس الأمن.

2-يطلب من مجلس الأمن الدولي عقد جلسة خاصَّة للجمعيَّة العامَّة للأمم المُتَّحدة للنَّظر ثانية في القضيَّة الفلسطينيّة.

3-إلى أن تعقد الجلسة الخاصَّة للجمعيَّة العامَّة للأمم المُتَّحدة، يجب أن تصدر تعليمات إلى لجنة تقسيم فلسطين بوقف جهودها لتنفيذ مشروع التقسيم.

4-دعوة العرب واليهود إلى هدنة بينهما.

5-ناشد مجلس الأمن الدولي الحكومة البريطانيَّة البقاء في فلسطين بصفتها الدَّولة المنتدبة إلى حين التوصُّل إلى حلٍّ نهائي للقضيَّة الفلسطينيّة.

قامت الجامعة العربيَّة والدول العربيَّة برفض قرار مجلس الأمن الدولي لأنه باعتقادهم يعطي لليهود فسحة من الوقت للاستعداد أكثر للحرب، ورفضه الصَّهاينة أيضاً لأنه تجاهل بل وألغى قرار الجمعية العامَّة للأمم المُتَّحدة بشأن تقسيم فلسطين الذي أصبح وثيقة قانونيَّة دوليَّة في جعبتهم. انتهز الصَّهاينة الظُّروف الدوليَّة الجديدة، وقاموا بارتكاب سلسلة من المجازر البربريَّة البشعة بحق الشَّعب الفلسطينيِّ، كان من أبرزها مذبحة دير ياسين المشهورة بهدف إرهاب الشَّعب الفلسطينيّ ودفعه إلى مغادرة أرضه والرحيل عنها.

خامساً: انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين

وبعد أن تأكدت بريطانيا من مقدرة الصَّهاينة على إدارة شؤون فلسطين سياسيَّاً واقتصاديَّاً وإداريَّاً وأمنيَّاً بصفة مستقلة عن حكومة الانتداب البريطاني، أعلنت بريطانيا عن انتهاء انتدابها على فلسطين في منتصف ليلة الخامس عشر من أيار/ مايو عام 1948، وغادر مندوبها السَّامي "ألن كاننغهام" ميناء حيفا الفلسطينيّ عائداً إلى بلاده بعد أن سلَّم فلسطين للصَّهاينة.

5-8: الإعلان عن قيام إسرائيل الثَّانية والحرب العربيَّة الإسرائيليَّة الأولى

مقدمة:

الحقيقة أن فكرة إقامة الدَّولة اليهوديَّة في فلسطين لم تكن وليدة الدبلوماسيَّة البريطانيَّة، وإنما كان القائد الفرنسي نابليون بونابرت، هو صاحب هذه الفكرة وأول من فكَّر فيها في العصر الحديث، قبل قرن كامل من ميلاد الحركة الصُّهيونيّة كحركة سياسيَّة عنصريَّة ترمي إلى استعمار فلسطين استعماراً استيطانياً إحلالياً وطرد سكانها العرب منها. وبعد انهيار الأحلام النابوليونية الاستعماريَّة في المشرق العربيّ بفشل الحملة العسكريّة الفرنسيَّة على مصر وفلسطين، ورثت بريطانيا فكرة نابليون بونابرت، وباشرت باتخاذ الإجراءات المناسبة لإنجاحها، ووضعها حيز التنفيذ. وأخطر سلاح استخدمه الصَّهاينة لتحقيق حلمهم باستعمار فلسطين هو موجات الهجرة اليهوديَّة المتتالية إلى فلسطين من شتى بقاع العالم، حتى يصبح لليهود قاعدة بشريَّة سُكَّانيَّة في فلسطين، ولولا هذه القاعدة السُّكَّانية لما أمكن عملياً التَّفكير في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين أو غيرها. ولقد احتل موضوع هجرة اليهود إلى فلسطين مكاناً بارزاً في فكر جمعية أحباء صهيون أولاً ثم المنظمة الصُّهيونيّة العالميَّة ثانياً بعد تأسيسها عام 1897، وقد بذل هؤلاء الكثير من الجهد وأنفقوا أموالاً طائلة لدفع يهود العالم للهجرة إلى فلسطين عن طريق الترغيب أحياناً، والمغالاة في أسطورة اللاسامية ومُحاربة التيارات التي تدعو إلى اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبيَّة أحياناً أُخرى، وبتهديد اليهود وإرهابهم في كثير من الأحيان. بدأت الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين بشكل عشوائي في العهد العثماني، وقد ساعد على تسرب اليهود إلى فلسطين التسيب الخطير الذي أصاب الإدارة العثمانيَّة في فلسطين، وتعيين ولاة أتراك عليها من أعضاء حزب الاتحاد والترقي الموالي للصُّهيونيَّة، وفي عام 1881 بلغ تعداد اليهود في فلسطين حوالي 25 ألف نسمة، ومنذ عام 1882 بدأت الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين تتخذ شكلاً

استعمارياًّ استيطانياًّ خطيراً، وتوالت موجات هجرة اليهود إلى فلسطين بشكل مُنتظم، حتى أصبح تعدادهم في فلسطين، عند انتهاء الانتداب البريطاني عام 1948، يبلغ حوالي 625 ألف نسمة، وهذا العدد يعادل ثلث عدد سكان فلسطين حينذاك. ومن الممكن تقسيم موجات الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين على النَّحو التَّالي:

1-الموجة الأولى (1882 - 1903):

هاجر إلى فلسطين خلال هذه الفترة 25 ألف يهودي من روسيا ورومانيا، إضافة إلى 500 يهودي يمني ساعدتهم بريطانيا في الوصول إلى فلسطين.

2-الموجة الثَّانية (1904 - 1918):

وصل إلى فلسطين في هذه الفترة 40 ألف من يهود روسيا ورومانيا أيضاً، معظمهم من الشَّباب المُفلس والمُغامر. وبين الأعوام 1911 و1912 ساعدت بريطانيا 1500 يهودي يمني في الوصول إلى فلسطين.

3-الموجة الثَّالثة (1919 - 1923):

وهي أول موجة هجرة يهوديَّة إلى فلسطين بعد الاحتلال البريطاني لها عام 1918، وقد وصل إلى فلسطين خلال هذه الفترة 35 ألف يهودي معظمهم من روسيا ورومانيا وبولونيا إضافة إلى أعداد صغيرة من ألمانيا وليتوانيا والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

4-الموجة الرَّابعة (1924 - 1932):

كانت هذه الموجة من موجات الهجرة اليهوديَّة الواسعة إلى فلسطين، إذ وصل إليها حوالي 89 ألف مهاجر يهودي أكثر من نصفهم كانوا من بولونيا.

5-الموجة الخامسة (1933 - 1939):

كانت هذه الموجة أضخم موجة هجرة يهوديَّة إلى فلسطين، فقد وصلها حوالي 215 ألف مستوطن يهودي جاء معظمهم من دول وسط أوروبا التي تأثرت

بوصول الحزب النازي للحكم في ألمانيا، وكان من بين هؤلاء حوالي 45 ألف مهاجر من ألمانيا.

6-الموجة السَّادسة (1939 - 1948):

تمت هذه الموجة أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية، وهي آخر موجة قبل الإعلان عن قيام دولة العصابات الصُّهيونيّة في فلسطين عام 1948 ووصل إلى فلسطين خلال هذه الفترة حوالي 120 ألف مهاجر.

والإحصائيات الرسمية السَّابقة، لا تشمل عدد اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين بطرق غير شرعيَّة، ويبلغ عددهم عشرات الآلاف. وهكذا حصل الصَّهاينة على القاعدة البشريَّة السُّكَّانية التي سعوا إليها في فلسطين، وكان الفضل لسلطات الانتداب البريطاني في إنجاح الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين بالرغم من معارضة الشَّعب الفلسطينيّ الشَّديدة لها. وقد جاءت هذه القاعدة السُّكَّانية من أقطار شتى، ومن قوميات وأعراق وأجناس متعددة، وينتمون لخلفيات ثقافيَّة وحضاريَّة متباينة، ويتكلَّمون بلُغات مختلفة. وبالرَّغم من أن اليهود في فلسطين لم يشكِّلوا سوى ثلث عدد سكان فلسطين عند انتهاء الانتداب البريطاني عام 1948، إلا أنهم بمساعدة بريطانيا كانوا في مركز سياسي وعسكري واقتصادي وإداري أقوى بكثير من الأغلبيَّة السَّاحقة للشَّعب الفلسطينيّ المالك الأصلي للأرض والتَّاريخ والحضارة.

أولاً: الإعلان عن قيام دولة إسرائيل الثَّانية

فور الإعلان عن انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، ومغادرة المندوب السامي البريطاني لميناء حيفا، عائداً إلى بلاده في منتصف ليل الخامس عشر من أيار/ مايو عام 1948، أعلن الصَّهاينة من جانبهم قيام دولتهم في القسم اليهودي الذي حدده قرار تقسيم فلسطين الصَّادر عن الجمعية العامَّة للأمم المُتَّحدة عام 1947، وفي الوقت نفسه لم يعلن العرب ولا جامعة الدُّول العربيَّة عن قيام الدَّولة الفلسطينيّة في القسم العربيّ الذي حدده قرار تقسيم فلسطين. ومن

الجدير بالذكر أن القوات البريطانيَّة سلمت قواعدها ومعسكراتها ومطاراتها العسكريّة للصهاينة. وتخلت لهم عن أسلحتها الثقيلة وكميات ضخمة من الذخائر والعتاد الحربي. وبهذه النهاية تكون بريطانيا قد تخلت عن الشَّعب الفلسطينيّ لصالح الصَّهاينة، وضربت عرض الحائط بحقه الطَّبيعي والمشروع في تقرير مصيره ونيل استقلاله.

ثانياً: الحرب العربيَّة - الإسرائيليَّة الأولى

في الخامس عشر من آذار/ مايو عام 1948، دخلت سبعة جيوش عربيَّة إلى فلسطين لتنفيذ ما هو أكثر قليلاً من قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الجمعية العامَّة للأمم المُتَّحدة عام 1947. ولقد أبلت القوات العربيَّة بلاءً حسناً في معارك المرحلة الأولى من الحرب العربيَّة - الإسرائيليَّة الأولى عام 1948، فقد توغل الجيش العراقي داخل فلسطين ليصل إلى مسافة تبعد 16 كيلومتراً فقط شمالي تل أبيب، ووصل الجيش المصري لمسافة تبعد 30 كيلومتراً جنوبي تل أبيب، واحتل الجيش السُّوري مستعمرة مشمار هايردن، الواقعة داخل نطاق الدَّولة اليهوديَّة، حسب قرار تقسيم فلسطين، وتمكَّن الجيش الأردني من السَّيطرة على الضِّفة الغربية لنهر الأردن، واستطاع الجيش اللُّبناني الحفاظ على موقع المالكيَّة الحدودي. ولكن الأسباب كثيرة جداً لا مجال لذكرها هنا، انتهت الحرب العربيَّة - الإسرائيليَّة الأولى كما هو معروف بهزيمة نكراء للجيوش العربيَّة، وبكارثة قومية كبرى. إذ تمكن الصَّهاينة من الاستيلاء على 77،4٪ من الأراضي الفلسطينيّة وهي نسبة أكبر بكثير مما حدده لهم قرار تقسيم فلسطين. وقد ترتب على ذلك مُشكلة إنسانيَّة مؤلمة، فالشَّعب الفلسطينيّ لم تُسلب أرضه فقط، وإنما شرد في أرضه أيضاً وفي الدول العربيَّة المجاورة ودول كثيرة في العالم، ومنذ ذلك الحين حمل هذا القسم من الشَّعب الفلسطينيّ اسم "اللاجئين الفلسطينيّين" وقد اختلف في عدد اللاجئين الفلسطينيّين. فالمصادر العربيَّة تذكر أن عددهم عام 1949 كان يتراوح بين 900 ألف ومليون لاجئ، بينما تذكر المصادر الإسرائيليَّة أن عددهم في نفس العام كان 520 ألف لاجئ. وجاء في المصادر البريطانيَّة أن عددهم كان 810 آلاف لاجئ، وتذكر إحصائيات وكالة

غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيّين في الشَّرق الأدنى (أونروا) أن عددهم كان 726 ألف لاجئ. ولكن الكيان الصُّهيونيّ استمرَّ في الحديث عن أقلِّ من 520 ألف لاجئ فلسطيني، حتى لا يضطر إلى إرجاع أكثر من هذا العدد في حالة صدور قرار دولي بإعادة اللاجئين الفلسطينيّين إلى ديارهم.

أوضاع مدينة القُدس بعد حرب عام 1948

بعد الحرب العربيَّة - الإسرائيليَّة عام 1948، أشرفت مصر على إدارة شؤون قطاع غزة، بينما أشرف الأردن على الضِّفة الغربية لنهر الأردن. وفي العشرين من نيسان/ أبريل عام 1950، وافق مجلس الأمة الأردني على ضم الضِّفة الغربية لنهر الأردن إلى الضِّفة الشَّرقية في دولة واحدة هي المملكة الأردنيَّة الهاشميَّة. ومنذ ذلك الحين أصبحت مدينة القُدس الشَّرقية فقط جزء من المملكة الأردنيَّة الهاشميَّة، حيثُ إن الصَّهاينة استولوا على مدينة القُدس الغربيَّة خلال حرب عام 1948. وقد بقيت القُدس الشَّرقيَّة في حوزة الأردن إلى حين استيلاء الصَّهاينة عليها عام 1967.

5-9: القُدس بأكملها تحت الاحتلال الإسرائيلي

في الخامس من حزيران/ يونيو عام 1967، اندلعت الحرب العربيَّة - الإسرائيليَّة الثَّالثة بسبب حشود عسكريَّة إسرائيليَّة على الحدود السَّوريَّة، وتهديد دولة العصابات الصُّهيونيّة بغزو سورية حسب ما جاء في الخطاب الرسمي العربيّ وقتئذ. ومنذ اللَّحظة الأولى لحرب عام 1967، استطاعت القوات الإسرائيليَّة تدمير القدرات الهجومية لكل من مصر وسورية والأردن وبخاصَّة قواتها الجوية. وخلال ستة أيام حاربت فيها القوات الإسرائيليَّة على ثلاث جبهات، تمكن الصَّهاينة من الاستيلاء على صحراء سيناء وقطاع غزة والضِّفة الغربيَّة لنهر الأردن، والمرتفعات السُّوريَّة (هضبة الجولان) وهي أراضٍ شاسعة تبلغ مساحتها أضعاف مساحة فلسطين المحتلة، وبذلك سقطت القُدس بأكملها في قبضة الصَّهاينة. وفور احتلال الصَّهاينة للقدس الشَّرقيَّة، أعلنوا أن مدينة القُدس هي العاصمة الموحدة الأبديَّة لكيانهم الغاصب في فلسطين، وطلبوا من دول العالم الاعتراف بالواقع الجديد للمدينة المُقدَّسة ونقل سفاراتهم إليها، ثم باشر الصَّهاينة باتخاذ الإجراءات الإداريَّة والديموغرافيَّة المناسبة والكفيلة بتهويد مدينة القُدس وصبغها بصبغة إسرائيليَّة خالصة. وقد نجم عن العدوان الإسرائيلي عام 1967 موجة هجرة جماعيَّة ضخمة للشَّعب الفلسطينيّ تقدر بعشرات الآلاف، وقد عرف هذا القسم من الفلسطينيّين باسم: النَّازحين الفلسطينيِّين.

5-10: خاتمة

مما لا شكَّ فيه أن واقع مدينة القُدس، وواقع فلسطين بأسرها، والشَّعب الفلسطينيّ كله، والمتمثل في الاحتلال الصُّهيونيّ الهمجي، وما يصاحبه من عمليات إبادة جماعيَّة يوميَّة للشَّعب العربيّ الفلسطينيّ، هو واقع مرير وجرح نازف على المدى في جسد الأمة العربيَّة والإسلاميَّة، وبخاصَّة في الوقت الحاضر الذي يقف فيه الشَّعب الفلسطينيّ وحيداً في مواجهة قمع وبطش وإرهاب الآلة العسكريّة الإسرائيليَّة المتوحشة. والواقع في اللُّغة يعني وضع أو حالة الشيء القائمة الآن أو - حاضر الحال - ومن الناحية السِّياسيَّة فإن الواقع يعني أمراً محدود المدى تحقق بسبب ظروف معيَّنة، ولا يتوقع له الاستمراريَّة والاستقرار، وهو زائل لا محالة، بزوال الأسباب، التي أدت إلى قيامه، وبالتَّالي فإن مصير الشَّيء ومستقبله، لا يرتبط بواقعه الرَّاهن. وقد عانت مدينة القُدس على مدى تاريخها الطَّويل من واقع مؤلم ومرير، يشبه إلى حدٍّ كبير واقعها الحالي، وربما أسوأ بمراحل في كثير من الأحيان، وذلك بسبب احتلالها العسكريّ لعشرات المرات من قبل القوى الاستعماريَّة المختلفة في الشَّرق والغرب. وفي كل مرة لم يكن مصير مدينة القُدس ومستقبلها يتوقفا على واقعها المؤلم والمرير، فمهما طال عمر استعمارها الأجنبي كان ينبلج فجر التحرير من بين ظلمات اليأس وغيوم الأمر الواقع، وتعود القُدس، كما كانت دائماً، عربيَّة القلب واللسان والوجه والملامح. فالوجود السِّياسيُّ اليهوديُّ الأول في فلسطين زال زوالاً تاماً بعد بضع سنوات مرت على وفاة سليمان عليه السَّلام، مثلما زال الوجود الهكسوسيُّ والفرعونيُّ والآراميُّ والآشوريُّ والبابليُّ ثم الفارسيُّ واليونانيُّ والرُّومانيُّ والصَّليبيُّ والتُّركيُّ في عصور مختلفة. واليهود المعاصرون ليسوا استثناء، بأي حال من الأحوال، لهذه القاعدة التَّاريخيَّة الهامة، وسوف يزول كيانهم الحالي في فلسطين إنشاء الله بزوال الأسباب المحليَّة والإقليميَّة والدَّوليَّة التي أدَّت إلى قيامه. فالكيان الصُّهيونيّ في فلسطين العربيَّة كيان غاصب وغير شرعيٍّ أقيم أساساً على مزاعم دينيَّة زائفة وباطلة، ولا يحق للصَّهاينة المُطالبة بحقوق من أي نوع في القُدس وفلسطين بأسرها لثلاثة اعتبارات هامة:

1-اعتبارات تاريخيَّة.

2-اعتبارات دينيَّة.

3-اعتبارات قانونيَّة.

أولاً: الاعتبارات التَّاريخيَّة

1-من المعروف جيداً أن العرب الكنعانيِّين هم أول سكان عرفهم التَّاريخ لفلسطين، وهم أصحاب حضارتها الرائدة وتاريخها الطَّويل الممتدِّ في عمق الزمن لعشرة آلاف سنة خلت، كما تشير معظم الدِّراسات التَّاريخيَّة والأركيولوجيَّة والدِّيموغرافيَّة. والعرب الكنعانيُّون هم أيضاً الذين شيَّدوا مدينة القُدس، قبل حوالي خمسة آلاف سنة، ولم تستطع دائرة الآثار الإسرائيليَّة إخفاء هذه الحقيقة، فاعترفت عام 1998 بأن العرب الكنعانيِّين هم بُناة مدينة القُدس، وهم الذي أحاطوها بالأسوار المنيعة الهائلة قبل خمسة آلاف سنة. ولقد دامت الغلبة والسِّيادة للعرب الكنعانيين على فلسطين لأكثر من ألفي سنة متواصلة من التَّاريخ المكتوب، وبعد الفتح العربيّ الإسلاميّ لفلسطين في القرن الميلادي السَّابع دامت السِّيادة للعرب والمسلمين على مدينة القُدس لحوالي 1400 سنة، لم تقطع إلا لفترة قصيرة زمن الحروب الصَّليبيّة.

2-ليس بإمكان الصَّهاينة الاعتماد على دعوى الحقوق التَّاريخيَّة في فلسطين، لأن اليهود القدماء ليسوا أول من سكنها وإنما جاؤوا من خارجها بعد آلاف السنين من الوجود العربيّ الكنعاني، ولم يكن لهم جذور أو تاريخ فيها، وقد قضى اليهود الأوائل وقتاً طويلاً في التسلُّل التدريجيٍّ إلى فلسطين، والإقامة في منطقة التلال الدَّاخليَّة المهجورة غربي نهر الأردن، ثم استطاعوا بعد بضعة قرون من خروجهم من مصر تأسيس مملكة صغيرة على أجزاء صغيرة من فلسطين، ولم تكن يوماً على كامل التراب الفلسطينيّ. وبالرَّغم من محاولات العهد القديم لتضخيم الدَّولة اليهوديَّة الأولى في فلسطين بشكل خياليٍّ مملٍّ، إلا أنها كانت دويلة محدودة القُوَّة والنُّفوذ ولم تكن دولة يهوديَّة خالصة بالمعنى التقليديٍّ، وإنَّما دولة متعدِّدة القوميَّات والأعراق والأديان، غلب عليها العنصر العربيُّ الكنعانيُّ، الذي استعان به داود عليه السَّلام في تدبير شؤون مملكته، لأن اليهود حتى ذلك التَّاريخ كانوا ما يزالون مجموعات من أشباه البشر، يسترون أجسادهم بجلود الحيوانات، ويسيرون حفاة عراة في أغلب الأحيان، ويعانون بشكل خطير من

العقم الثقافيِّ والحضاريِّ والاجتماعيِّ، وليس بينهم من هو مؤهل لإدارة شؤون دولة من أي نوع. وقد زالت الدَّولة اليهوديَّة الأولى في فلسطين بانتهاء عصر النُّبوَّة واجتياح الفرعون المصريِّ "شيشنق الأول" لجميع الأراضي الفلسطينيّة في السَّنة الخامسة لحكم رحبعام بن سليمان كما يذكر العهد القديم - أي بعد خمس سنوات مرَّت على وفاة نبي الله سليمان عليه السَّلام، وبذلك أزال شيشنق الأول إزالة تامَّة أي شكل من أشكال التواجد السِّياسيِّ اليهوديِّ في فلسطين، وبعثر كيانهم الاجتماعي الهزيل فيها. ومما يثير العجب والحيرة معاً، أن الدَّولة اليهوديَّة المضخَّمة في فلسطين بقصورها وهياكلها وجيوشها وأساطيلها ونفوذها الإقليميّ والعالميّ، كما يزعم العهد القديم، لم تخلق أي أثر تاريخيٍّ أو حضاريٍّ أو أركيويوجيٍّ على أرض فلسطين، ولا حتى إشارة أو لمحة عابرة في ذاكرة الشُّعوب القديمة ووثائقها ومدوَّناتها، كالمصريِّين القدماء والآشوريِّين والبابليِّين والآراميِّين والحثيِّين.

3-بعد الاحتلال الفرعونيِّ والآراميِّ لفلسطين، ثم الآشوريِّ والبابليِّ، خلَتْ فلسطين تقريباً من اليهود، فقد سبى هؤلاء الغزاة عشرات الآلاف من يهود فلسطين وساقوهم أسرى وعبيد إلى مصر وآشور وبابل، أما بقاياهم فقد غادروا فلسطين ورحلوا عنها إلى الدول المجاورة. وإذا ما تمكَّن يهود السَّبي البابليِّ من العودة إلى فلسطين تحت حماية سيوف ورماح الجيش الفارسيِّ بقيادة قورش الثَّاني، بعد احتلاله لفلسطين عام 538 قبل الميلاد، فمن المؤكد تاريخيَّاً أنهم عادوا إليها كأفراد وجالية سُكَّانيَّة فقط، ولم يعودوا كدولة. ومن النَّاحية الأُخرى، فإن فلسطين لم تخلُ من سُكَّانها العرب في يوم من الأيام، حتى ولو للحظة واحدة منذ أقدم عصور ما قبل التَّاريخ وحتى يومنا هذا، بالرَّغم من مُحاولات الغُزاة الأجانب إبادة الشَّعب الفلسطينيّ واستعمار أرضه استعماراً استيطانيَّاً إحلاليَّاً على مدى التَّاريخ.

4-لم ينفرد اليهود القدماء عن غيرهم من الشُّعوب القديمة بوجود صلات لهم في فلسطين، فالوجود اليهوديُّ الأول قصير العمر في فلسطين، لا يعطي للصَّهاينة حقوقاً تاريخيَّة فيها، ولا وضعاً استثنائياً عن غيرهم من الشُّعوب القديمة، فالعديد من الشُّعوب لها صلات تاريخيَّة مُكتسبة في فلسطين بسبب ظروف غزوها واحتلالها العسكريّ في الأزمنة الغابرة. وإذا كان الأمر بهذه

البساطة، فإن من حقِّ الفرس والإغريق والرُّومان والأتراك، على سبيل المثال، المطالبة بحقوق تاريخيَّة في فلسطين، بسبب احتلالهم لها في قديم الزمن، علماً بأن صلات هؤلاء الغزاة الأجانب بأرض فلسطين تفوق عمراً ومتانة وأهميَّة صلات اليهود العابرة القديمة بفلسطين.

5-تشير معظم الدِّراسات التَّاريخيَّة، إلى أن اليهود القدماء قد غادروا فلسطين، ورحلوا عنها بمحض إرادتهم قبل سنوات طويلة من الاحتلال الرُّومانيّ لها، وقبل أن يقوم الرُّومان بطرد القلة القليلة الباقية منهم نهائياً من فلسطين، وبذلك انقطعت صلة اليهود بفلسطين منذ أكثر من 2500 سنة.

ثانياً: الاعتبارات الدِّينيَّة

1-ليس لليهود حقوق دينيَّة من أي نوع في مدينة القُدس، ولا في فلسطين بأسرها. فمن المعروف أن الشَّرائع السَّماويَّة، التي قامت عليها الدِّيانة اليهوديَّة، أنزلت على موسى عليه السَّلام فوق جبل الطُّور بصحراء سيناء، كما تُقرُّ بذلك صراحةً جميع الدِّيانات السَّماويَّة، وهذا المكان في الواقع هو مصدر الوحي الروحيِّ والدينيِّ لليهود. ومن الغريب أن الصَّهاينة ينكرون قدسيَّة جبل الطُّور، الذي أُنزلت عليه جميع أسفار التَّوراة. فعندما وجه الرئيس المصري الراحل أنور السَّادات الدَّعوة لرئيس وزراء الكيان الصُّهيونيّ الإرهابي "مناحيم بيغن"، من أجل توقيع اتفاقيات التَّسوية بين البلدين فوق جبل الطُّور بصحراء سيناء، أدلى مناحيم بيغن بتصريح في الثَّاني عشر من آذار/ مارس عام 1978 قال فيه: «إنني لستُ على استعداد لأن أمتطي ظهر بغلة لكي أتسلق بها جبل الطُّور، الذي لا أتيقن من حقيقته التَّاريخيَّة». وبذلك لم يُنكر رئيس وزراء الكيان الصُّهيونيّ قُدسيَّة جبل الطُّور فقط، وإنما كشف بغباء شديد عن جهله المخجل بنصوص العهد القديم، الذي كثيراً ما صرَّح متفاخراً بأنه كان يقرأه مرة واحدة كل أسبوع!!! وإذا كان جبل الطَّور في صحراء سيناء هو مصدر الوحي الدِّيني لليهود، كما تعترف التَّوراة والكتب السَّماويَّة الأُخرى، فإن ذلك لا يعطيهم حقوقاً دينيَّة في أرض سيناء، ولا يحقُّ لهم المطالبة بها أو الوصاية عليها أو القيام باحتلالها عسكرياً. والأمر نفسه ينطبق على مدينة القُدس، فإن هذا لا يعطيهم حق المطالبة بها أو اغتصابها من أصحابها، تماماً مثلما لا يحقُّ للمسلمين في أندونيسيا والباكستان وإيران وتركيا المطالبة بحقوق في مكة المكرمة، ثم يقومون

بغزوها واحتلالها، لأنها مهد رسالة رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وفيها يوجد بيت الله الحرام قبلة المسلمين ومحطُّ أنظارهم، ولا يحقُّ للمسيحيِّين أيضاً، في مُختلف أرجاء الأرض، الادعاء بأنَّ لهم حقوقاً في مدينة القُدس، لأنها مهد رسالة السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام، ويوجد فيها قبره، ويقومون بتحريك جيوشهم وأساطيلهم لغزو فلسطين واحتلال مدينة القُدس كما فعل الصَّليبيّون في القرون الوسطى.

2-منذ بداية تدوين التَّوراة وتأسيس الدِّيانة اليهوديَّة في القرن الخامس قبل الميلاد أثناء فترة السَّبي البابليِّ، ثم اكتمال هذه الدِّيانة لتصل في القرن الثَّاني قبل الميلاد إلى الصُّورة المعروفة عليها الآن، واليهود يحاولون في أسفارهم ترسيخ فكرة أن مدينة القُدس هي مصدر وحيهم الدِّينيِّ والرُّوحيِّ والقوميِّ في أذهان الملايين من البشر. فمدينة القُدس في العقائد اليهوديَّة هي مقرُّ إقامة ربِّهم الخاص "يهوه"، ومنها يُبعث مسيحهم المنتظر الذي سوف ينتقم لهم من أعدائهم وينكِّل بهم تنكيلاً شديداً، ثم يضع جميع شعوب الأرض تحت أقدامهم، وهي التي شهدت أمجادهم أيام داود وسليمان عليهما السَّلام، وفيها أقيم هيكلهم المزعوم الذي أحاطوه بهالات زائفة من العظمة والقداسة، وأطلقوا عليه اسم "هيكل سليمان". والهدف الرئيسيُّ من رواية العهد القديم عن هيكل سليمان، هو ربط يهود العالم برباط دينيٍّ مقدس بأرض فلسطين والقُدس، وتحويل أنظارهم ومحور اهتمامهم وبؤرة تقديسهم من طور سيناء إلى مدينة القُدس بفلسطين لأسباب سياسيَّة واستعماريَّة بحتة. وفكرة الهيكل اليهوديِّ فكرة وثنيَّة اقتبسها اليهود من ديانات مصر الفرعونيَّة وآشور وبابل، وتتلخَّص في بناء بيت فخم لإقامة الرَّب عند نزوله إلى الأرض قادماً من السموات العلى. ولا يشعر اليهود بأدنى قدر من الحرج وهم ينسبون هذه الفكرة الوثنيَّة لنبيِّ الله داود عليه السَّلام، فهو صاحبها من وجهة نظرهم، وهو الذي أعدَّ إعداداً كاملاً لبناء الهيكل في حياته، إلا أنه بوشر ببنائه في السَّنة الرَّابعة لحكم سليمان عليه السَّلام، بمساعدة "حيرام" ملك مملكة صور الفينيقيَّة، بموجب اتفاقيَّة التَّبادل التِّجاريِّ والتِّقنيِّ بينه وبين سليمان عليه السَّلام، كما يزعم العهد القديم. وقد حشد سليمان جيشاً من العمال قوامه 183 ألف و880 عاملاً لبناء الهيكل موزَّعين كالتالي:

-80 ألف حجار لقطع الصخور من محاجر سليمان في النَّاحية الشَّرقيَّة من جبل الزَّيتون بالقُدس.

-70 ألف حمال لحمل الأحجار والأحمال إلى موقع الهيكل.

-30 ألف عامل أرسلوا إلى لبنان لقطع أخشاب الأرز وإرسالها إلى فلسطين.

-3300 رئيس عمال لملاحظة أعمال البناء.

-550 عاملاً من العمال المَهَرَة المُتخصِّصين في بناء القلاع والحصون، أُحضِروا خصِّيصاً من صور وجبيل لبناء الهيكل.

وتذكر الفقرة الثَّامنة والثَّلاثون، من الإصحاح السَّادس لسفر الملوك الأول، أن بناء الهيكل استغرق سبع سنوات، أي بعد حوالي 490 سنة من خروج بني إسرائيل من مصر ونزول التَّوراة على موسى عليه السَّلام فوق جبل الطُّور بصحراء سيناء!! ولا تبدو رواية العهد القديم عن هيكل سليمان أنها رواية واقعيَّة، وإنَّما هي ابتكار من خيال وأوهام كَتَبَة العهد القديم، للأسباب التالية:

أ-لم يكن داود أو سليمان عليهما السَّلام بحاجة إلى بناء معبد في مدينة القُدس وهي التي كانت في ذلك الوقت تعجُّ بالمعابد الكنعانيَّة الفخمة، وخصوصاً وأنَّ العهد القديم يذكر أن داود عليه السَّلام قد احتلَّ مدينة القُدس احتلالاً عسكرياً، واستولى على قصورها وهياكلها. ومن الأرجح أن داود وسليمان عليهما السَّلام اتخذا من الهيكل الكنعانيِّ الفخم، الذي أقامه الملك العربيّ "ملكي صادق" في مدينة القُدس، مكاناً لتأدية صلواتهم وإقامة شعائرهم الدِّينيَّة. ويُشير عالم الآثار الأمريكيُّ المعروف ويليام فوكسويل أولبرايت أن المغنِّين في معبد القُدس، زمن داود وسليمان عليهما السَّلام، كانوا كنعانيي الأصل أو تعلموا على يد منشدين كنعانيين. وقد اعتمد داود وسليمان عليهما السَّلام النموذج العربيّ الكنعاني في موسيقى المعبد والإنشاد الديني. ويذكر أولبرايت أيضاً أن الموسيقيين المتأخرين في هيكل أورشاليم كانوا يتفاخرون بنسبهم إلى عائلات تحمل أسماء عربيَّة كنعانيَّة.

ب-يقول الباحث فراس السَّوَّاح في "آرام دمشق وإسرائيل" أنه ليس لدى علماء الآثار أي دليل كتابي أو أركيولوجي يؤكِّد صحَّة وجود ملك على مدينة

صور الفنيقيَّة اسمه "حيرام"، خلال القرن العاشر قبل الميلاد، وهي الفترة المُفترضة لإقامة الهيكل اليهوديِّ المزعوم في مدينة القُدس.

ج-كان اليهود، في القرن العاشر قبل الميلاد، في حالة بائسة من التَّخلُّف الحضاريِّ والتِّقنيِّ، ولم يكن في مقدورهم عمليَّاً القيام بإنجاز مشروعات حضاريَّة ضخمة كالهياكل والحصون والقلاع.

د-إن الوصف التوراتيَّ لهيكل سليمانن من النَّاحية الهندسيَّة، يكاد يكون متطابقاً مع هندسة المعابد الكنعانيَّة المُكتشفة في بيت شان "بيسان" وتل الناشبة بفلسطين، ومع معبد أوغاريت الكنعاني في سورية. ومن المؤكد أنَّ هذه الهياكل قد أُقيمت قبل مئات السِّنين من الوجود اليهوديِّ بفلسطين. والأنكى من ذلك أن بعثة الآثار الأمريكيَّة، التي كشفت عن قصر الفرعون أمنحوتيب الثَّالث (1427 1392 قبل الميلاد) الواقع غربي مدينة الأقصر بجنوب مصر، أعلنت أنَّه يتكوَّن من المنشآت نفسها، التي وصفها العهد القديم لقصور سليمان في مدينة القُدس، وكل ما فعله الكاتب التَّوراتي أنه قام باقتباس قصة أمنحوتيب الثَّالث المعروف بثرائه ونفوذه وسطوته، وتعدد زوجاته وجواريه ثم نسبها لسليمان عليه السَّلام. وقصور هذا الفرعون شيدت طبعاً قبل سنين طويلة من وجود اليهود في فلسطين.

هـ-إن منشآت ضخمة وفخمة جداً من الطراز الذي يصفه العهد القديم لمعبد سليمان وقصوره في القُدس، كان لا بد وأن يخلف آثاراً أركيولوجيَّة ملموسة فوق سطح الأرض أو في باطنها، أسوة بالمئات من الآثار القديمة المنتشرة في مصر والعراق وغيرها. كما أنهم ما كان من المُمكن أن يمروا في التَّاريخ دون أن يسجلوا تسجيلاً دقيقاً في ذاكرة الأمم القديمة المجاورة لفلسطين كمصر الفرعونيَّة وآشور وبابل، إذ تخلو مدوَّنات هذه الشُّعوب من أي ذكر لهذه المنشآت التَّوراتيَّة. وبالرَّغم من جهود علماء الآثار اليهود والأجانب معاً، خلال أكثر من قرن ونصف القرن من أعمال الحفر والتنقيب في مدينة القُدس، إلا أنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في العثور على آثار لهيكل سليمان المزعوم وقصوره في الموقع الذي حدده العهد القديم لهما في مدينة القُدس.

و-وأخيراً، فإن عالمي الآثار اليهوديين إسرائيل فلنكشتاين ودافيد أوشيسكين، شكَّكا بأن سليمان عليه السَّلام قد قام ببناء الهيكل المزعوم في مدينة القُدس.

3-وفي محاولة لاختلاق آثار يهوديَّة قديمة في مدينة القُدس، يزعم اليهود أن ما يسمى بحائط المبكى في المدينة هو بقايا أسوار الهيكل اليهودي الثَّاني الذي أقامه عام 18 قبل الميلاد الملك اليهودي عربي الأصل هيرودوس الأدومي، وليس بقايا أسوار هيكل سليمان كما يروِّج البعض. ومن الثابت تاريخيّاً أن هيرودوس الأدومي أقام هيكله من أجل استرضاء ليهود بعد تنكيله الشَّديد بالمكابيين، انتقاماً منهم لقتلهم لوالده "أنتيباتر الأدومي". ويتوافد اليهود فُرادى وزرافات إلى حائط المبكى، ويقومون بتأدية طقوسهم الدِّينيَّة أمامه، ثم يبكون مجدهم الزائل أيام داود وسليمان عليهما السَّلام. ويعتقد المسلمون أن حائط المبكى، هو ذاته حائط البُراق، الذي ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم البُراق داخل تجويف فيه ليلة الإسراء والمعراج. ورداً على قيام اليهود بمحاولة قلب الأوضاع المُقدَّسة لحائط البُراق، اندلعت عام 1929 ثورة البُراق في القُدس لإعادة أحوال الحائط إلى حالته الأولى، وإزاء الوضع المتفجر جداً في المدينة المُقدَّسة، سارعتْ سلطات الاحتلال البريطاني بإزالة كل ما وضعه اليهود أمام حائط البُراق وهدأتْ نفوس الشَّعب الفلسطينيّ الثَّائرة، ثم أعلنتْ عن تشكيل عدة لجان للتحقيق في أسباب الاضطرابات في مدينة القُدس. وبناءً على توصيات لجنة والترشو البريطانيَّة للتحقيق شُكِّلتْ لجنة دوليَّة لتحديد ملكيَّة حائط البُراق أو حائط المبكى. وبعد دراسات مُستفيضة والاستماع إلى أقوال الشُّهود والاطلاع على الوثائق التَّاريخيَّة المتعلقة بحائط البُراق، أعلنتْ اللجنة الدَّوليَّة أنَّ ملكيَّة حائط البُراق تعود للمسلمين، وأنَّ زيارة اليهود للحائط يجب أنْ تتمَّ بالصُّورة التي كانت عليها في العهد العثماني - أي قبل الاحتلال البريطاني لفلسطين. وقد أصدر البلاط الملكي البريطاني عام 1933 مرسوم الحائط الغربي الذي جاء في ذيله الأول أن ملكية حائط البُراق تعود للمسلمين وحدهم وأنَّ الحائط يشكِّل جزءاً لا يتجزأ من أسوار الحرم القُدسي الشَّريف. واعترف البلاط الملكيُّ البريطانيُّ أيضاً بملكيَّة المسلمين للرَّصيف المقابل لحائط البُراق، وبذلك سقطتْ المزاعم الصُّهيونيّة بملكيَّة حائط البُراق وفقدوا آخر أمل لهم في اختلاق آثار يهوديَّة في القُدس.

4-إذا كان اليهود يزعمون أن لهم حقوقاً دينيَّة لا يُمكن إثباتها بأي وسيلة من الوسائل، فإن للمليارات من المسلمين والمسيحيين حقوقاً دينيَّة مؤكدة في

مدينة القُدس ويحقُّ لهم المطالبة بها، فالقُدس ليست حكراً على حفنة من اليهود، وليس لهم حقوق دينيَّة فيها بعكس الدِّيانات الأُخرى التي تشمخ آثارها ومنشآتها تحت أضواء التَّاريخ السَّاطعة. ومنذ الفتح العربيِّ الإسلاميِّ لمدينة القُدس، قامت الدَّولة الإسلاميَّة بحماية جميع الأماكن المُقدَّسة في القُدس، سواء كانت مقدَّسات إسلاميَّة أو مسيحيَّة أو تلك التي يزعمون أنها مقدسات يهوديَّة. والحقيقة أن الأماكن المُقدَّسة الإسلاميَّة واليهوديَّة في القُدس لم تُمتَهن وتُنتَهك حرمتها، إلا زمن الاحتلال الصَّليبيّ للمدينة؛ حيثُ حول المسجد الأقصى المبارك إلى إسطبل لخيول الصَّليبيّين، وأحرق المعبد اليهودي في القُدس، وبداخله مئات من اليهود. وفي الوقت الحاضر تُنتَهك حرمة المقدسات الإسلاميَّة والمسيحيَّة في القُدس كلَّ يوم تقريباً من قبل قوات الاحتلال الصُّهيونيّة، ويتعرَّض الحرم القُدسيُّ الشَّريف لخطر الانهيار، بسبب الحفريات الواسعة من تحته، بحثاً عن أنقاض هيكل سليمان المزعوم.

ثالثاً: الاعتبارات القانونيَّة

1-لا يملك اليهود أي أسانيد تاريخيَّة ودينيَّة، تُخوِّلهم امتلاك فلسطين ومدينة القُدس سواء في الزمن الغابر أو في التَّاريخ الحديث، فالقانون الدوليُّ لا يعترف بالمزاعم القائمة على ادعاءات ذات مفاهيم دينيَّة مثل عبارات: الوعد الإلهي وأرض الميعاد والأرض الموعودة وشعب الله المختار. ولعدم توفر الأسانيد التَّاريخية والدِّينيَّة والقانونيَّة لديهم. سعى الصَّهاينة الأوائل لدى السُّلطان عبد الحميد الثاني للحصول منه على براءة استيطان فلسطين، إلا أن السُّلطان عبد الحميد الثَّاني رفض رفضاً قاطعاً ونهائياً طلبهم عام 1902.

2-في مسألة حقِّ شعبٍ ما في تملك أرض ما، فإن القانون الدوليَّ ينص بوضوح تام على أن شعباً ما يفقد حقَّه في ملكيَّة أرض ما، إذا رحل عنها وتركها بقصد التنازل عن سيادتها، والحقيقة أن اليهود القدماء رحلوا عن فلسطين بمحض إرادتهم وانقطعتْ صلتهم بها منذ أكثر من 2500 سنة. والقانون الدَّوليُّ أيضاً يقرُّ قانون "التقادم المسقط" الذي يقضي بأن شعباً ما يفقد حقَّه في

المطالبة بأرض ما إذا وضع شعبٌ آخر يده على هذه الأرض لفترة طويلة من الزمن. والواقع أن اليهود القدماء فقدوا دولتهم الصَّغيرة قصيرة العمر في فلسطين، وزال وجودهم السِّياسيُّ والسُّكَّانيُّ فيها، بعد خمس سنوات من وفاة سليمان عليه السَّلام. ثم تناوب على فلسطين عشرات الغزاة الأجانب، ولم تستقر بها الأحوال إلا بعد الفتح العربيّ الإسلاميّ لها في القرن السَّابع للميلاد؛ حيثُ دامت السِّيادة للعرب والمسلمين على فلسطين لحوالي أربعة عشر قرناً من الزَّمن.

3-توجد صلات تاريخيَّة مُكتسبة للعديد من الشُّعوب في فلسطين، بسبب ظروف غزوها واحتلالها العسكريّ من قبل هؤلاء الغزاة الأجانب، إذ إن اليهود لم ينفردوا بوجود صلات تاريخيَّة قديمة في فلسطين، بالإضافة إلى أن عمر تواجدهم الزمني فيها كان قصيراً جداً، واستناداً إلى دعوى الصِّلات القديمة بفلسطين، فإن من حقِّ الفراعنة والفرس والإغريق والرُّومان والأتراك وغيرهم المطالبة بحقوق تاريخيَّة في فلسطين.

4-وفي العصر الحديث فإن الحجج القانونيَّة، التي قام عليها الكيان الصُّهيونيّ في فلسطين هي حجج ضعيفة جداً، وليس بإمكان الصَّهاينة اللجوء إليها لتبرير استعمارهم لفلسطين للأسباب التالية:

أ-بالنسبة لوعد بلفور الصَّادر عن الحكومة البريطانيَّة في الثَّاني من تشرين الثَّاني/ نوفمبر عام 1917، ويعتبر الوعد أول وثيقة قانونيَّة بيد الصَّهاينة، وبمثابة صكِّ البراءة الذي يخوِّلهم حقَّ استعمار فلسطين الذي طالما سعوا إليه لدى السُّلطان العثماني، فإن على الوعد مأخذاً قانونياً قوياً جداً، وهو أنه صدر في الوقت الذي كانت فيه فلسطين ما تزال من ممتلكات الدَّولة العثمانيَّة ولا يحقُّ لبريطانيا أو غيرها التَّصرف في أرض لا تمتلكها، ثم تقوم بمنحها لمن تشاء، كما أنَّ النَّصَّ الأصليَّ لوعد بلفور تضمَّن نقطتين مهمَّتين:

الأولى: لم يُشِرْ نصُّ وعد بلفور إلى حقوق تاريخيَّة لليهود في فلسطين، وإنما أشار فقط إلى صلات تاريخيَّة لهم بها. ومن الجدير بالذكر أنَّ معظم السَّاسة البريطانيِّين وقتئذ، اعترضوا بشدَّة على أن يتضمَّن نصُّ وعد بلفور عبارة "الحقوق التَّاريخيَّة القديمة لليهود في فلسطين" لعدم اقتناعهم بصحَّة المزاعم الصُّهيونيّة.

والثَّانية: أن نصَّ وعد بلفور اشترط عدم المساس بحقوق الطَّوائف الأُخرى في فلسطين "وهم الأغلبيَّة السَّاحقة من الشَّعب الفلسطينيّ"، ولم ينص وعد بلفور على إبادة هذه الطَّوائف وتشريدها واقتلاعها من أرضها وجذورها.

ب-بعد الحرب العالميَّة الأولى، أخذت بريطانيا على عاتقها وضع فلسطين تحت الانتداب من النوع (أ)، وهذا النوع من الانتداب يلزم الدَّولة المنتدِبة بمنح الاستقلال التَّام للدَّولة المنتدَب عليها، حالما تستقرُّ أوضاعها، ويصبح أهلها قادرين سياسيَّاً واقتصاديَّاً وأمنيَّاً على الاضطلاع بمهمة حكم بلادهم. ومهما كانت دوافع الحكومة البريطانيَّة في إصدار وعد بلفور، فإنه كان يتوجَّب عليها أن تنهي انتدابها لفلسطين بمنحها الاستقلال التَّام في دولة واحدة ذات أغلبيَّة سُكَّانيَّة عربيَّة تطبيقاً لقانون الانتداب من النوع (أ).

ج-لم تجرِ عصبة الأمم استفتاءً في فلسطين لمعرفة رأي شعبها في قضيَّة فرض الانتداب عليه، ولا إذا ما كان يقبل ببريطانيا لتقوم بها الانتداب قبل أن تصدر قرارها بانتداب بريطانيا على فلسطين عام 1922. كما أن الجمعية العامَّة للأمم المُتَّحدة فعلت الشيء ذاته عندما أصدرت قرارها بتقسيم فلسطين عام 1947، وهذا ضرب بعرض الحائط لأبسط مبادئ الديمقراطيَّة التي تتغنى بها أوروبا والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

د-بالنسبة لقرار تقسيم فلسطين إلى دولتين: دولة عربيَّة وأُخرى يهوديَّة، الصَّادر عن الجمعيَّة العامَّة للأمم المُتَّحدة في التَّاسع والعشرين من أيلول/ سبتمبر عام 1947، فإنه يعتبر من الناحية القانونيَّة مجرد توصية، وليس ملزماً لجميع الأطراف، للقيام بتطبيقه، لا سيما وأن بعض الدول، ومن بينها الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، تراجعتْ عن تأييدها لقرار تقسيم فلسطين، وسحبتْ موافقتها عليه. ومن المعروف أنَّ قرار تقسيم فلسطين، قد أبقى مدينة القُدس خارج نطاق الدَّولة اليهوديَّة، اعترافاً من المنظَّمة الدَّوليَّة بعدم أهلية اليهود القيام بمهمَّة حماية الأماكن المُقدَّسة الإسلاميَّة والمسيحيَّة في المدينة المُقدَّسة. وهذا ما حدث بالفعل، بعد احتلال الصَّهاينة للقدس الشَّرقيَّة، التي تضمُّ الأماكن المُقدَّسة الإسلاميَّة والمسيحيَّة. فالكلُّ لا يزال يذكر مُحاولة الصَّهاينة إحراق المسجد الأقصى المبارك في الحادي والعشرين من آب/ أغسطس عام 1969، وقد أدَّت

هذه الجريمة إلى تدمير المنبر الأثري الذي أمر بصنعه السُّلطان الزنكي نور الدين محمود، ثم قام بوضعه في المسجد الأقصى القائد صلاح الدين الأيوبي. وفي الثَّالث من آب/ أغسطس عام 1967، قام الصَّهاينة بسرقة التاج المصنوع من الذهب الخالص والمرصع بالآلئ النفيسة، الذي كان يعلو رأس تمثال السَّيِّدة العذراء في كنيسة القيامة بالقُدس، وسرقوا أيضاً الصَّليبيّن الذهبيين اللذين كانا يزينان التمثال. لم يتوقف الاعتداء على الأماكن المُقدَّسة في القُدس عند هذا الحدِّ، وإنَّما تجاوزه إلى تسلل الصَّهاينة بكلابهم إليها ودخول نسائهم إلى كنيستي القيامة والمهد بصورة مشينة وخليعة. أما في الوقت الحاضر فإن انتهاك اليهود لحرمة الأماكن المُقدَّسة بالقُدس هو أمر يحدث كل يوم تقريباً وموثق بدقة بواسطة عدسات كاميرات وكالات الأنباء العالميَّة ومحطات التلفزة في جميع دول العالم.

4-لم يتمكّن الصَّهاينة من العودة إلى فلسطين وإقامة كيانهم الغاصب فيها بقُوَّة الأسانيد والحجج التَّاريخيَّة والدِّينيَّة والقانونيَّة، وإنما عادوا إليها بقُوَّة البطش والإرهاب البريطانيِّ والصُّهيونيِّ، فقد اشتركتْ قوَّات أعظم دولة في العالم حينذاك مع قوات العصابات الصُّهيونيّة في إرهاب الشَّعب الفلسطينيّ الأعزل بالقتل والإبادة والتَّشريد والتَّهجير، والسَّجن والتَّعذيب والحصار والتَّجويع، والنَّسف والتَّدمير والتَّخريب. وهذا مخالف، بطبيعة الحال، لجميع الشَّرائع السَّماوية والقوانين الدَّوليَّة، وهو ضدُّ مبادئ حقوق الإنسان وحُرِّيَّة الشُّعوب في تقرير مصيرها داخل أوطانها.

والآن..

إن أوروسالم.. يبوس .. القُدس الشَّريف.. بيت المقدس، أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشَّريفين، مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعراجه إلى السَّموات العُلى، ومهد رسالة السَّيِّد المسيح بن مريم عيله السَّلام، ومهبط الوحي على كثير من أنبياء الله عليهم السَّلام، الأرض المُقدَّسة المباركة في أشدِّ الحاجة إلينا، مُحتاجة هي أن نبذل من أجلها كل غالٍ و نفيس، لكي نفكَّ أسرها ونحرِّرها من دنس الصَّهاينة الأنجاس. ومخطئ منْ يظنُّ أن الصِّراع العربيَّ - الإسرائيليَّ هو مجرد صراع عسكري فقط، فهو في الحقيقة

أعمق وأخطر من ذلك بكثير. فالهزيمة العربيَّة الأولى في الصِّراع العربيّ - الإسرائيلي عام 1948 لم تكن هزيمة عسكريَّة بالدرجة الأولى، وإنما هزيمة شاملة لمجموع التكوين السِّياسيِّ والعسكريّ والاقتصاديِّ والإعلاميِّ والأمن القوميِّ للمنظومة العربيَّة، وسقوط مدوٍ لها ثقافيَّاً وحضاريَّاً واجتماعيَّاً وعقائديَّاً وتعليميَّاً، بالإضافة إلى التأثيرات النفسيَّة والمعنويَّة الخطيرة المُصاحبة لها. وخلال الخمسين سنة الأولى من عمر الصِّراع العربيّ - الإسرائيلي، انجرفنا أولاً وراء شعارات جوفاء، وقرعنا طبول الحرب، دون أدنى استعداد لها، مما أدى إلى المزيد من الكوارث العسكريّة والاقتصاديَّة والنفسيَّة للعرب، ثم انسقنا ثانياً وراء اتفاقيَّات التَّسوية غير العادلة والمهينة مع الكيان الصُّهيونيّ والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، ابتداء من مشروع روجرز عام 1968 وحتى الآن. ولمواجهة الخطر الصُّهيونيّ المُحدق بالعرب، كان يجدر بنا أن نسعى، بكل جدٍّ وأمانة وإخلاص، إلى إصلاح الخلل الخطير في منظومتنا، ثم التحرُّك جميعاً ضمن إطار خطط شاملة مدروسة جيداً، حتى نضمن تكللها بالنجاح، بدلاً من الدخول بمنظومتنا المهترئة في مسالك ومعارج، لم نجنِ منها إلا الويل والوبال. فالخطر الصُّهيونيّ لا يعترف بحدود جغرافيَّة على الإطلاق ويهدد المنطقة العربيَّة بأسرها تمهيداً لإقامة إسرائيل الكبرى الممتدة من النيل إلى الفرات (خارطة رقم 4) تحقيقاً لنبوءات توراتيَّة زائفة. ونحن لسنا من السَّذاجة بحيثُ نتصوَّر أنه بإمكان حفنة من اليهود احتلال العالم العربيّ واستعماره بالطُّرق التَّقليديَّة المعروفة، لأن التَّعداد البشريَّ ليهود العالم كلِّه لا يمكِّنهم من ذلك، وإنَّما هم يسعون إلى وضع العالم العربيّ تحت هيمنتهم المطلقة في النواحي السِّياسيَّة والعسكريّة والاقتصاديَّة والأمنيَّة والإعلاميَّة والثقافيَّة والتعليميَّة. والهدف من هذه الهيمنة الصُّهيونيّة على العالم العربيِّ، هو إطالة عمر الكيان الصُّهيونيّ في فلسطين، أكبر مُدَّة مُمكنة. ولتلافي المصير الذي انتهت إليه المستوطنات الصَّليبيّة في المشرق العربيّ أثناء القرون الوسطى، وبالتالي إطالة عمر الكيان الصُّهيونيّ الغاصب، أنشأ الصَّهاينة معهداً خاصاً مجهزاً بمجموعات من الدَّارسين والباحثين في جميع المجالات، وقد توصَّل الدَّارسون إلى نتيجتين مهمَّتين:

الأولى: هي أن يتخلَّص الكيان الصُّهيونيُّ، تدريجياً وحسب خطط مدروسة، من المساعدات الخارجيَّة وبخاصَّة فيما يتعلق بالأسلحة الاستراتيجيَّة. ولهذا أنشأ الكيان الصُّهيونيّ صناعات حربيَّة متطوِّرة جداً للأسلحة الاستراتيجيَّة، مثل

الدبابات والطَّائرات والصَّواريخ بكافة أنواعها، بالإضافة إلى الأسلحة النوويَّة وغيرها من أسلحة الدمار الشَّامل. ونحن لا نعرف على وجه اليقين حجم الترسانة النوويَّة الإسرائيليَّة، وكل ما يقال هو مجرد تخمينات، إذ إن الكيان الصُّهيونيّ بدعم وتأييد من الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لا يسمح بتفتيش منشآته النوويَّة، ولم يوقع على اتفاقيَّة حظر الأسلحة النوويَّة. وإذا كانت الأسلحة النوويَّة تنتج أساساً لاستخدامها كقُوَّة ردع استراتيجيَّة فعَّالة، فإن الصَّهاينة - إذا كانوا يملكونها بالفعل - يهدفون من إنتاجها إلى وضع العرب دائماً تحت إرهابهم النووي، واستخدامها فعلاً في حالة إذا ما تعرض وجودهم لخطر حقيقي. ولا يبدو أن بإمكان الكيان الصُّهيونيّ في فلسطين المحتلة التخلص حتى الآن من المساعدات الخارجيَّة السِّياسيَّة والعسكريّة والاقتصاديَّة والإعلاميَّة، فلولا هذه المساعدات لما تمكَّن الكيان الصُّهيونيّ من البقاء حتى الآن، ولولا التكنولوجيا والسِّلاح والتدريب الغربي لما استطاع الصَّهاينة خوض حروبهم التوسعيَّة في المنطقة والاستيلاء على مساحات شاسعة من الأرض العربيَّة، تبلغ أضعاف مساحة الكيان الصُّهيونيّ في فلسطين المحتلة.

والنتيجة الثَّانية: يدرك الصَّهاينة، تمام الإدراك، أن كيانهم الغاصب في فلسطين المحتلة هو جسم غريب زرع في قلب العالم العربيّ ومن الممكن لفظه في أي لحظة، ولتلافي المصير المروع الذي آلت إليه الممالك والإمارات الصَّليبيّة في فلسطين وبلاد الشَّام، خطط الصَّهاينة ليس إلى دمج كيانهم في المنظومة العربيَّة، وإنما وضع المنظومة العربيَّة تحت هيمنتهم العسكريّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والأمنيَّة والثقافيَّة والتعليميَّة، لدرجة أنَّهم يريدون منَّا، بدعم من الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، أن نعيد النَّظر في مناهجنا التَّعليميَّة، وبخاصَّة التَّعليم الدِّينيُّ والقوميُّ، حتى يصبح وجودهم في بلادنا أمراً مشروعاً ومقبولاً، أي ما يسمى بمشروع الشَّرق أوسطيَّة. والشَّرق الأوسط عبارة عن اصطلاح قديم، ظهر لأول مرة في بريطانيا أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية، للدَّلالة على الموقع الجغرافيِّ للمشرق العربيِّ، بالنسبة لموقع بريطانيا بصفتها مركز العالم. ومن هذا المنطلق فهنالك الشَّرق الأدنى والأوسط والأقصى. وبعد انتقال مركز الثقل العالمي عقب الحرب العالميَّة الثَّانية من بريطانيا إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، ورثتْ الأخيرة هذا الاصطلاح، ولكنه لم يعُدْ مجرد اصطلاح جغرافي، وإنما

تطوَّر إلى مشروع استعماريٍّ عنصريٍّ، تقف وراءه الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة بالاشتراك مع الكيان الصُّهيونيِّ، هدفه الأساسيُّ مسح الهويَّة التَّاريخيَّة والثَّقافيَّة والحضاريَّة للعرب. فمشروع الشَّرق أوسطيَّة يريد أن يلغي عشرة آلاف من التَّاريخ هي عمر التَّاريخ العربيّ الفلسطينيّ، ويساوينا نحن العرب أصحاب الأرض والتَّاريخ والحضارة بهمج التَّاريخ وبرابرته، ثم يفرض علينا وعلى العالم كلِّه تاريخاً مزوراً يظهر فيه الصَّهاينة المغتصبون وكأنَّهم الأصل في فلسطين، ويظهر العرب أصحاب التَّاريخ والحضارة الرائدة وكأنَّهم الغرباء العابرون في هذا التَّاريخ.

وفي محاولة لتلميع وجه الكيان الصُّهيونيّ وتجميله، وكنوع من ذرِّ الرَّماد في العيون لوَّح الصَّهاينة بمشروع الدَّولة الفلسطينيّة في غزة والضِّفة الغربيَّة، ولا يبدو أنه بمقدور الصَّهاينة تحمُّل فكرة الدَّولة الفلسطينيّة إلى جوارهم، لأن إنكار وجود الشَّعب الفلسطينيّ هو من صميم الفكر والعقائد الصُّهيونيّة. وبالرَّغم من الحملات المحمومة لدُعاة التَّطبيع مع الكيان الصُّهيونيّ في السنوات الأخيرة، فإن الغالبيَّة العظمى من الشَّعب العربيّ ليست على استعداد لتقبل مشروع الشَّرق أوسطيَّة، وبخاصَّة بعد انتفاضة الشَّعب العربيّ الفلسطينيّ الثَّانية في أيلول/ سبتمبر عام 2000، بسبب انتهاك الإرهابي الصُّهيونيّ آرييل شارون وجنوده لحرمة المسجد الأقصى المبارك بالقُدس، وما تبعها من عمليات إبادة جماعيَّة للشَّعب الفلسطينيّ في غزة والضِّفة الغربية لنهر الأردن، من قِبَل قوات الاحتلال الصُّهيونيّة وقطعان المستوطنين اليهود.

أهم المراجع

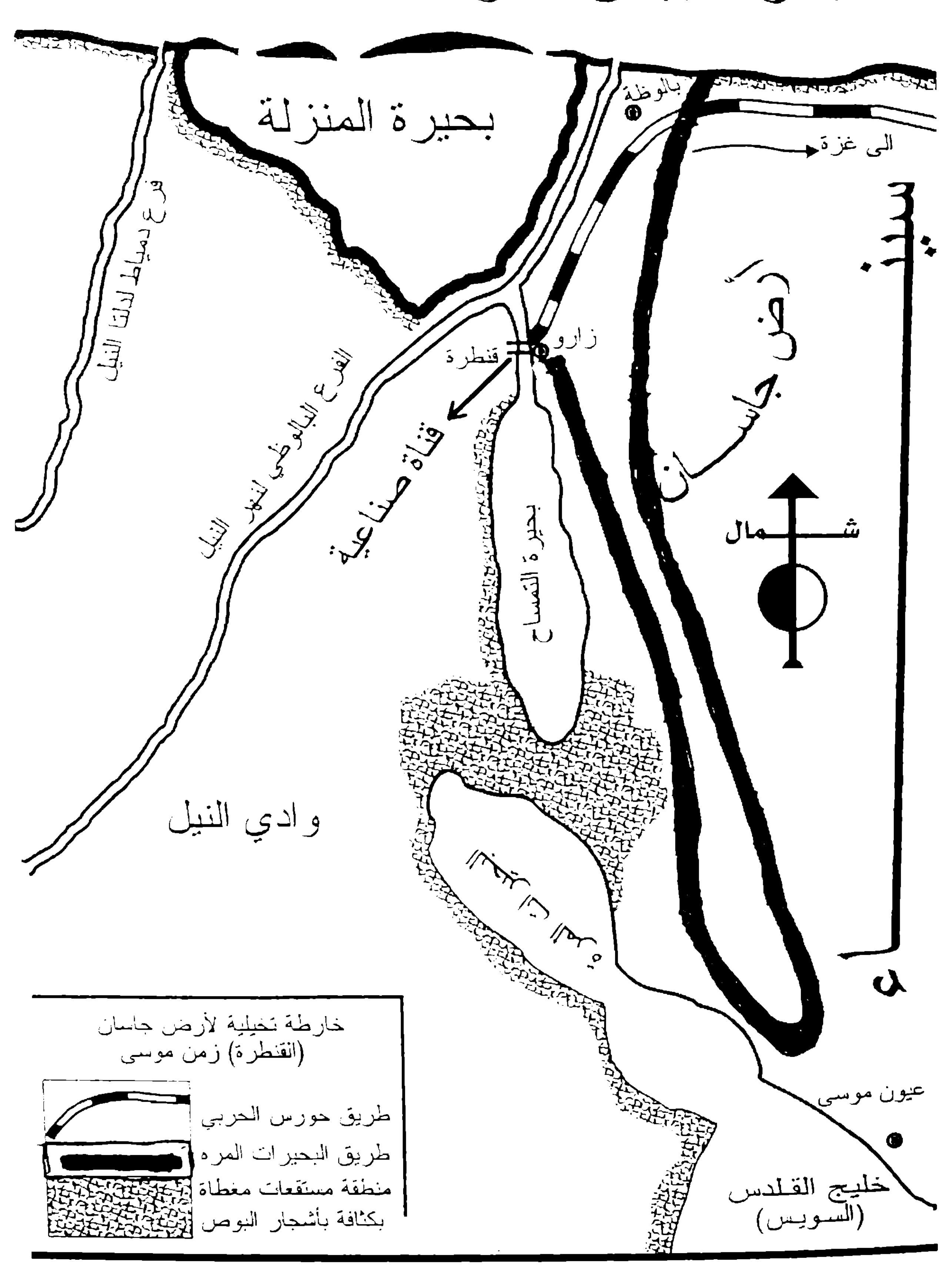
أولاً: المراجع العربيَّة

1-القرآن الكريم
2-الكتاب المُقدَّس: العهد القديم.
3-الأب أنطوان نمنم: المواقع الأثريَّة في فلسطين في فترة ما قبل التَّاريخ - دراسات في تاريخ وآثار فلسطين.
4-د. إبراهيم أحمد العدوي: تاريخ العالم الإسلامي.
5-جورج بوست: قاموس الكتاب المُقدَّس.
6-جون إلدر: أحجار تتكلَّم.
7-روجيه غارودي: فلسطين أرض الرِّسالات الإلهيَّة. ترجمة د. عبد الصَّبور شاهين.
8-ساباتينو موسكاتي: الحضارات السَّاميَّة القديمة.
9-سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصَّليبيّة.
10-سليم حسن: مصر القديمة.
11-شحادة طوطح وخليل بولس: تاريخ القُدس ودليلها.
12-غوستاف لوبون: حضارة العرب.
13-عارف العارف: المفصل في تاريخ القُدس.
14-عبلة المهتدي الزبدة: القُدس تاريخ وحضارة - 3000 ق.م - 1916.
15-عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء.
16-د. علي إبراهيم حسن: التَّاريخ الإسلاميّ العام - الجاهلية - الدَّولة العربيَّة - الدَّولة العباسيَّة.
17-علي حسين خلف: الحضارة الكنعانيَّة والتَّوراة.
18-عماد الدين بن علي أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر.
19-د. فايد حماد عاشور: الجهاد الإسلاميّ ضد الصَّليبيّين في العصر الأيوبي.
20-د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين.
21-فراس السَّواح: لغز عشتار.
22-فراس السَّواح: آرام دمشق وإسرائيل.

23-مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القُدس والخليل.
24-محمد حسين: من فلسطين وأرض كنعان إلى قرطاج - دراسات في تاريخ وآثار فلسطين.
25-محمد عزة دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم.
26-مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين.
27-د. معاوية إبراهيم: فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرّابع قبل الميلاد، الموسوعة الفلسطينيّة، القسم الثّاني.
28-وديع تلحوق: بيت المقدس أمام أحداث التّاريخ.

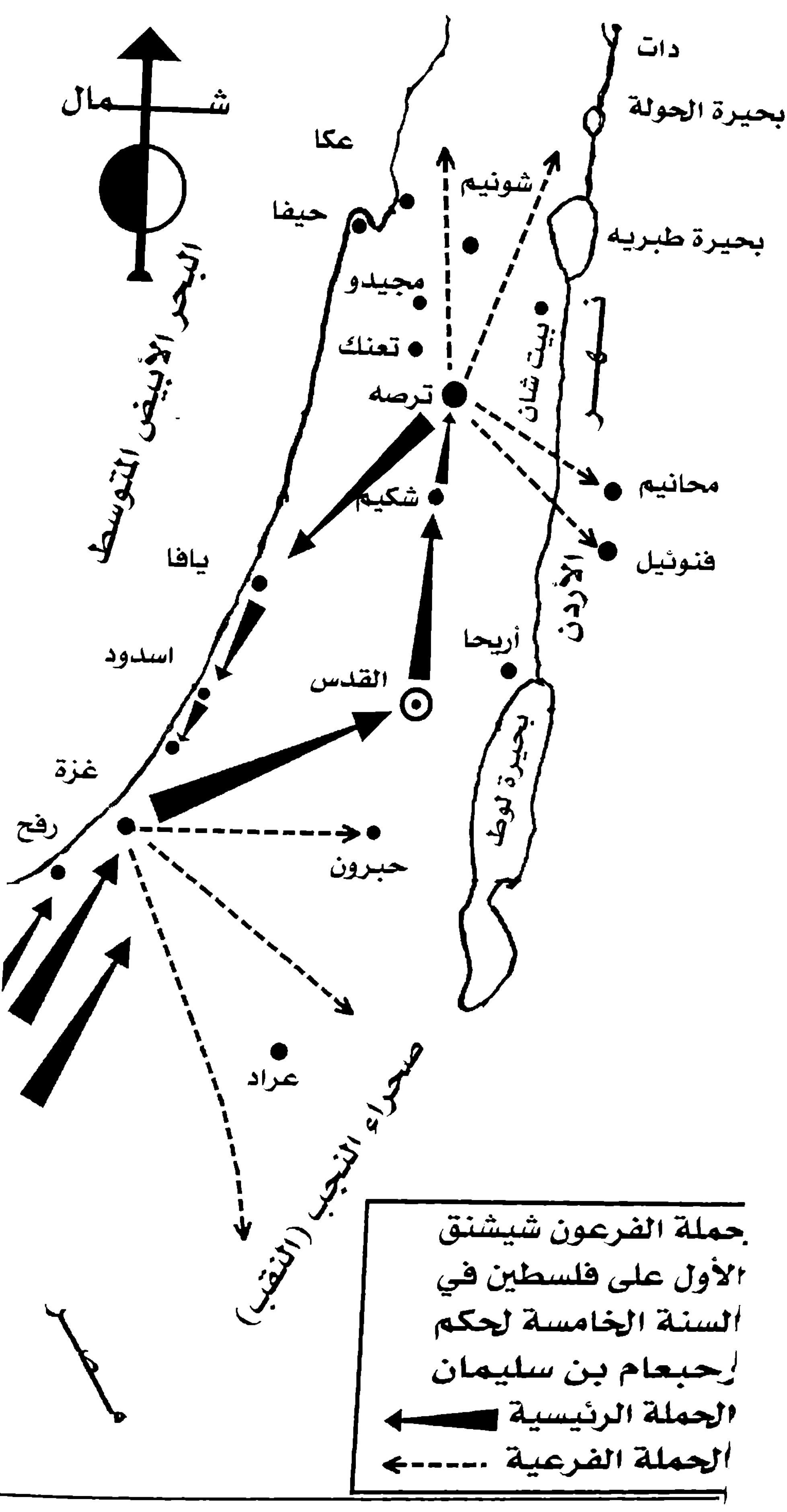
ثانياً: المراجع الأجنبية

1-CHARLES WARREN: Ancient near eastren text relating to old testament.
2-E. HEATON: The Philistines and old testament.
3-KAMEL ASALI: History of Jerusalem.
4-KATHLEEN KEYNON: Digging up Jerusalem.
5- KATHLEEN KEYNON: Archaology of the Hollyland.
6- KATHLEEN KEYNON: Jerusalem Excavting - 4000 years of History.
7-OLMS TEAD: History of Assyria.
8-PRITCHARD: Ancient near eastern text relating to old testament.
9-R.A. MACALISTER; The Philistines, their History and civilization.
10-REDFORD; Egypt - Canaan and Israel in Ancient time.
11-ROPERT HALE: History of Jerusalem.
12-SETTON BALDWIN: History of Crusades.
13-STEVEN RUNCIMAN: History of Crusades.
14-TOMAS TOMPISON: Early History of Israelite people from written and archaelogical sources.
15-VAN SESTERS J.: Hhyksos - A new Investigation.
16-VICTOR TCHERIKOVER: Hellenistic civilization and the Jew.



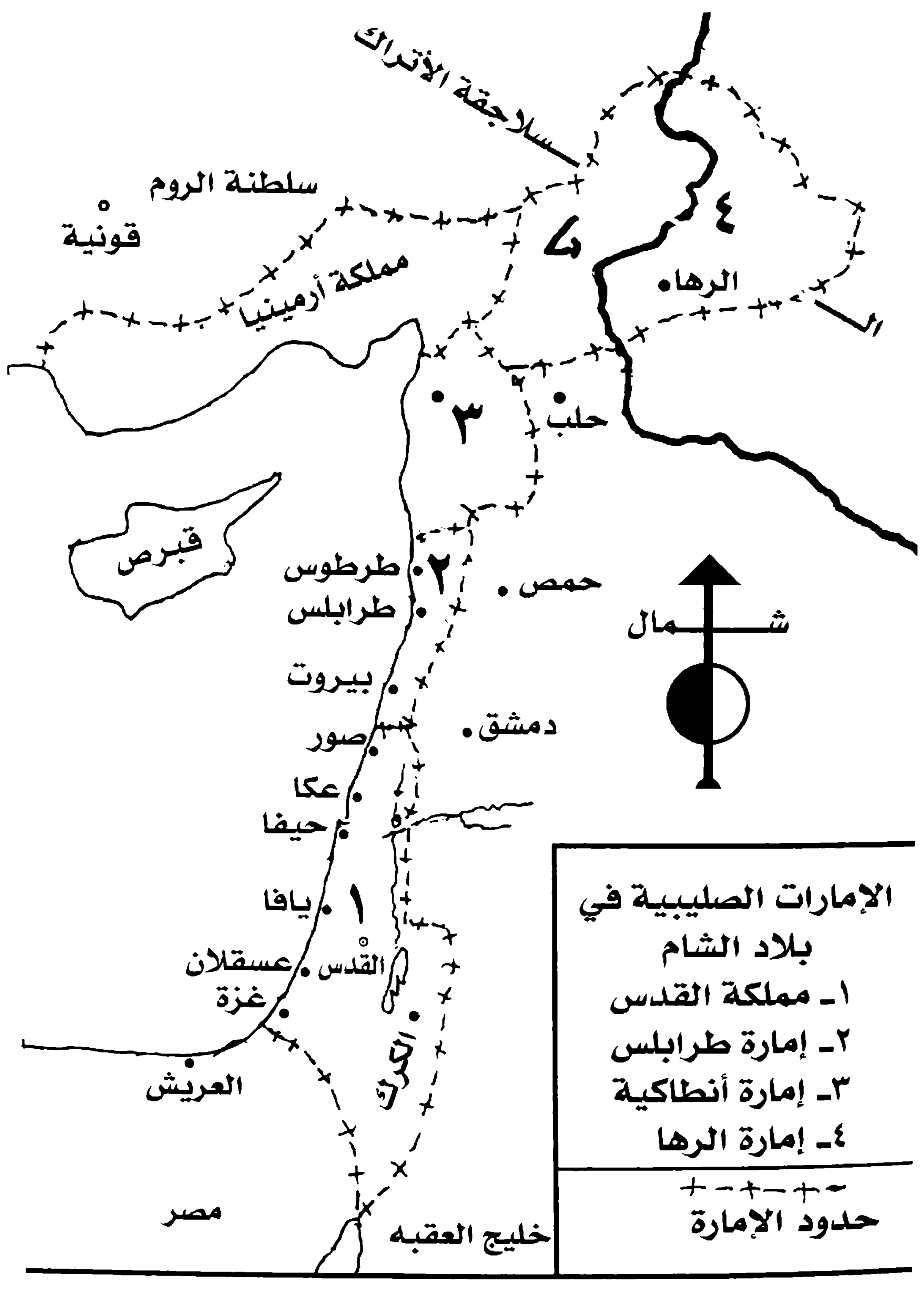
البحر الأبيض المتوسط
بحيرة المنزلة
بالوظة
الى غزة
أرض جاسان
زارو
قنطرة
قناة صناعية
فرع دمياط لدلتا النيل
الفرع البالوظي لنهر النيل
بحيرة التمساح
شمال
وادي النيل
عيون موسى
خليج القلدس
(السويس)
خارطة تخيلية لأرض جاسان
(القنطرة) زمن موسى
طريق حورس الحربي
طريق البحيرات المره
منطقة مستقعات مغطاة
بكثافة بأشجار البوص

خارطة رقم (1)

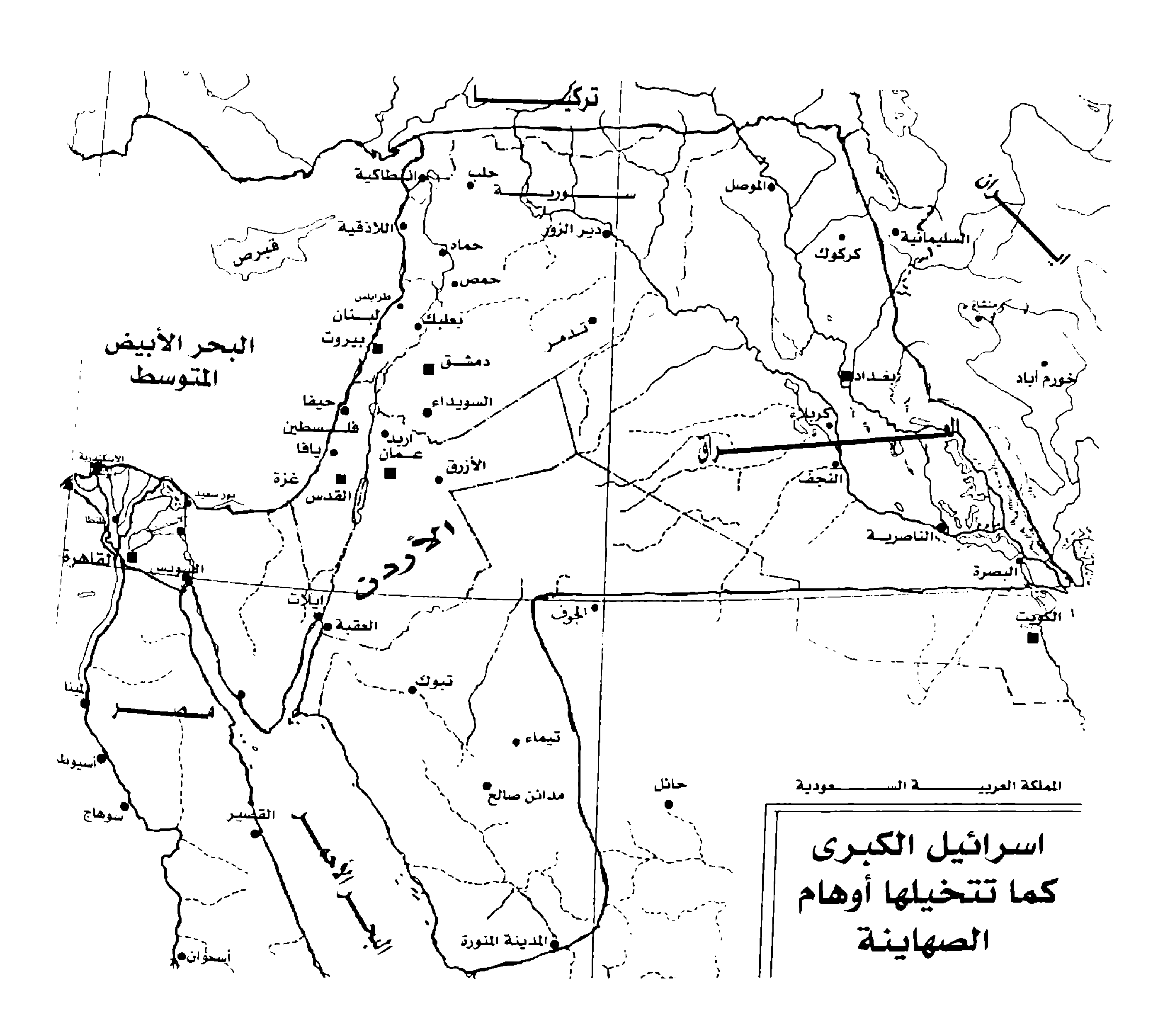


شمال
دات
بحيرة الحولة
عكا
شونيم
حيفا
بحيرة طبريه
البحر الأبيض المتوسط
مجيدو
تعنك
بيت شان
ترصه
محانيم
شكيم
فنوئيل
يافا
الأردن
أريحا
اسدود
القدس
بحيرة لوط
غزة
رفح
حبرون
عراد
صحراء النجب (النقب)
حملة الفرعون شيشنق
الأول على فلسطين في
السنة الخامسة لحكم
رحبعام بن سليمان
الحملة الرئيسية
الحملة الفرعية

خارطة رقم (2)


سلاجقة الأتراك
سلطنة الروم
قونية
مملكة أرمينيا
٤
الرهاء
حلب
٣
قبرص
طرطوس
٢
حمص
طرابلس
شمال
بيروت
دمشق
صور
عكا
حيفا
يافا
١
القدس
عسقلان
غزة
العريش
مصر
خليج العقبه
الإمارات الصليبية في
بلاد الشام
١ـ مملكة القدس
٢ـ إمارة طرابلس
٣ـ إمارة أنطاكية
٤ـ إمارة الرها
حدود الإمارة

خارطة رقم (3)



تركيا
حلب
انطاكية
سورية
الموصل
اللاذقية
دير الزور
السليمانية
كركوك
قبرص
حماه
حمص
طرابلس
لبنان
بعلبك
تدمر
البحر الأبيض المتوسط
بيروت
دمشق
بغداد
خورم أباد
حيفا
السويداء
فلسطين
اربد
كربلاء
يافا
عمان
الأزرق
غزة
النجف
القدس
الأردن
بور سعيد
الناصرية
القاهرة
السويس
البصرة
ايلات
العقبة
الجوف
الكويت
تبوك
المنيا
مصر
تيماء
أسيوط
حائل
المملكة العربية السعودية
مدائن صالح
سوهاج
القصير
المدينة المنورة
أسوان
اسرائيل الكبرى
كما تتخيلها أوهام
الصهاينة

خارطة رقم (4)

الفهرس